أوراق من الذاكرة

إبراهيم خليل

أوراق من الذاكرة

سيرة

طبعة ثانية

2024

رقم الإيداع

الإهداء

إلى والديّ رحمهما الله

الفصل الأول

أول الغيث

أعرف أنني من مواليد برج السرطان فقد جئت إلى هذه الحياة في الـ 27 من حزيران 1948 وهذا العام هو عام النكبة.

كانت ولادتي مثلما سمعت من أهلي، وممن أحاطوا بي، في ظرفٍ قاس. فاللاجئون يحتمون من حر الصيف في ظلال الزيتون الرومي الذي يكثر في قريتنا (عانين) كثرة لافتة للنظر. فحيثما نظر المرء لا يرى إلا كروم الزيتون المتكاثف المتجمع هنا وهناك حتى لا يكاد يرى الأرض من شدة كثافة هذه الأشجار المعمرة. فالناس في قرى المنطقة الممتدة فيما يعرف بالمثلث العربي بشقيه الشمالي والجنوبي وهو الذي يضم قرى عارة وعرعرة ومصمص - بلد الشاعر المعروف راشد حسين - وأم الفحم بلدة الشاعر خالد غبارية والشاعر زياد محاميد والكاتب عمار محاميد، وهي حاضرة المثلث إذا جاز التعبير، فضلا عن قرى باقة الغربية والشرقية والطيبة، وكفر قاسم، وهي القرية التي ارتكبت فيها العصابات الصهيونية مذبحة في29 أكتوبر من العام 1956 وورد ذكرها في شعر محمود درويش

يا كفر قاسم لن ننامَ
وفيك مقبرةٌ وليلُ
فوصيَّة الدم لا تساومْ
ووصية الدم تستغيثُ بأنْ نقاومَ
أنْ نقاومْ

والطيرة، وكفر برّا، وجلجولية، وجتّ، ومرجة، وبير السكة، وإبسان، وغيرها مما لا تحتفظ به الذاكرة، كانوا يفرقون بين هذه الأشجار وغيرها بعبارة الزيتون الرومي. أما الزيتون الذي يزرع فسائل، أو أشتالا جديدة (غرسًا) فلا يوصف بالرومي، وهو لا يكبر، ولا يعلو في السماء علوّ القديم الرومي، ولا يثمر

قدْرَ ما يثمر الزيتون الذي يعتقد أنه زُرع في زمن سيطرة الرومان على هذه الأرض، وهو منتشرٌ في سائر البلاد التي حكموها باستثناءاتٍ قليلة.

في هذه الظروف لا وقت للأفراح بولادة طفل جديد. وربما كان والداي فرحين بي، ولهذا اطلقا علي اسم جدي إبراهيم الذي كان في تلك الأثناء قد بلغ من العمر عتيّا، وهو في أسوأ الأحوال، إذ لم يكن يتمتع بالبصر السليم، ولا بسلامة البدن، وما هي إلا أشهر معدودات حتى توفاه الله، فقيل على رأي الشيوخ، صاحب الاسم الجديد يطرد صاحب السابق، والله أعلم بهذا التطير.

مما قيل لي، فيما هو أقلّ من بلوغي العام، أنّ السماء جادت بالأمطار الغزيرة، وبتساقط الثلوج تساقطا أدى لإعاقة التنقل من بيت لآخر قريبا من الشهر، ويسمون هذه الثلجة الثلجة الكبيرة. فكانوا يؤرخون لي بأنني ولدت قبل الثلجة، ومشيت بعد الثلجة، وهكذا درج القرويون على التأريخ بمثل هذه الحوادث التي فيها شيء يميز الأيام التي وقعت فيها عن أيام أخرى.

ومما يذكر أن هذه الحقبة شهدت نقصا في المؤونة اليومية للناس سواء في المدن أو القرى. واستعاض الفلاحون بخبز الشعير عن القمح لندرته، وارتفاع ثمنه. واقترب القوم من حافة المجاعة. وتلقوا مساعداتٍ من العراق الشقيق على هيئة سلال من التمر يقال للواحدة منها (زمبيلا) وهو يتسع لأكثر من عشرين كيلو من (العجوة) وهي التمر الذي أفرط في النضج.

ولا دراية لي بما كان من شأني في السنوات التي تلت، إلا أنني مثلما سمعت من أمي، ومن أبي - رحمهما الله - أن عارضا صحيًا عرض لي، وألمّ بي، فأخذوني لطبيب في جنين من دار النمر، وأظنه سعيدا، وكان معروفا، مشهورًا، في القضاء كله، فنصحهُم بأخذي لمستشفى في نابلس، مؤكدا أنني أعاني من شيء سماه (أبو خانوق). سمع الوالدان بهذا فطار عقلاهما ظنا منهما أنه داءٌ خطير. وعندما وصلا بي إلى المستشفى في نابلس (المستشفى الوطني) قيل لهما إن

الأمر بسيط جدًا، ولا يدعو للقلق، فاللهاة ، وكان يسمُّونها (طنطيفة) في الدارجة متضخمة قليلا، وهذا يؤدي لاضطراب التنفس، وارتفاع الحرارة، وتحتاج لاستئصال جزء يسير منها، والبقاء في المستشفى (السبيطار) يوما، أو يومين، يخرج بعدهما، وينبغي للأم البقاء معه. وهذا الإجراء اعتاد عليه أولياء الأمور، فهو كثيرا ما يصيب الأطفال في أعمارهم المبكرة، ويجرون هذه العملية لدى مُطهّر أولاد، أو حجّام، أتقن هذه العملية في قرية قريبة تسمى (العَرَقَة : بوزن شَذَرَة) وقد سمعتُ بالكثير من الأطفال، ذكورا وإناثا، ممن ذهب بهم أهلوهم لهذه القرية، وكانوا يعودون مباشرة، فلا مستشفى، ولا ما يحزنون.

كان دخولي المدرسة قبل بلوغي السادسة مما جعلني أصغر التلاميذ في الصف الابتدائي الأول. لكنني كنت أحاول أن أكون في مستوى من بلغوها، وزادوا على ذلك، فمنهم من كان في السابعة، أو أكثر. وبالطبع هذا ترك لدي فرقا في الشعور بأنني الأصغر. وفي الابتدائي يتعلم الأطفال - مثلما هو معروف - أنواعا شتى من المعارف، لكن الذي استأثر باهتمامي طوال السنوات الست في مدرسة القرية حصة الرسم، فهي التي كنتُ أشعر فيها بالارتياح، وأنني قادر على الإتقان قدرتي على الكتابة بخط مقروء. وأكثر ما كان يصعُب علي هو حفظ القرآن الكريم تلاوةً، أو استظهارا وغيبًا، وقد سنحت لي فرصة الإفادة من إمام المسجد فضلا عن المعلم الذي كان مدرسا لكل المواد، والحصص. فهو يدرّس الحساب والتاريخ والجغرافيا والتربية الإسلامية لكون المدرسة صغيرة، وعدد الطلاب قليلا، وعدد المعلمين اثنان، وزيد عليهم معلم واحد بعد بلوغنا الثالث.

أما إمام المسجد الذي أفادني، فهو الشيخ عُمر، وبكنى بأبي حكم. وقد كان يتردد لمنزلنا باستمرار، ولا أبالغ إذا قلت يوميا، بعد صلاة العشاء مباشرة. ويستمر ساهرًا مع أبي لوقت متأخر. وهذا هو ديدنه في جل أيام السنة إلا إذا

شغله عن القدوم شاغلٌ ؛ كدعوته لمأدبة في بيت آخر، أو قدوم ضيف لمنزله. عرفت لاحقا أن حكما المشهور بـ (حكم بلعاوي) الذي هو من أعلام منظمة التحرير ابنه البكر. وكان له ابن آخر في الكويت رياض، وآخر لقب بقبَّج وابنة اسمها (فَصِل) وأخرى زوّجت من أحد أبناء البلد. أما حكم المذكور، فلقيته عندما زرت تونس في العام 1990 للمشاركة في مؤتمر الأدباء والكتاب العرب التاسع عشر، مما سأتحدث عنه لاحقا في موقعه المناسب. وكان المرحوم ياسر عرفات قد أبى إلا دعوتنا لتناول الغداء، واختار أن يكون بيت حكم بلعاوي هو المكان الذي يلتقي فيه المدعوّون، وكان عدَدُنا كبيرًا يضم تقريبا جل المشاركين من أردنيين وفلسطينيين ولبنانيين وعراقيين. فمن المدعوين سالم النحاس، وهاشم غرايبة وفخري صالح، وعمر شبانة، و من اللبنانيين شوقي بزيع، و سهيل إدريس. علاوة على بعض الفسطينيين المقيمين بتونس، ومنهم أحمد دحبور، ويحيى يخلف، وغسان زقطان، وأخرون.

وفي ذلك اللقاء دارَ حديث جانبيٌ قصير مع بلعاوي، الذي كان يشغل في ذلك الحين منصبا كبيرا في المنظمة المعروفة باسم منظمة التحرير الفلسطينية. ومن ذلك الحوار عرف أنني ذلك الولد الذي يتذكر أباه (أبو فؤاد) أكثر مما يتذكـّره. وأخبرني أنه كتب قصة قصيرة منشورة بطلها أبي، لكنني في الحقيقة لم أطلع على تلك القصة قطعًا، وإن كنت قرأتُ له بعض القصص القصيرة في مجلة الأديب البيروتية، وكان يذيّل القصة باسمه(حكم بلعاوي) إلى جانب العنوان في السعودية.

والشيخ عمر كان يستمع لقراءتي السوَر، ويردُّني، إن أخطأت، ويحاول تدريبي على القراءة الجيدة، وبصفة خاصة الإدغام بغنة، وبغير غنة، والإظهار والإخفاء، والمد والقصر، والفصل والوصل، وما شابه ذلك، إلا أنني كنت أجد صعوبة في الاستجابة لهذه الأحكام. ولا أقتنع بضرورة الالتزام بها. وكثيرًا ما

كان يعنّفني، ويخيفني من الخطأ في القرأن، واللحن في آياته، فهذا قد يمهد لي طريقي إلى جهنّم وبئس المصير.

على أيّ حال عرفتُ في هذه السن عددًا من المدرسين، أحدهم اسمه أحمد بركات، وكان صديقا لوالدي، ويزورنا كثيرا، وذيب مشايخ، وقاسم، الذي لا أتذكر بقية اسمه، وآخر اسمه محمد من بلدة نورس. وتوفيق أبو الرب من قباطية، الذي عرف بقسوته، وشدته، في تأديب الطلاب، من يُقصّر منهم في الدروس، أو يغفل عن الواجبات، أو يخطئ في القراءة. فمن وسائل تأديبه التي لا تُنسى أن يوحي بمعاقبة الطالب بالضرب بالمسطرة على ظاهر يده، أو اليدين،عددًا من الضَرَبات، فيمد الطالب يديه متوقعا الألم فيهما، فإذا به يترك المسطرة تهوي إلى الأرض، ويصفع الطالب بكفه على أحد الخدّين، فيحسّ الطالب بالشرر يتطاير من خده.

يعبد

وعندما بلغنا السادس الابتدائي كان ينبغي لنا أن نتقدم لامتحان الشهادة الابتدائية، وهو امتحان عام (مترك) يُعقد في المدارس في الأردن عامّة. وإذا كانت المدرسة صغيرة قليلة الطلبة فلا بد من أن يذهبوا لمدينة فيها مدرسة أو مدارس اعدادية وثانوية كبيرة، وكان علينا في هذه الحال أن نذهب لأقرب مدينة، وهي (يعبد) التي تبعد نحو6 أو 7 كيلومترات عن عانين ونحو 16 كيلو مترا عن جنين. وفيها مدارس إعدادية، ومدرسة ثانوية كبرى يتابع أبناء قريتنا الدراسة فيها بعد السادس الابتدائي.

وتلفظ يعبد على وزن يَفْعَل، وما زلنا نسخر من المذيعين الذين يلفظونها خطأ قائلين: يَعْبُد بضم الباء. وتصنف هذه البلدة إداريا (ناحية) ورأس السلطة فيها يقال له (مدير ناحية) وهو المنصب المقابل للقائم بالمقام في القضاء الذي هو أكبر من ناحية وأقل من لواء، والمتصرف في اللواء الذي هو أكبر من قضاء

وأقل من محافظة. والمحافظ، إذا كانت المدينة أكبر، ومركزا لمحافظة كمحافظة القدس. هذا ما عهدناه أيام وحدة الضفتين. وقد زرت هذه المدينة لأول مرة في شباط فبراير 1958 لحضور الاحتفالات بمناسبة الإعلان عن الاتحاد العربي الهاشمي الذي يضم الأردن بضفتيه الشرقية والغربية والعراق.

وكان احتفالا مهيبًا شاركتْ فيه وحداتٌ من القوات المسلحة، وموسيقى الجيش، بحضور أعداد غفيرة من الناس، بعضُهم طُلب منهم الحضور، والمشاركة، وكلفوا بذلك تكليفا تقتضيه وظائفهم، أو مواقعهم الرسمية. وكان والدي أحد أعضاء لجنة القرية (العَضَوات) ولزاما عليه، وعلى بقية أعضاء اللجنة، والمختار المرحوم فوزي ياسين، الحضور، شاءوا ذلك أم أبوا. والزيارة الثانية يوم تقديم الامتحان. وكان عدد المتقدّمين من قريتنا قليلا. أقل من عشرة. وسارت بنا سيارة أجرة من القرية غربا، فجنوبا، مرورًا بخربة أم الريحان(على كثب منها أنشأ المستوطنون مستوطنة باسم ريحان). وهي بضعة بيوت تقيم فيها عائلة واحدة أكثر رجالها من الرعاة، ينتمون لعائلة سمعت أنها من آل أبو حامْدِه. ومن ينسب لهذه العائلة يقال له الحمدوني وقد اشتهر منهم (عبد الحمدوني) سبب شهرته بلاؤه - وكان عسكريا- في أحد الاشتبكات التي وقعت بين العسكر والجنود الإسرائيليين في الحدود بين عانين وأم الفحم. وكان أحد الرماة على رشاش إنجليزي يسمى (برن) .

ولم تكن في هذه الخربة مدرسة، لذا كانوا يرسلون أبناءَهم للتعلم في مدرستنا، ومنهم الطالب وجيه الذي كان يتقن التجويد فكأنه، حين ينطلق بسورة (الم، غلبت الروم في أدنى الأرض) عبد الباسط عبد الصمد بصوته المعروف. وكانوا لهذه الغاية يقطعون المسافة بين أم الريحان وعانين مشيا على الأقدام، ولم تكن فيها عيون للماء، ولا آبار، فكانوا يرسلون ابناءهم، وأحيانا بناتهم، ولمعت منهنَّ واحدة باسم خُلْدة. (بضم الخاء وتسكين اللام) لجلب الماء من منابعنا على

الدواب. وعلى كثب من هذه الخربة يوجد معسكر للجيش فيه عدد من الجند يتراوح بين الثلاثين والأربعين وبعض سيارات الجيب، والشاحنات العسكرية، واحدة أو اثنتان.

ومن أم الريحان إلى (يعبد) نرى على اليمين غابات من خضرتها الشديدة تكاد تبدو سودا. ونتذكر هاهنا الحُرْشَ المعروف باسم العَمْرة (على وزن: التَمْرَة) فهي الغابة نفسها التي تغلَّب الإنجليز بطائراتهم على الشيخ عز الدين القسام فيها بمعركة ضروس انتهت باستشهاده عليه رحمة الله في 20 / 11 / 1935 هو ومن كانوا معه.

بعد نزولنا من السيارة أمام مبنى المدرسة قادنا المعلم إلى قاعة الامتحان، فألفينا أسماءنا وأرقام جلوسنا مثبتة على المقاعد. وأجري الامتحان في جلستين. إحداهما تضمنت امتحانا باللغة الإنجليزية. وبعد الانتهاء تجولنا قليلا قبل أن نبادر للعودة. لفتت الأنظار أشجار الزيتون الرومي المحيطة بيعبد. وهي لا تختلف قطعا عما نألفه في عانين، وفي غيرها من القرى. وقد تكون كثرة الزيتون أحد الأسباب التي جعلت بعض الميسورين في (يعبد) ينشئون معاصر للزيتون. وكان مشروعهم هذا مربحا. فقد كانت شاحناتهم تطوف القرى المجاورة، وتقوم بتحميل أكياس الخيش المليئة بالزيتون الأخضر الذي مضت على قطفه أيام، وتعود بها للمعصرة، ويدفع أصحاب الزيتون مقابل هذه العملية نقودًا متفقا عليها، أو زيتا معبأ بالصفائح التي تتسع الواحدة منها لما يزيد عن 16 كيلو غرام، وقد تصل إلى 18. وكانت معصرة (أبو سميح عبد الجبار) تحتكر ما تجود به قرية عانين من زيتون. وتمتَّنت علاقته بأعيان البلد حدَّ المصاهرة.

شيءٌ آخر كانت تشتهر به يعبَدُ، ألا وهو زراعة التبغ (الدخان). وفي ذلك تفسير لظاهرة إقبال الطلاب الذين تابعوا فيها دراستهم الإعدادية، والثانوية، على التدخين. والتبغ يعد في بعض الأقطار بضاعة استراتيجية، لذا على المتعاملين

به زراعة، وحصادا، وتصنيعًا، وبيْعًا، أن يدفعوا رسومًا جمركية، وضرائب للدولة تضاف لموارد الخزينة. وتبعًا لذلك كان مزارعو التبغ يخشون قدوم مراقبي الزراعة الذين يصادرون الانتاج إذا لم يكن لدى المنتج تصريحًا بزراعة هذه المادة. وإذا كان لديه تصريح بذلك من الزراعة، والجمارك، فعليه تسديدُ الرسوم المقدرة. وقد تطيح هذه الرسوم بربح المزارع كله. وقيل إنّ الأراضي التابعة لهذه المدينة من أكثر الأراضي مواتاةً وخصبًا لهذا النوع من الزرع، وأوفرها غلةً.

البحث عن مدرسة

تقتضي الحاجة أن ينقل الناجحون في الابتدائية لمدرسة أكبر تضم فيما تضمُّه مرحلة الإعدادي أو الجمع بين مرحلتين أو ثلاث. وكان الطلبة في السابق يرسلون بشهادات انتقال إلى يعبد، ولما كانت السيلة الحارثية التي اشتتهر من أبنائها الثائر يوسف أبو درة، والمجاهد عبدالله عزام، أقرب إلى القرية من يعبد، فقد تحولت التربية من النقل إلى يعبد لنقل الطلبة إلى السيلة الحارثية بعد أن شيدت فيها مدرسة ثانوية كبيرة على يمين الشارع الرئيسي المؤدي إلى جنين. وهي مدرسة حديثة البناء تولي الجانب الزراعي في التدريس والنشاط أولوية. كونها تقع في مكان تحيط به أراض زراعية ممتدة مسافاتٍ طويلة. وفيها مزارع لتربية الدجاج والأرانب والبط وكذلك خلايا النحل. وقد نقل بعض الطلاب إليها لكن بعضهم الآخر - ولأسباب خاصة - آثروا الانتقال إلى مدرسة في جنين، وهي مدرسة حطين الإعدادية. كان لي وضعٌ عائلي خاص، فشقيقتي(خيرية) المتزوجة من ابن عمي(سعيد) الذي يعمل مساعدًا في مكتب أحد المحامين في نابلس، آثرت أن أتابع الدراسة في نابلس حيث هي، فترعاني، وتعتني بي، كوني ما زلت صغيرا لم أتجاوز الثانية عشرة، ويصعب علي أن أقيم وحيدا في جنين، أو الذهاب يوميا للسيلة مشيًا على الأقدام لمسافة تقرب من

4 – 5 كيلومترات. وبالفعل أتيح لي أن أبدأ دراسة الصف الأول الإعدادي في مدرسة الملك طلال الإعدادية.

عبق التاريخ

يمتد تاريخ نابلس إلى ما يقارب 4000 سنة قبل الميلاد. وهي من أكبر مدن فلسطين. ولا تضاهيها من حيث الأهمية إلا القدس والناصرة وعكا وحيفا. ومن حيث الأقدمية تبذها أريحا التي يقال إنها من أقدم مدن العالم. عُرفت نابلس بأسماء عدة منها شكيم والسامرة و جبل النار. وهذه التسمية الأخيرة ذات بعد سياسي، فقد زعم المؤرخون أنها عرفت بذلك لأن جيوش نابليون بونابرت عجزت عن اقتحامها مثلما عجزت عن اقتحام عكا. وأيا ما كان الأمر، فإن مساحة المدينة تزيد قليلا عن 28 كيلو مترا مربعا. وتتبعها بلدات عدة منها حوارة وعقربة وبلاطة وعسكر وبرقة ودير شرف ورفيديا والجنيد وكفر قدوم وغيرها. وعدد سكانها يربو على 190 ألفا.

ومن الناحية الطوبغرافية تمتد بين جبلين، أحدهما هو المسمى الجبل الشمالي، ويعرف باسم جبل عيبال. وهو الذي ورد ذكره في إشارات من شعر فدوى طوقان، وجرزيم، وهو الجنوبي. ويسمى جبل الطور، وجبل البركة ويرتفع نحو 881 مترا عن سطح البحر. وعلى سفحي هذين الجبلين تنتشر المساكن، والحارات. واللافت ان الأحياء التي تمتد على سفح الجبل الجنوبي يغلب عليها القدم، بل الإيغال فيه. فإذا تجول فيه الزائر تنشق عبير الأجداد، وعبق التاريخ نفسه من أزمنة سحيقةٍ معْرقةٍ في القدم. وتشهد بعض أحيائه، كحارة الياسمينة، بتعرّض هذه المدينة لغير قليل من الغارات في الحروب. ويستشف ذلك من شدة الاحتياطات والاحتراس التي تتجلى في تداخل الأزقة، وارتفاع الجدران حتى لا تُرى الشمس فيها، فيحتاج المتنقلون نهارا إلى إضاءة مصابيح. والشوارع أو الطرقات القديمة فيها تشبه الأقبية. فهي مبلّطة

ومسقوفة تتخلل السقف فتحات لدخول أشعة الشمس نهارا. وأسواقها صُممت على هذا النحو. فخان التجار يمتد من شرق المدينة إلى ما يقارب آخرها من الغرب بالنسق المذكور، وعلى جانبي الشارع المبلط تصطف الحوانيت بأبوابها الخشبية العتيقة، ومزاليجها المعدنية التي تمتد من طرف الباب إلى طرفه الاخر. وفي هذه الحوانيت، وهي أقرب للضيق منها للاتساع، بضائع من مختلف الأشياء كالملابس والأحذية والأواني المنزلية والأقمشة والمقاهي والمطاعم الصغيرة وباعة التحف والألعاب، وجل ما تتطلبه الحياة اليومية للناس. وفي آخره تنتهي السقوف، ويشعر المرء بما يشبه الخروج من القبو إلى الفضاء، فإذا بفسحة كبيرة تباع فيها المواد الغذائية الطازجة؛ كالخضار والفواكه واللحوم والأسماك والألبان والأجبان وبعض البهارات. وقد يجد المتجول صالة حلاقة للرجال، أو بقالة لبيع القهوة والشاي والرز والسكر والسمن وزيت الطبخ. ويطلق على هذا المكان" سوقُ البصل " مع أنه لا يختص بهذه المادة إلخ.

كنت قد زرت هذه المدينة صغيرا بعد إقامتي أياما في المستشفى، وذلك لأن لنا أقارب فيها. فقد كان أحدُ أبناء عم أبي (أبو سليمان) قد أنشأ دكانا في الجبل الشمالي، وأقام في المنزل الذي يشكل الدكان قسما منه، وزرناه غير مرة. وكانت لأبي علاقة ببعض تجار الأقمشة، وأذكر منهم (ابا حسن الزَلَط) وهو مثلما سمعت فحماويّ، أي أنه من أم الفحم. إلى جانب علاقته الحميمة بمدير فرع شركة التبغ والسجاير المساهمة واسمه ناصر الحداد. وهو من الناصرة، لكنه غادرها في العام 1948 واتخذ من رام الله مقاما مع عائلته، وظل فيها إلى أن توفاه الله. ولنا مثلما علمتُ شراكة في أراض مع آل الحداد. ولهذا السبب كان على والدي زيارته زياراتٍ متباعدة لمتابعات الحسابات الخاصة بتلك الشراكة، واصطحبني في تلك الزيارات مرارًا. وكان كريما جدا فما إن يستقبلنا بوجهه البشوش، وابتساماته العريضة، حتى يتصل بأحد مطاعم الحلويات، طالبا بعض

(الكنافة) لنا، ولكل الموظفين. وكنا نحن أيضا كرامًا معه، ومع موظفيه، فلاأذكر مرة زرناه فيها ولم نصطحب مقدارا كافيا من المسخن، وهو من الأكلات الشعبية التي لا يعرفها أهل المدن. وكان متيمًا بهذا النوع من الطعام كثيرًا، هو، وجلّ الموظفين في الشركة.

كنافة نابلس

في نابلس شيئان تختص بهما، أولهما هو الحلوى التي تسمى كنافة، وتوصف بالاسم المتمم نابلسية. وقد بلغت شهرة المدينة بهذه الحلوى حدا أصبحت تنسب لنابلس حيثما وجدت. ففي الأردن توصف بالنابلسية على الرغم من أنها تصنع في عمان. وفي غيرها. وفي الشام توصف بالنابلسية. وكذلك في لبنان، وحتى في مصر، وفي بعض دول الخليج. وثمة معتقدات تزعم أن هذه الحلوى لا تحسن ولا تحظى بالإتقان التي تحظى به في نابلس، ففي جنين افتتح أحدهم مطعمًا للحلويات، وظن أنه بذلك يسد نقصا فيها لخلوها ممن يقدم الكنافة للزبائن. ولوحظ أن كثيرين لم يقتنعوا بهذه الكنافة، فهم يشكون في جودتها، لا لشيء إلا لأن من يقومون بتحضيرها من غير النوابلسي. ويعزو بعضُهم ذلك إلى الماء، فهو في نابلس يتمتع بخاصية لا توجد في مياه المدن الأخرى. وهذا يظهر أيضا في الشاي، وفي البَشَرة. فالنابلسيون غالبا فاتحو البشرة تميل إلى البياض، والصفاء، أكثر من غيرهم. وسمعت من يؤكد أنه لما قضى فترة من السنة في نابلس، وعاد إلى قريته، لم يعرفه بعضهم لتغير لون البشرة. ذلك الأمر اختبرته بنفسي، فقد أقام بعض الشبان من عانين فيها يعملون في المحاجر، وفي الكسارات، والبناء، وعندما كانوا يأتون إلى القرية زائرين كنا نرى في وجوههم هذا التغيير، ثم يعودون بعد مدة لسابق عهدهم.

وقد اشتهر بهذه الحلوى أعلام منهم عرفات، والمصري، ومتجره يقع في باب الساحة التي اتخذت منها سحر خليفة عنوانا لرواية من رواياتها صدرت في العام

1990. ويسمى حلويات المصري، وهو الأكثر شهرة. والعَكِر الذي يقع متجره في الشارع المؤدي إلى البلدة الجديدة، وإلى أسواق الكرنك، وسينما العاصي، مرورا بمقهى الجامعة العربية. وقد افتتح في أخرة فرعا له في عمان في شارع المدينة المنورة المؤدي إلى تقاطع الواحة مع الغاردنز. وتُروى عن هذين العلمين من أعلام الكنافة نكتة طريفة. تقول: إن اثنين من الأكيلة تحزبا لهما: احدهما يدعي أن العكر هو الأول في هذه الصناعة، والآخر يدعي المصري. فما كان من صاحب المصري إلا أن اقسم أن العكر كان صبيًا لدى المصري. وأن وظيفته كانت تقتصر على جمع الصحون، وتنظيفها، وقالها بالعامية(جلّا صحون) وأنه اقتبس الصنعة من معلمه. فاستشاط مؤيد العكر غاضبًا ولكم خصمه لكمة أطاحت ببعض أسنانه. ولما علم العكر بأن نصيرهُ في الحبس قام بزيارة السجين، حاملا طبقًا (سِدرًا) من الكنافة جرى توزيعه على المحابيس الذين فرحوا بذلك، وتمنوا وقوع مشاجرات كثيرة كهذه.

الصابون

والشيء الأخر الذي تعرف به نابلس هو الصابون. فعندما كنت مقيما فيها للدراسة مررت بأمكنة كثيرة تفوح منها رائحة خاصة تعرف بها(المصبنة) أي مصنع الصابون النابلسي الذي يستخدم في الاستحمام خاصة. وقيل إن فيها نحو 80 مصبنة وأن هذه المصابن بعضها يزاول هذه الصناعة من عشرات السنين وأكثر. ويُصدَّر هذا الصابون لمختلف بلاد الشام ومصر. ويقال إنه أكثر جودة من أيّ صابون. وله ماركات مسجلة بعضها يعرف بصابون النعامة، وبعضها بصابون الجمل، وبعضها بصابون المفتاحين، وهو أكثرها جودة. وما هي في الواقع إلا علامات لا أكثر، ولا أقل، فالمادة واحدة. هذا إذا كان من النوع الأبيض، أما الأخضر منه فرخيص، ولا علامات مسجلة مشهورة له. وهو لا يستعمل في الاسْتحمام، وإنما يقتصر استخدامه على غسل الملابس، والأواني،

قبل أن تعرف المساحيق المستخدمة في ذلك.. وسبب شهرة هذه المدينة بهذا اللون من الصابون أنه يؤخذ من بقايا زيت الزيتون التي تفيض بها معاصره في القرى والبلدات المجاورة. فبدلا من أن تتخلص المَعاصِرُ منه سدىً يتم تحويله من (زيبار) لا يصلح للاستهلاك البشري إلى قطع مكعَّبة، ومغلفة، تباع، وتستخدم استخدام الشامبو.

أنا حرة

في واحدة من هاتيك الزيارات دعانا أحد أقاربي أنا ووالدي للذهاب معه إلى السينما. كانت دار العرض تسمى سينما العاصي. والمعروف أن في المدينة دارين أخريين، إحداهما في الشارع المؤدي إلى متنزه البلدية،بعد عمارة الدبس، وفيما يسمى شارع رفيديا، وهي سينما غرناطة، والأخرى في نهاية السوق الممتد من باب الساحة غربا إلى أن يلتقي بشارع رفيديا واسمها سينما ريفولي، وتلفظ الفاء مجهورة كتلك التي بالإنجليزية v . وكان الفيلم مصريا بعنوان أنا حرة – عنوان رواية لإحسان عبد القدوس- وهو من بطولة شكري سرحان، و لبنى عبد العزيز. وعلى الرغم من أنها المرة الأولى التي نشاهد فيها فيلما إلا أننا استمتعنا بذلك رغم ما غشينا من شعور غريب حين أطفئت الأنوار في الصالة، واستغرابنا من المنظم (الكونترول) الذي يضيء مصباحه الكهربائي اليدوي في وجوهنا، ثم يسلطه على بطاقات الدخول(التذاكر) ثم يرشدنا إلى مواقع الكراسي المخصصة لجلوسنا في جناح العائلات.

يحكي الفيلم قصة فتاة متمردة على العادات والتقاليد، وهذا ما حظي باستهجان الوالد والوالدة، فظنا بالسينما ظن السوء، وأنها مفسدة. لاحقا تذكرتُ الفيلم عندما قرأت الرواية في نسخة أظنها من مطبوعات دار الهلال. فلم تعجبني الرواية كالفيلم الذي شارك فيه ممثلون حسبتهم في ذلك الحين نجومًا. لكنني فيما بعد اكتشفت أنني كنت ما أزال غشيما في السينما. فشكري سرحان، على الرغم

من وسامته في الفيلم، وكذلك الممثلة، فقد اتضح لي بعد الخبرة أنهما أيضا غشيمان في التمثيل السينمائي، وأن المخرج صلاح أبو سيف، كالمنتج، كلاهما يخدع الجمهور بوسامة الممثلات، والممثلين، لا غير. والحدث الفني الآخر الذي شهدته هو قدوم عدد من المطربين والفنانين وإحياء حفل في سينما غرناطة. وقد اتيح لي مع أحد أبناء عمي(أبو سليمان) الحضور لقاء تذكرة ليست كبيرة الثمن. وشاهدنا مغنين يؤدون الأغاني شخصيا، منهم؛ المطربة سميرة توفيق التي يظن كثيرون أنها أردنية. والصحيح أنها من مواليد السويداء في سورية 1935، ونشأت في لبنان. وهي من أسرة مسيحية، ووالدها غسطين كريمونة كان من العاملين في ميناء بيروت، وله من الأبناء مانويل وشارل وجانيت وجورج. وقد أقامت في الأردن طويلا. وساعدها صوتها البدوي على أداء الأغاني باللهجة الأردنية، ولذلك فازت بالاستحسان، واستحقت الإقامة في عمان، ومنهم وديع الصافي، وسلوى، وعايدة شاهين، وتوفيق النمري، ومطربون آخرون أقل شهرة. وكان الحفل بهيجا ظل مدار حديث الناس لأيام. ففيه سمعنا سميرة تغني:

(وأنا نازلة البرية
وأدور على الغزلانه
لاقتني بدربي صبية
مثل مطرك الريحانة)

أما وديع الصافي فأثار الجمهور بأغنيته

عمر يا معلم لعمار وعلي حارتنا
عمر لي شي أوضة ودار بتعمر ديرتنا

وبإلحاح من الجمهور غنى أغنيته المشهورة

(بترح لك مشوار
قلت لها يا ريت

قالت لكن إوعا تغار
حوليّ العشاق اكتار
قلت لها بطلت
خليني بالبيت)

طريق أخرى

في الطريق إلى نابلس لا بد من انتظار الحافلة التي تقف قبالة مبنى لبلدية جنين أحد طوابقه مقهى، والآخر حسبة للخضار والوفواكه، وما شاكله. وعندما يأتي يندفع الركاب داخله وينتشرون على المقاعد ويأتي الجابي الذي يجمع الأجرة ثم بعد الامتلاء يتكل السائق على الله ويمضي عابرا من أمام مقهى النباتات، حيث أشجار الكينا الباسقة التي تكاد من علوها تلامس عنان السماء. أو هكذا يبدو للناظر عديم الخبرة بالمسافات مثلي. تبلغ المسافة بين جنين ونابلس نحو 40 كيلومترا أو تزيد. وأول ما يمر به الباص مثلث عرابة- بلد السياسي المعروف صالح رأفت أحد وجوه الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين- وكان يطلق عليها عرابة الحفير. وعلى كثب منه مقبرة الشهداء العراقيين. ولهؤلاء الشهداء قصة رواها صالح الشرع في كتابه **مذكرات جندي** الصادر عن مكتبة المحتسب بعمان. ففي عام 1948 جاءت الأوامر من قيادة الجبهة الأردنية بالانسحاب من جنين والعفولة والجلمة وصندلة والمقيبلة بعد مغادرة اللد والرملة، وكان الزعيم العراقي عبد الكريم قاسم هو الذي قاد معركة جنين التي تكللت بطرد فلول الصهاينة منها، وعدد من شهداء الجيش العراقي كانوا قد دفنوا في العفولة، فأبى - عليه رحمة الله - الانسحاب إلا بعد استخراج رفاة الشهداء، ونقلهم لدفنهم في هذا الموقع، وتم له ما أراده، ودفنوا في ذلك المثلث. وقيل إن الحكومة الأردنية أقامت بتمويل عراقي نصبا تخليدا لهم قامت إسرائيل بعد الاحتلال عام 1967 بتدنيس هذا النصب.

وعلى ذكر هذا الخبر لا بد لي من أن اذكر خبرا آخر ذكرني به على عادة الشيء بالشيء يذكر. فقد سمعني أحد البدو في دكان جزار بحي طارق بعمان أتحدث مع صاحب الملحمة، فمن لهجتي عرف أو ظن أنني من جنين. فسأل من وين الأخ؟ فقلت له من جنين. فرفع صوته قائلا أنا أعرف جنين وقراها قرية قرية، ولما فوجئ باستغرابي، ودهشتي، أضاف: أنا خدمت في المنطقة عام 1948 وشهدت على تسليم صندلة، يقولها وكأنه يتحدث بفخار عن تحريره الأندلس، فضلا عن القدس.

لا أتذكر من هو القريب الذي رافقني للمدرسة في المرة الأولى. المهم أنني ذُهلت بمرأى المدرسة فهي كبيرة وفيها ملعب للكرة الطائرة وآخرلكرة السلة. وفيها أروقة. وهي من طابقين. وفيها غرفة كبيرة للإدارة وأخرى أكبر للمعلمين وثمة عدد من الشعب لكل صف. فالأول ثلاث شعب، وهكذا الثاني والثالث. وقد يزيد عدد الشعب عن هذا على وفق عدد الطلاب.

في هذه المدرسة تدرس مادة لم أسمع بها من قبل وهي المحاسبة ومسك الدفاتر. وهذا التعبير الأخير لم أفهمه إلا بعد عدد من الدروس إذ يقصد به تسجيل المصروفات والمقبوضات في دفتر يسمى دفتر اليومية، وآخر يسمى دفتر الأستاذ – لا علاقة لهذا الاسم بالمعلم- وقد سعدت بهذه المادة التي تبيَّنَ لي أنها مقرر مدرسي في الكثير من المدارس الإعدادية في عموم البلاد. ومن الدروس التي كانت تستأثر باهتمامي درس التاريخ لمعلم باسم أحمد حافظ. ودروس الإنجليزية التي درسنا إياها مدرس قيل إنه سامريّ، أي من طائفة السُمَرَة(بوزن هُمَزَة)، وهم يهود يعيشون في جزء من جبل عيبال منذ آلاف السنين. ويؤمنون إيمانا لا لبس فيه بأنهم هم من يمثلون الدين اليهودي الحقيقي. ويعتقدون اعتقادا جازمًا بأن الدولة المزعومة إسرائيل لا علاقة لها باليهود ولا باليهودية ولا بالتوراة. وقد اشتهر من بينهم كاهن يعرف بلقبه (صَدَقَة) وسبب

شهرته أنه ناجح في خداع غير العقلاء، فيعد لهم حجبا (جمع حجاب) أو تعازيم، وهو (الحِرْز) الذي يشفي من مرض، أو يوقع الحب بين اثنين: واحد وواحدة. أو العكس: البغض بين الاثنين. ومن لا يرزق أبناءً يرزق إلخ.. وسمي بهذا لأن بعض خزعبلاته أثبت الواقع أنها صادِقة، فسموه صدقة، مع أن في البال ما يشبه الحديث غير الصحيح، وهو (كذب المنجمون ولو صدقوا).

وقد قرأنا على يديه قصة مبسّطة لجورج إليوت، بعنوان سايلز مارنر Silas Marner (1861) وهي حكاية بسيطة في الظاهر، لكنها في الحقيقة تحاول مناقشة العلاقة بين الإيمان بالغيب، والعقلانية، والروح المجتمعية.

تقع هذه المدرسة التي تضمّ عددا كبيرا من المدرسين بعيدا عن مركز المدينة، فقد كنت أسير مسافة لبلوغ موقف الباص، أو السرفيس، الذي يمكن متابعة الذهاب بواسطته. وينطلق الباص أو السرفيس مارا من أمام سينما غرناطة مقتربا من متنزه البلدية، متخذا الطريق نحو بلدة رفيديا. وفي هذا الموقع أغادر الباص، أو السرفيس، وهذا كان ديدني كل يوم. وفي بعض الأحوال التي نغادر فيها المدرسة مبكرين لا أعود إلى البيت بهذه الوسائط، بل مشيا على الأقدام. وهذا (المشوار) إذا صح التعبير، ممتع، وبمثابة تسلية لي، ففي الأثناء أتأمل الواجهات الزجاجية لمحلات الملابس، والأواني، والتحف، ومعارض الزجاج والمرايا واللوحات، ومحلات بيع الحلويات. وهذا شيء بالنسبة لأبناء القرى قليلا ما يرونه، وقد زاد اهتمامي بهذه الرحلة حتى اعتدت الرجوع إلى المنزل مشيًا، ولو متأخرًا بعض الوقت. وقد أثار شغفي أحد المحلات التي تبيع البراويز. وهي بروايز بعضها ذهبي اللون وبعضها بني وقليل منها سود. وفي إطار البرواز لوحة مغطاة بالزجاج، وهي تعرض للبيع، ويزين بها مقتنوها غرف الجلوس والضيوف. وهي ليست لوحات أصلية بالطبع، وإنما هي نسخ عن لوحات أصولها في المتاحف. وغدوت من ذاك الوقت الذي اكتشفت فيه هذا الدكان

أتعمد المرور من الشارع الذي يقع فيه، فأتوقف أمام الواجهة الزجاجية طويلا، وأتمنى لو كان باستطاعتي أن أرسم مثل هاتيك المناظر الطبيعية، أو اللوحات التي تمثل خيولا، أو طيورًا، أو أناسًا يتناولون الشراب، أو يسمعون الموسيقى.

المعلم خميس

ذات يوم جمعة طلب مني ابن عمي (أبو راشد) أن أذهب إلى مطعم خميس لشراء طبق الفول المدمس الذي يُتناول غالبا في الإفطار، وقال لي: إذا رأيت أولادا يحملون الصحون اتبعهم، تستدل عليه. وبالفعل ما إن خرجت من الحوش إلى الشارع حتى رأيت بعضهم يحمل طبقا أو أكثر. فسرت خلفهم، وإذا بي وبهم نصل مطعم خميس الذي يقع في شارع – دخلة - تحيط به دكاكين أقمشة، وما شابه، ومن موقعه لمن شاء أن يترك الشارع ويمضي في خان التجار الذي سبق ذكره.

والمشكلة التي واجهتني إذ ذاك هي كثرة الزبائن المتهافتين على الرجل الذي يغرف الفول بمغراف ذي ساق طويلة مما يشبه الجرة النحاسية الكبيرة. ويسكب في الطبق دفعتين منه أو ثلاثا، ثم يحركه قليلا، ويزينه ببعض الحمص الحب وبعض الحامض الممزوج بالثوم والفلفل الأخضر والبقدونس، كل ذلك مقابل 70 فلسا. ومما لاحظناه اشتداد التنافس على الوصول لهذا الشخص الذي ينادى بالاسم خميس. وقد يؤدي ذلك للاختلاف، ولسماع عبارات مكرورة: دوري، لا، مش دورك. وفي واحدة من زياراتي لهذا (الخميس) تشاجر بعض الزبائن، فما كان من المعلم خميس إلا أن قذف بصحون المتشاجريْن خارج المطعم، فتهشمت بالطبع، وفتح الدرج الذي يضع فيه النقود، وناول كلا من المتشاجريْن ثمن الصحن، وطلب منهما ألا يعودا إلى المطعم.

وللحصول على طبق الفول في وقت غير طويل يضع بعضهم الصحون في المطعم مساءً فيرتبها المعلم خميس بعضها فوق بعض، فإذا جاء صباح اليوم التالي

يقلب الصحون بحيث يصبح الذي في القاع في الأول لكونه هو الذي جيء به قبل غيره. ويقولون عن هذه الطريقة (دَحْل الصحون) وقد عرفت شيئا مثل هذا لدى من يملأن الجرار ماءً من النبع فيضعن الجرار في المساء قرب رأس النبع، وفي صباح اليوم التالي يقمن بملء الجرار وفقا لدور كل منهن.

وثمة سؤال وهو: ما سبب هذا الإقبال والتزاحم على هذا الفوّال دون غيره، مع أن في المدينة عشرات الفوالين، إن لم نقل مئات؟ الجواب هو إتقانه لهذه الصنعة. وقد امتدت شهرته لهذا الإتقان خارج نابلس. واذكر أن والدي كان عند القدوم لهذه المدينة يحضر معه زجاجة صغيرة ملأى بزيت الزيتون، وربما خبزا من الخبز الذي يخبز بالطابون في لفافة من القماش، ويأخذ طريقه نحو مطعم هذا الرجل بشعور من يؤدي طقسًا احتفاليًا، وكانت لديه بضع طاولات خشبية قليلة. فنجلس، ثم يأتي عامل لديه ويطلب الوالد طبقا من الفول، وآخر من الحمص، ويصب الزيت عليهما، ونتناول إفطارنا في غير قليل من التلذذ بالطعم والنكهة.

فشهرته في نابلس كشهرة (أبو عوض) في جنين، وهاشم وإخوانه في عمان، وأبو أكرم في الزرقاء، وأنطون، فوال أريحا الذي لا يشق له غبار على رأي الكاتب المخضرم محمود الريماوي.

رفيديا

عامان مرا علي في المدرسة المذكورة. وفي الثاني منهما غيرنا السكن من جادة الحبلة في نابلس القديمة إلى رفيديا. وهي أكبر من قرية وأصغر من مدينة، ولا حدود بينها وبين نابلس. في الحقيقة لا أذكر ما الذي خطر ببال ابن عمي أبو راشد، ودفع به دفعا لهذا التغيير، ولكنني لاحظت أن المسكن الجديد أكثر انشراحًا، وانفتاحا على الفضاء الخارجي. فكأنني لا أقيم في مدينة بل في الريف. فالنوافذ العالية، والشرفة الصغيرة في الطابق الثاني، تطلان على بساتين تزدحم

فيها أشجار الحمضيات، والخوخ، وما شابه ذلك. وعلى جانب الطريق التي ترى من الشرفة تتدفق مياه عذبة صالحة للشرب في قناة تعود لأزمنة قديمة. ويلاحظ ذلك من الطحلب المتكاثف على جدران تلك القناة فجعلها شديدة السواد. كانت المياة تندفع من نبع يقع في أسفل الجامع الكبير في البلدة. والغريب أن مياه تلك العين باردة جدًا في الشتاء والصيف، وبرودتها لا تقل، ولا تزيد. وحتى هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه الكلمات لا أعرف أين كانت تذهب تلك المياه. لكنها، في أسوأ الأحوال، كانت تسقي البساتين، والحواكير المنتشرة في جنباتها عن يمين، وعن شمال.

وفي القرية نسبة من النصارى. ومما أذكره أن بعضهم، ولا سيما النساء، كن يغضبن من سماع الدعاء اللهم انصر أمة محمد! وسمعت إحداهن تقول: والآخرين مالهم؟ بال عليهم الكلب؟

في السابق كان يتردّد على منزلنا أشخاص أصدقاءُ لابن عمي أحدهم أبو عاطف، وهو من اللاجئين المقيمين في مخيم الفارعة القريب من نابلس. وأصول هذه العائلة من قرية أم الزينات التي نزحوا منها إلى مخيم النويعمة، ثم إلى مخيم الجلزون، قريبا من رام الله، واستقر بهم المقام في المخيم المذكور. وهو والد كل من عاطف، وواصف منصور الذي شغل وظيفة مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في الرباط لزمن غير قصير، وفيها توفي عن عمر 68 عاما سنة 2013، وله مشاركات في الكتابة الصحفية والأدبية، ومن مؤلفاته " محكيات اللجوء بعضٌ مني " و " بين الإرهاب والعولمة "، و" مسألة اللاجئين جوهر القضية ". وهو عضو اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، وذلك ما استنتجته من حضوره مع الوفد الفلسطيني مؤتمر الأدباء والكتاب العرب في عمان سنة 1993. والراضي، وهو مختار قرية عتيل من قرى قضاء طولكرم. ومنهم عبدالله القنص، وهو من عانين، تاجر أحذية في خان التجار، وأبو العبد

الكامل(بائع موز) وامرأته، وهي فحماوية تصلها بالكاتب الأديب كمال مصطفى فحماوي مؤلف كتاب عرار شاعر الأردن صلة قربى، وكان هذا الفحماوي قد شغل منصب عميد كلية تدريب عمان التابعة لوكالة الغوث لمدة. ومنهم- بالطبع - سليمان أخو المذكور عبد الله القنص.

وبتغيير السكن قلّ هؤلاء، لكن المكان أبدلنا بهم حافظا، وشقيقه، وأم حافظ. وجدتها. وهم لاجئون من بلدة الشيخ مُؤَنّس. وهي قرية تقع على بعد9 كيلو مترات من يافا، ويفصلها عن شاطئ البحر نحو 2 ونصف كيلو متر. وعدد سكانها قبل النكبة ناهز الـ 1900 ويبدو أن الصهاينة أزالوها بعيد النكبة بحيث لم تبق منها إلا الأطلال. وكان حافظ المذكور متفوّقا في الدراسة بدليل فوزه بمنحة لدراسة الهندسة في مصر على نفقة التربية في عمان، أو الأنوروا. وهذا السكن الجديد جاء مفيدًا لي وغير مفيد. فمن حيث القرب من المدرسة أصبحت في غنىً عن ركوب السرفيس، فالمدرسة مثلما ذكرت قريبة من رفيديا. ولكني خسرت متعة الفرجة في مسيرة العودة منها إلى المنزل السابق. وعلى أي حال بعد مضي العام الثاني لي في تلك المدرسة نصحني الوالد رحمه الله بالعودة لتكملة السنة الثالثة من الإعدادية في جنين. وذلك خشية منه على مستقبلي بعيدًا عن الرقابة المباشرة. ففي السنة الثالثة ثمة امتحان عام يعقد في جل مدارس المملكة، وهو كالمترك الذي ذكرته سابقا. ومن لا يجتاز هذا الامتحان عليه أن يهيْيء (الفَرْش) لبيع الترمس.

وقد استحسنت ذلك لأن الطلبة في المدرسة كانوا ينظرون لي نظرة غريبة، فهم لا يقدرون أبناء الفلاحين عموما حق قدرهم. ويصفون الفلاح بالوَعَري كأنه آتٍ من الوعر، فالفكرة المستقرة في أذهانهم أن الريف لا يعدو كونه وعرا. وهذه الصفة تعني فيما تعنيه الزراية بالفلاح. ولا ريب في أن من يعاشر أبناء نابلس، ولا سيما الصغار منهم، يلاحظ هذه الظاهرة لديهم. وإذا وقع خلاف بين هذا

الفلاح وواحد آخر نابلسي من أترابه، فإنهم يتكاتفون عليه. وهذا قد لا يكون عاما لدى الكبار أو الناضجين. ولذلك سعدت بالانتقال على الرغم من أن مدير المدرسة أبى، وبقوةٍ، منحي شهادة نقل في مستهل العام الدراسي. وحجته أنه لا يمنح الطلاب المتفوقين نقلا إلا إذا جاءَ المنقول ببديل متفوّق. هذا مع أن حكاية التفوق هذه غير دقيقة في الواقع. إذ لم أكن من المتفوقين أصلا. وقمنا أنا ووالدي، وأناس آخرين، بمقابلة مدير تربية اللواء –كانت نابلس في ذلك الوقت لواءً لا محافظة - وبعد الرجاء، والتوسّل، واستخدام الهواتف مرارا، تنازل مدير المدرسة عن عناده، ووقع لى شهادة نقلي إلى مدرسة حطين الإعدادية التي تقع في وسط مدينة جنين. ولا تبعد عن الدوار، وهو مركز المدينة، إلا أمتارًا قليلة قد لا تربو على المائتين. ويقال: إن مبنى هذه المدرسة استخدم أيام الانتداب مخفرًا للعَسَس الإنجليزي. وهذا يبدو صحيحًا من التصميم شبه الأمني للمكان، والموقع، الذي يتيح للشرطة منظورًا مناسبا للمراقبة، والتصدي للحوادث.

جنين

عندما يذهب المرء من عانين إلى جنين لا بد من 30 دقيقة بالسيارة على الأكثر فالمسافة بينهما نحو 17 كيلو مترا. ولكنه يمر أولا بمنطقة الكسارات، وهي الموقع الذي استخدمته النقطة الرابعة في أول الخمسينات للحصول على البحص، والزلط اللازم لتعبيد الطريق من مثلث جنين - تعنّك، وكان ترابيًا غير معبد حتى مدينة يعبد، مرورًا بأم الريحان وخربة أم دار. ثم يواصل طريقه بعد ذلك مرورا بقرية تعنّك المذكورة. وهي خربة لا يربو عدد السكان فيها على 500 نسمة. وقد تبين أنها تحتوي على آثار قديمة مدفونة ولم تستخرج، كانت قد شغلت هذه الخربة الرأي العام مدة عندما تحولت فيها فتاة اسمها (سميحة) إلى فنىً بعيد عملية جراحية. وبقيت هذه الحكاية حديث الناس مدة طويلة. ورأيت بنفسي الشاب سميح الذي كان سميحة قبل العملية. و في وجهه ما يسمى عرفا

حبّ الشباب، وهو حبوب تظهر في وجوه بعض الشابات والشبان في سن المراهقة تجعل البشرة أكثر حمرةً.

وبعد الخروج من تعتِك والمضي شرقا يمر الذاهب إلى جنين من أمام مدرسة السيلة الحارثية، وهي تختلف عن سيلة الظهر بلدة الشاعر المعروف خالد أبو خالد. فهذه على طريق نابلس. أما البلد فلا لأنه يحتاج لتغيير الاتجاه والدخول في شارع فرعي تاركا مبنى المدرسة عن يمينه، ويمضي مستغرقا بضع دقائق حتى يصل السيلة البلد. وإذا لم يتجه للسيلة فسوف يمضي دقائق قبل أن تظهر على يمينه بعض مظاهر العمران في برقين بلدة الشاعر والكاتب سليم أحمد حسن، ثم يصل بعدها للمقاطعة. وهي عند مدخل المدينة تلوح بعدها دارة جميلة من الحجر النظيف الأبيض تبدو عليها إمارات الغنى، وهي منزل أحد الأعيان اسمه فريد إرشيد (أبو مهند) الذي انتخب عضوا في مجلس النواب الأردني. وفي وقت لاحق عين عضوا في مجلس الأعيان. أما مهند ابنه فهو شقيق الأميرة فريال فريد إرشيد طليقة الأمير محمد بن طلال شقيق كل من الملك حسين وولي عهده الحسن بن طلال، و مهند شقيق ماهر فريد إرشيد، أحد أعضاء مجلس النواب الأردني التاسع، وأحد أعضاء مجلس الأعيان.. وبعد الاحتلال في العام 1967 اتخذ الحاكم العسكري من الساحة المحيطة بتلك الدارة شيئا يشبه المطار للطائرات العمودية، ومن المقاطعة مركزا للحاكم العسكري.

وعندما تمر السيارة من حاجز الشرطة التي تحرس المركز تصبح داخل جنين. ويقابل الركاب على اليسار نصب الطيار الألماني الذي لا أحد يعرف حكايته: عبارة عن بناء أنيق من الحجر المشطوب رُكب فيه جناح طائرة مروحية، وكتبت على النصب كتابات باللاتينية. وعلى يساره تمتد مزارع البرتقال والليمون فضلا عن الخس والملفوف والزهرة(القرنبيط) وعلى يمينه تنتشر المنازل والبيوت والمحلات التجارية المختلفة بما فيها محلات السمكرة والحدادة والنجارة

والملابس والمفروشات والأدوات الكهربائية ومطاعم الحمص والفول والفلافل والمشاوي وباعة الفخار ومواقف السيارات من شاحنات او باصات أو تكسيات.

فالمشاهد يجد نفسه أمام مشهد شمولي للمدينة.

وفي مدرسة حطين، التي لم أمكث فيها إلا سنة واحدة، عرفت عددا من الأشخاص أولهم مديرها وهو رجل أنيق من دار السوقي. ومعلم التاريخ والجغرافيا الأستاذ مخلص، وهو اسم على مسمى، وفيها معلم التربية الإسلامية الشيخ ناصر. وسمعت أنه ابن العلامة أديب الخالدي، وكان هذا المعلم غريب الأطوار، وتؤلف عنه الطرائف والنوادر، فقد قيل إنه كان يؤم المصلين أيام الجمع، ويحض على منع النساء، ولا سيما الفتيات، من الخروج سافرات يرتدين الملابس غير المحتشمة كالتنانير القصيرة أو الأثواب بلا أكمام، ولا يرتدين غطاء الرأس. فقال له أحد المصلين محتجا على مسمع من الملأ: ياشيخ! لديك الابنة فلانة والابنة علانة وهما لا تلتزمان بهذه النصائح بل يظهرن للناس كاسياتٍ عاريات. فأجاب ضاحكا - والعهدة في ذلك على ذمة الراوي- :

- بلْبَقِلْهِن.

ومن غرائبه التي لا تنسى أن يطرح سؤالا في أول الدرس، أو تلاوة آية غيبا، ومن لا يعرف يخرجه من الغرفة، وبعد أن يخرج معظم طلبة الصف يطلب منهم الذهاب إلى مكتب المدير، فيما هو يتقدم الطابور. وفي غرفة المدير يبدأ بالحديث عن جدوى العقاب، وضرورة أن يكون قاسيًا. وفي هذه المدرسة تعلمنا العربية على يدي مدرس لا أتذكر اسمه وكان معجبا بالشعر القديم، ومن ذلك قصيدة (حننْتَ إلى ريا وشعباكما معا). وكذلك موشح ابن سهل الإشبيلي (هل درى ظبي الحمى أن قد حمى). وكان مغرما بالإعراب. ومن الطلاب الذين عرفتهم في تلك المدرسة عزام الأحمد من قرية رمانة - وهو ابن البرلماني المعروف

نجيب الأحمد ، أحد أصدقاء والدي، وغدا هذا الزميل السابق كأبيه، وأخيه منير، سياسيا لامعا في السلطة الفلسطينية، ووزيرا مسؤولا عن ملف اللاجئين تارة، وعن ملفات أخرى. وقيل لي إنه زارنا في عانين معزيا بوفاة والدي رحمه الله في شباط من العام 1997.

وفي نهاية العام عُقد لنا، وللجميع، امتحان الثالث الإعدادي. وقد كتب لنا النجاح على الرغم من المخاوف التي كان أبي يشعر بها لاعتقاده أنني لا أتابع دروسي كما ينبغي، وإنما أنشغل عنها بالرسم. وظل يهددني - عليه رحمة الله - بفرش الترمس إذا فشلت في الامتحان. وذلك لأن الذين لا ينجحون فيه يمنعون من مواصلة الدراسة إلا في المراكز المهنية، والصناعية. ويترتب على هذا النجاح الارتقاء للمرحلة الثانوية، وعلينا، في هذه الحال، أن ننتقل إما إلى مدرسة حيفا، أو جنين الثانوية.

حيفا من حطين

تقع مدرسة حيفا الثانوية على شارع يؤدي إلى قرية(الجَلَمَة) وتلفظ مثلما تلفظ كلمة جَلَبَة. ومن المضحك أن بعض المذيعين والمذيعات يلفظونها بتسكين اللام الجلْمة. وهي مبنى حديث وجديد وليست كمدرسة جنين الثانوية التي يقال إنها كانت السرايا في العهد العثماني أي قبل الحرب العالمية الأولى، وهذا قد يكون صحيحا لأن مبانيها متباعدة بعضها عن بعض. ومدرسة حيفا كانت تضم الأول الثانوي الذي سيتفرع طلابه إلى فرعين فمنهم من يذهب إلى الفرع العلمي تبعا لدرجاته في المواد العلمية من فيزياء وكيمياء وأحياء،ورياضيات، ومنهم من يذهب إلى الفرع الأدبي .

في مدرسة حيفا التي درست فيها عاما واحدا تعرفت على عدد غير قليل من المعلمين من هؤلاء المعلم محمد ذياب وكان يدرسنا اللغة الإنجليزية. ومن عجائبه أنه مع تخصصه في هذ اللغة كان يكتب وينظم شعرا بالعربية. وهو في

ذلك يشبه ابن عين غزال د. محمد عصفور الذي عرفته في الجامعة الأردنية، فرغم تخصصه بالإنجليزية، وترجماته الكثيرة عنها، نجده ينظم الشعر بالعربية، وله ديوان بعنوان **دموع الكبرياء** .وقد علمت عن محمد ذياب المسكي (أبو سمير) أنه أصدر ديوانا بعنوان **نفحات الزهور من نفثات الصدور،** وزودني به أحد أقاربي، إلا أن شعره لم يعجبني للأسف.

ومن مفارقاته الغريبة أنه كان قد نظم أفعال الكينونة verbs to be أي ما يسمى بالمساعدة فيما يشبه اللغز فيقول Am, Is, Are ثلاث صغار، واللي بنساهن حمار. وغرضُه من هذا أن يذكر الطلاب باستعمال كل فعل من هذه الأفعال المساعدة مع I ومع He و She ومع We وما يقوم مقامها في قواعد الإنجليزية الخاصة بالضمائر واستعمال الأفعال المساعدة.

ومن المعلمين الذين فُتن الطلاب بأناقتهم ورقيهم فوزي جرار - وهو غير فوزي جرار النائب في البرلمان الأردني- الذي دأب على تدريس العلوم والفيزياء للثانوي الأول. ومنهم نجيب الحشناوي الذي درسني العربية، وكان ممتعا في تدريس العروض. وقد تسلط على أحد طلاب الشعبة من دير أبو ضعيف، فيطلب منه في كل درس عروض أن يغني الوزن مثلما تغنى الأغاني الشعبية، فالبسيط مثلا على شاكلة الأغنية المعروفة:

لا تطلعي ع الدرج يا زينة الحنا

ولا تأمّني للعـزب تــرى العزب منا

ومنهم المعلم ماجد الخالدي، وهو مدرس الإنجليزية، وخيري جرار مدرس التربية الرياضية، وكان شغوفا بكرة القدم جدا ،ويحكم كثيرا في المباريات. وجبر عبد الفتاح الذي نهض بتدريس الاجتماعيات، ولا سيما الجغرافيا، وقد ارتقى إلى أن غدا موجها تربويا فمديرا للتربية والتعليم في اللواء (بعد الاحتلال صنفت جنين لواءً ثم محافظة). وقد قابلت ابنه ذات يوم، وهو أستاذ الجغرافية في

آداب جامعة بير زيت. وأخبرني بأنه أحيل إلى التقاعد. ومما يذكر في هذا الموقع أن التوجه للفرع الأدبي بالنسبة لي كان قدرا محتوما إذ لم أكن قويا في مواد الرياضيات، ولا العلوم. وتبعا لذلك نقلت في السنة التالية 63/ 64 إلى جنين الثانوية وهي غير بعيدة من مدرسة حيفا.

في تلك السنة أقمت في أمكنة متعددة مستأجرا مع بعض الطلاب الذين يتابعون دراستهم في هذه المدرسة أو تلك. وفي جل الأحوال كانوا من عانين. في منزل للشيخ يوسف أبو الرب مرة، ومرة في منزل صغير لعائلة من دار الدحدوح، وكان رب الأسرة فلاحا لديه جواد أشقر ذهبي يذكرني الآن بجواد مالك بن الريب :

وأشقر خنذيذ يجر عنانه إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

لكن جواد الدحدوح لم يكن للقتال، وإنما للحراثة. وأظنه أقرب إلى ما يسمى البرذون على عادة العرب قديما في التفريق بين العتاق المذاكي، وغيرها من الخيول. وابنه الأكبر فيما علمت يعمل في الكويت، وقليلا ما يحضر، لكنه لا يضن عليهم لا بالهدايا ولا بالنقود . وكانت للعائلة ابنتان إحداهما تكبرني بقليل من الأعوام، والأخرى في العاشرة أو أكثر قليلا. وقد نشأت علاقة عائلية بيني وبينهم فلم يفوتوا فرصة تسنح إلا ويكرمونني. وفي يوم من الأيام، وكنت اعتزم المغادرة للقرية، طلبت مني صاحبة البيت بعض الزلابية. فاستغربت الطلب لأن الزلابية مثلما أعرف تعد، وتوزع في خميس الأموات. ولذلك أدهشني هذا، فلما حاولت الاعتذار مدعيا أننا لا نعرف الزلابية ذكرتني بالمثل الذي سمعت به منها للمرة الأولى، قالت: ما بتعرف المثل(زلابية سخنة وزيتها من عانين). وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذا. فقلت لها لا يكون لك فكر، سأحضر لك زلابية إذا وافقت الوالدة. وعندما شرحت لأمي رحمها الله ما كان

من صاحبة البيت استجابت، ووجدَتْ في ذلك فرصة لتمتين العلاقة، فلعلها تسهم برعايتي ما دمت أقيم لديهم وحيدا.

ابنتهم التي تكبرني كثيرًا ما كانت تقحم نفسها في خلوتي، وتطلب مني مساعدتها في رسم خريطة أو حل وظيفة أو الكتابة بخط جميل مستحسن على الدفاتر التي تستخدما هي أو أختها. وبعد مدة من الزمن جاءتني بمجلة فيها مشهد من فيلم **البنات والصيف** من بطولة عبد الحليم حافظ وسعاد حسني، وطلبت مني أن أقوم برسم المشهد، وهذا تطلب مني وقتا طويلا سهرت معي فيه. تساءلت بعيد ذلك بزمن هل كانت تحبني وأنا لا أعرف الحب بعد، فلم أتجاوز الرابعة عشرة إلا بقليل؟ ثم استبعدت هذا الخاطر من ذهني.

ماجدولين

في العطلة الصيفية، وقبل الانتقال إلى الثاني الثانوي، عثرت بالصدفة بين كتب قديمة لأخي الأكبر فؤاد على كتاب بلا غلاف، فشرعت في قراءته، فشدني ما فيه من حكاية عن الحب الذي ربط بين قلبيْ ماجدولين وستيفن. ولم أستطع ترك الكتاب إلا قليلا، لأعود فأقرأ. وتملكني حب الرسائل الغرامية التي تبادلاها. وعرفت لاحقا أن الرواية من أصل فرنسي، وأن مؤلفها كاتب رومانسي اسمه الفونس كار Alphonse Karr (1808- 1890) وأن مترجمها إلى العربية هو مصطفى لطفي المنفلوطي.

وعنوانها الأصلي **في ظلال الزيزفون**. ومن ذلك التاريخ شغفت بقراءة القصص والروايات، فقرأت بعدها رواية **بول وفرجيني** أو (الفضيلة) لبرناردين دي سان بيير. وهي أيضا من تعريب المنفلوطي الذي عرفت لاحقا أنه لا يجيد اللغة الفرنسية، بل يكاد لا يعرفها. وإنما كان يستعين بمن يعرفونها فيترجمون له القصة حرفيا، ويستوعبها، ثم يترك الأصل، ويعيد صياغته بقلمه فتغدو وكأنها رواية جديدة، وقرأت أيضا رواية **في سبيل التاج.** وأعجبتني فيها حكاية سيرانو

دي برجراك. وهو كاتب فرنسي كلاسيكي عاش وتوفي في القن السابع عشر. وبعدها شرعتُ أبحث حيثما يمكن عن الروايات والقصص. فقرأت لعبد الحليم عبد الله **الضفيرة السوداء**، **وشجرة البلاب**، ولنجيب محفوظ قصصا قصيرة **بيت سيء السمعة**، **وأرني الله**، **ورادوبيس**، وروايات أخرى. ولمحمود تيمور **سلوى في مهب الريح**، **وسيد العبيط** وغيرها من الروايات والمسرحيات، وليحيي حقي **قنديل أم هاشم**. ولإحسان عبد القدوس **أنا حرة**، والوسادة الخالية، والنظارة السوداء. وليوسف السباعي **في بيتنا رجل**، **وإني فدوتك يا ليلى**. والكثير جدًا. ثم لم أعد أقتصر على قراءة الروايات، والقصص، فقد امتد توقي لقراءة الشعر، فقرأت أشعارا لجبران، وميخائيل نعيمة، وإبراهيم طوقان، وشقيقته فدوى، وغيرهم الكثير.

وبالانتقال إلى مدرسة جنين الثانوية اتسعت مجالات القراءة لدي، لأن فيها مكتبة كبيرة يشرف عليها معلم من دار جرار. وكانت في تلك الفترة ثمة حصة خاصة بالمكتبة. أي أن طلبة الشعبة يمنحون مدة 40 دقيقة يقضونها في المكتبة. وثمة كتب في مختلف الموضوعات، ويمكن للطالب أن يستعير كتابا يقرؤه ثم يعيده في موعد محدد. وفيها مجلاتٌ أذكر منها مجلة الأديب اللبنانية، والعربي الكويتية، ومجلة رسالة المعلم التي تعاقب على تحريرها كثيرون منهم محمد سليم الرشدان، ومجلة باسم الاثنين.

ومما أذكرة أنني قرأت في مجلة مصرية قصة قصيرة لغالب هلسا بعنوان (**البَشْعَة**) وفيما بعد قرأتها في مجموعة له بعنوان **وديع والقديسة ميلادة وآخرون**.

في هذه السنة، أي الثانية ثانوي، درست علي أيدي معلمين منهم من ترك أثرا لدي، ومنهم من لم يترك. فأحدهم هو المعلم حسن المرعي. وهو من اليامون التي ينتسب لها الناقد فخري صالح المحرر الثقافي السابق في صحيفة الدستور، وقد شارك مرارا في إدارة الجانب الشعري والنقدي لمهرجان جرش. فحسن

المرعي هذا محب للغة العربية، ولا سيما الأدب قديمه والحديث. وقد أفدت منه كثيرا في استيعاب الشعر القديم لا سيما العباسي منه. وما أزال أتذكر قصيدة البحتري في وصف إيوان كسرى التي أولها (صنت نفسي عما يدنس نفسي) من ذلك الوقت. وهذا أيضا ينسحب على مرثية ابن الرومي للبصرة بعيد اجتياح الزنج لها، وما زلت من ذلك الوقت أحفظ أبياتا منها كقوله:

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام واشتغالي عنه بالدمــوع السجام

وفيها يقول:

كم فتاةٍ بخاتمَ الله بكـــــــر فضحــوها جمــرًا بغير اكتتـام

ومثل هذا تعلقي بمناكفات المتنبي، وأبي فراس الحمداني، والقصيدة المشهورة التي يبدأها بقوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

علاوة على شعر أبي نواس، وقصيدته التي تتردد في خلدي حتى اليوم، على الرغم من الزمن الطويل الذي يبعدنا عن تلك الأيام، وهي التي يستهلها بالقول:

وداري ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثرٌ منهمْ جـديدٌ ودارسُ

ومنهم أستاذ التربية الإسلامية الشيخ يوسف أبو الرب، من قباطية، وسليم أحمد حسن، من برقين، الذي قرأنا على يديه الرياضيات العامة، مع أنه من كادر مدرسة حيفا. وقد التقيته لاحقا في عمان، وقدمت لأحد كتبه التي تضم نصوصا مسرحية للأطفال، وتابعت أشعاره المنشورة، ما كان منها في مجموعات مشتركة، أو دواوين خاصة به وحده. وهو بعد العمل طويلا في السعودية عاد إلى عمان ويقيم في تلاع العلي.

وأخيرا مرَّ العام بحلوه ومره. وقد تأثرنا ببعض الحوادث التي ألمت بالمنطقة. فقد تعرضت المدينة لأعمال تخريب إسرائيلية فُجّر فيها بابور طحين، ومحطة

وقود، وسُمعت في الليل أعيرة نارية كثيفة مما أدى لاندلاع مظاهرات استمرت أيامًا. وكان المتظاهرون يطالبون بالسلاح، وكأنهم يتهمون الحكومة بالتقصير، والعجز، عن حماية أرواح المدنيين، والممتلكات. بعد هذه التوترات جاءت زيارة الرئيس التونسي الأسبق الحبيب بورقيبة في آذار مارس 1965 وزيارته لبعض المدن المجاورة للحدود مع الكيان الصهيوني، أي تلك التي توصف بالخطوط الأمامية. وألقى خطابا تضمن دعوته للصلح مع الإسرائيليين على قاعدة " خذ وطالب ". وبتصريحاته تلك أقام الدنيا، فانطلقت المظاهرات في كل مكان من الضفة الغربية، والشرقية، ورُفعت فيها شعاراتٌ ردًا على دعوته للصلح، وأذكر من تلك الشعارات: أبو رقيبة يا ديوس .. بعت الوطن بالفلوس.

وقد اتهمته القوى الوطنية من يسار ويمين بالخيانة.

وفي الحقيقة لم تكد تمر بنا سنة دون حوادث كهذه، وتوترات شعبية. ففي 17 نيسان إبريل من العام 1963 اتفق رؤساء العراق: أحمد حسن البكر، وسوريا: لؤي الأتاسي، ومصر: جمال عبد الناصر، على إقامة وحدة بين الأقطار الثلاثة. واتخذوا لهذه الوحدة راية جديدة تتوسطها نجوم ثلاث. وما هي إلا ساعاتٌ مرت على ذلك الإعلان حتى تدافع المتظاهرون في الشوارع. يهتفون مؤيدين ومطالبين بالانضمام لهذه الوحدة. وأطلقت هتافات منها: احنا النجمة الرابعة.

ولم تهدأ المظاهرات لا في اليوم التالي، ولا الذي يليه، ولم يخلُ الأمر من اشتباكات دفعت بالجيش في ذلك الحين للتدخل. وحظر التجوال. وأذكر أن طلابا من ثانوية جنين سقطوا صرعى، وعلى أي حال، ونظرا لمنع التجوال، اضطررتُ وبقية الزملاء من عانين لمغادرة المدينة مشيا على الأقدام. وذلك لاختفاء السيارات، وخشية أن يستمر حظر التجوال طويلا، وقد دام مثلما توقعنا نحو شهر. ولأن المسافة ليست قصيرة، فما كدنا نصل بيوتنا حتى كانت

أقدامنا قد تورمت من المشي. وفي السنة التي تلت هذه الحوادث، وبعد الانتهاء من الثاني الثانوي، عدت ثانية إلى نابلس. وفي هذه المرة أردنا أن يكون الثالث الثانوي(التوجيهي) من مدرسة الجاحظ التي كان مديرها من آل البظ ويلفظونها قريبة من الزاي المفخمة (البز كالظاء في بوظة والضاد في ضابط).

فاشهدوا

في هذه الثانوية الكبيرة التي تقع شرقي نابلس، وتحتوي في مبانيها الكثير من المرافق عدا الملاعب، ولا سيما ملعب كرة القدم بما يتصف به من اتساع، عرفتُ عددا من المدرسين الذين نسيت أسماء الكثيرين منهم. وذلك لأن مدة ملازمتي هذه المدرسة كانت قصيرة، فهي لا تتعدى عاما دراسيا واحدا. أذكر منهم معلم اللغة العربية طاهر حسين الذي كان معتدا بنفسه، ويروى عنه قوله ألا فرق بينه وبين طه حسين سوى حرف الراء. ومنهم معلم الاجتماعيات، وهو من آل الكيلاني، وكان شديد الانتقاد للنظم الاشتراكية لا يكاد يجد فرصة سانحة إلا ويصبّ جام نقده على النظام المصري، ورئيسه، خلافا لمعلم التربية الإسلامية، الذي لم يكن يتفق مع الكيلاني في أن الاشتراكية مثلا كفرٌ صريح. ومن بين المدرسين شوكت لبادة معلم التربية الرياضية.

ولمناسبة ذكر الرياضة لا بد من الإشارة لحدث مهم على هذا الصعيد، فقد كانت التربية في الجزائر قد أوفدت في تلك السنة فوجًا من الطلبة الجزائريين، لا أذكر كم كان عددهم، لمتابعة الدراسة في ثانوية الجاحظ، وليكتسبوا طلاقة في العربية. إذ كانت الجزائر في حينه حديثة العهد بالاستقلال، وبدأتْ فيها مسيرة التعريب. وبعد أيام من وصولهم واندماجهم في الشُعَب، والانتهاء من تبعات بداية العام، وما تتطلبه من تراتيب، اقترح معلم الرياضة، وهو من المتحمسين لكرة القدم تنظيم مباراة لفريقين؛ الفريق الجزائري المؤلف من عدد من بعض الطلاب الضيوف، وفريق المدرسة. وكانت هذه المباراة حدثا لافتا كسر الروتين

الدائب في المدارس، وجرت المباراة في ملعب المدرسة. وقبل إطلاق صفارة البدء اصطفّ الفريق الجزائري، وأنشد:

قسما بالنازلات الماحقات
والدماءالزاكيات الطاهرات
والبنود اللامعات الخافقات
في الجبال الشامخات الراسخات
نحن ثرنا فحياة أو ممات
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا فاشهدوا فاشهدوا

وهذا النشيد، وهو للشاعر الجزائري مْفَدّي زكريا، وتلحين الموسيقار محمد فوزي(من مصر) كالمشهد، أثارا فينا نحن الطلبة المشجعين مشاعر تجلّ عن الوصف.

وقد لاحظنا أن لاعبي الفريق الجزائري متقدمون على فريقنا تقدما كبيرا، فكأنهم لاعبون محترفون يواجهون هواة، وبدا لاعبونا كالضائعين في الملعب، وهكذا انتهت المباراة بفوز الفريق الضيف. ولم نأسف لذلك، بل كان سرورنا مضاعفا لمشاهدتنا مباراة تستحق المشاهدة.

عندما اقترب موعد امتحان التوجيهي، وهو يتطلب رسوما، فوجئت بمعلم العربية طاهر حسين يخبرني بأن الإدارة تعفيني من رسوم التقدم للامتحان. ولا أعلم ما الذي يدفعه لهذا. وكانت هذه الرسوم - فيما أذكر - لا تتجاوز الدنانير الثلاثة. وقد زعم للإدارة أنني من الطلبة الفقراء. وتغاضيتُ عن هذا طمعا لا أكثر. وأجري الامتحان في المدرسة نفسها بعد إعداد ترتيبات معينة بحيث وُضعت المقاعد في أروقة المدرسة فكنت تدلف إلى المبنى، ويواجهك امتداد المقاعد، واتساع الأروقة. وفيما كنا نقدم أحد الامتحانات شعرنا فجأة بحركة غير

عادية من المراقبين، ورئيس القاعة، ومساعديه. وقيل إنّ وزير التربية ذوقان الهنداوي قادم لتفقد قاعات الامتحان. وذوقان الهنداوي هو مؤلف كتاب **القضية الفلسطينية** وهو أحد المقررات الدراسية المطلوبة في امتحان الاجتماعيات. وبالفعل حضر الوزير ببزته الأنيقة، وقامته الممشوقة، وهي المرة الأولى التي أرى فيها وزيرا عن قرب، واجتاز الرواق من الباب حتى نهايته، وهو ينظر يمينا ويسارا، ثم قفل راجعا تحيط به كوكبة من مساعديه، ومدير الثانوية، وبعض المساعدين. والكتاب الذي ذكرته أقدمت وزارة التربية الأردنية في تسعينات القرن الماضي على إلغائه، ثم على إلغاء تدريس القضية الفلسطينية في كتاب، واكتُفيَ ببعض المعلومات عوضا عنه في كتاب آخر كلف بوضعه، وتأليفه، عدد من المشرفين التربويين، ثم ألغي هذا الكتاب بعد أن تلقت الوزارة تقارير تزعم أن فيه معلوماتٍ مُضلّله تتعلق بوعد بلفور وتبعاته، يُفهم منها أن الأردن جزءٌ من فلسطين، وهذا مخالف تمامًا للواقع.

الفصل الثاني
مدارات المعرفة والبحث

بعد أسابيع ثلاثة، أو أكثر، انتهى تصحيح أوراق الامتحان، واقترب إعلان النتائج. وكانت العادة أن يعلن عن أسماء الناجحين إما عن طريق الراديو، أو الجرائد. وفي اليوم الموعود نُشرت الأسماء في الصحف وظهر اسمي بين الناجحين. فوجئ والدي - رحمه الله - بهذا النجاح ظنا منه أنني في آخر سنة، وهي الأهم، كنت منشغلا بقراءة القصص والكتب والمجلات أكثر من انشغالي بالدروس، واستعدادي للامتحان. وهذا، وإن كان صحيحا لدى الانطباع الأول، فإن كثيرين يشهدون بأنني كنت أذرع الطريق العام من المنزل في عانين حتى رأس المطلة، جيئة وذهابا، أحفظ ما يحتاج للحفظ، وأفهم ما يحتاج للفهم دون حفظ. وليس المهم أن ينجح الطالب في الامتحان، بل المهم هو الحصول على مجموع، أو معدل، يسمح له بالالتحاق بالجامعات،أو بمعاهد المعلمين. وبعد وقت اكتشفت أنني حصلت على معدل 74 % . وهو معدل لا بأس به. فالمعدلات في تلك الأيام لم تكن مثلما هي اليوم 99 أو 99% فما فوق، ففيما أذكر أن العاشر في المملكة كان معدله 79% وفي أيامنا هذه التي أكتب فيها هذه الكلمات ينال العاشر في المملكة 99% وربما 100%. ولهذا أقدمت الجامعات على إجراء القرعة بين الحاصلين على مثل هذه العلامات الفلكية لتحديد التخصص. فالمتقدمون للطب - مثلا - وإن كان عددهم بالمئات، حاصلون على معدلات متشابهة، فهي جميعا بين 99 – و100%.

وظل أبي مترددا تجاه التقديم للجامعة الأردنية بعمان. وأمْيلَ لتقديم طلب لمعاهد المعلمين، مثلما فعل زملائي من البلد كعبدالله محمد مصطفى، وعبدالله الحاج علي، ونصر عبد الله حسن، ومصطفى خضر سالم قاسم، وغيرهم. ولا أعرف ما الذي حفزه لتغيير رأيه، فقد عاد ذات مساء من جنين بعد تصريفه أعمالا فيها، وفي نفسه قناعة بالتقديم للجامعة. ولعله قابل فيها أحد أصدقائه فشجعه على ذلك، وكان أخي الأكبر، الذي ذكرته سابقا(فؤاد) مقيما مع عائلته في عمان، ويعمل في شركة الإعمار للهندسة والمقاولات لصاحبها مظفر أبو السعود، الذي أصبح ابنه رائد وزيرًا للمياه والري. وهذا في نظر والدي عاملٌ مشجع، إذ يمكن أن أقيم معهم، وبذلك تقلّ التكاليف. وبعد الاتكال على الله قدمتُ طلبا في صيف العام 1966 وظهر القبول واخترت كلية الآداب.

لم تكن الجامعة في ذلك الحين كبيرة مثلما هي اليوم، فهي التي أنشئت سنة 1962 تقتصر على ثلاث من الكليات؛ واحدة للعلوم، وأخرى للاقتصاد والتجارة - عُدِّل اسمها فأصبحت كلية العلوم الإدارية- وواحدة للآداب. وكان العميد في حينه المرحوم د. عبد الكريم غرايبة- أستاذ التاريخ العربي الحديث. واخترت قسم اللغة العربية الذي يرأسه في ذلك الحين المرحوم د. عبد الكريم خليفة.

ومن مدرسي القسم الذين أحببت محاضراتهم، وتركوا لدي أثرا لا يبلى، وذكرًا لا يُنسى، د, محمود السمرة (من الطنطورة) الذي شغل لاحقا منصب رئيس الجامعة، فوزيرا للثقافة، عليه رحمة الله. ود. عبد الرحمن ياغي، ود.هاشم ياغي، وهما شقيقان، من بلدة المسميّة، وكلاهما شغل مركزا مهما وهو رئاسة رابطة الكتاب الأردنيين لأكثر من دورة. ود. عبد الكريم خليفة أستاذ الأدب الأندلسي الذي شغل منصب رئيس مجمع اللغة العربية الأردني، ود. سامي الدهان(سوري) محقق ديوان أبي فراس الحمداني. وعبد الحميد سند الجندي

من مصر، وعبد الحميد السيد من مصر أيضا، مدرس النحو، و**أوضح المسالك**. ود. محمد عبده عزام مؤلف **سبعة أيام مع أبي تمام**، ود. محمود إبراهيم. وقد انضم لهؤلاء د. نهاد الموسى مدرسا للنحو ، وحسين عطوان مدرسا للأدب الإسلامي والأموي، وعبد المجيد المحتسب، ونصرة عبد الرحمن.

واقتضت التراتيب أن يقوم بعض مدرسي الإنجليزية بتدريسنا ومنهم المسز كوتس، والأستاذ هنري مطر، وهو على الرغم مما يوحي به اسمه ليس أجنبيا، وفي السنتين الثالثة والرابعة حظينا بتدريس الدكتور داود عبده- أستاذ اللغة واللسانيات، ود. فهمي جدعان أستاذ الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام. أما ربحي كمال، وخليل يحيى نامي، فكانا في الحدود القصوى للشيخوخة، درسنا الأول منهما اللغة العبرية، والثاني منهما حاضر في فقه اللغة العربية. ويتطلب الأمر أن أروي شيئا عن هؤلاء المدرسين.

فالذي عرفناه عن السمرة أنه ناقد اعتدنا قراءة مقاله الشهري في مجلة العربي الموسوم بعنوان كتاب الشهر، وذلك لأنه أحد مؤسسي تلك المجلة في الكويت رفقة المرحوم د. أحمد زكي صاحب نحو موسوعة علمية، وقد صنف ونشر عددا من الكتب في النقد الحديث والقديم، فضلا عن كتابه **إيقاع المدى**، وهو سيرة ذاتية تتضمن الكثير من التفاصيل عن حياته، وما لقيه في سبيل العلم من متاعب، وما جبل عليه من طموح. ونشرتُ كتابا عنه بعد وفاته بعنوان **محمود السمرة والنقد الأدبي**. ود. ياغي مؤلف كتاب **حياة الأدب الفلسطيني الحديث، وابن شرف القيرواني**. وكذلك د. هاشم(شقيقه) مؤلف الكتاب **الحركة النقدية في فلسطين** حتى عام 1948 وكتاب **القصة القصيرة في فلسطين**. ود. محمود إبراهيم عم الزميل الشاعر وليد سيف، ووالد كل من دة. رزان ود. حنان، وهما مدرستان جامعيتان. ومؤلف الكتاب **أصداء الحروب الصليبية في شعر ابن القيسراني**(1988) ومحقق كتاب في **فضائل بيت المقدس**. وأما د. فهمي

جدعان فكان قد عين حديثا، وهو من خريجي السوربون في باريس. وبعض زملائي الذين تقدموني درسوا الأدب الجاهلي على يدي المرحوم د. ناصر الدين الأسد الذي هو أول عميد للآداب، وأول رئيس للجامعة، واختير لاحقا وزيرا للتعليم العالي، ورئيسا لمجمع آل البيت للحضارة الإسلامية، وقد توفي عليه رحمة الله عام 2015 ونشرت كتابا عنه بعنوان **ناصر الدين الأسد وآثاره في اللغة والأدب**.

قبل التسجيل توافرت لدي فرصة للعمل في شركة الإعمار للهندسة بوساطة أخي فؤاد لمدة تقرب من ستة أسابيع. وكانت هذه الشركة قد رسا عليها عطاء مقاولة لبناء ملهى لمستثمرين إسبان باسم الفيلا روزا. يقع على كثب من معهد الآداب، وقريبا من المدرسة الأرثذوكسية. وهو على مقربة من مبنى البنك العربي الآن، ولم يكن إذ ذاك موجودا في هذا الموقع المعروف باسم الشميساني. ويبدو أن المستثمرين الإسبان أحبطوا فتحول المبنى إلى نادٍ باسم نادي البساط الطائر، وهو نادٍ خاص لموظفي عالية التي تغير اسمها وأصبحت الملكية الأردنية. اما العمل، فكان تسلية لا أكثر. فما علينا أنا ومن هم على شاكلتي من شبان قادمين من مخيم عين السلطان، أو النويعمة، سوى تعبئة دلاء من الماء الراكد في بركة معدة لهذا الغرض، وسقي الأسطح الإسمنتية في عملية يسميها المهندسون (إيناع). واقتلاع المسامير، وجمعها من أخشاب الطوبار لإعادة استخدامها مرة أخرى. ومن الطرائف التي أذكرها أن مراقب العمل طلب منا أنا ومن معي أن نملأ الدلاء من البراميل ونفرغها في البركة، ثم أنتهينا من ذلك قبل الموعد المحدد، وظننا أنه سيطلب منا الانصراف، فكان المفاجئ لنا أنه طلب منا أن نملأ الدلاء من البركة، ونعيد إفراغها في البراميل، وهذا مما جعلنا طوال الوقت نتضاحك بإفراط من عجيب ما طلب.

وبعيد انقضاء هذه المدة قمت بزيارة الجامعة، ومراجعة التسجيل الذي كان موقعه في بناية على كثب من مدرج سمير الرفاعي والكفتيريا، وتقديم الوثائق المطلوبة في الإعلان، وتسديد الرسوم. ولم تكن تزيد على 10 دنانير عن كل فصل من الفصلين. إذ لم يكن نظام الساعات المعتمدة - وهو نظام أمريكي - مطبقا في الجامعة. وقد بدأ تطبيقه بعد العام الجامعي 1970 / 1971. ومن مزاياه أنه يتيح للطلاب دراسة فصل إضافي صيفي. وتحسب الرسوم على وفق عدد الساعات التي يقوم الطالب باختيارها للدراسة سواء أكانت إجبارية أو اختيارية أو حرة.

في شعبتي التقيت زملاء جددًا، وزميلات، تعايشت معهم ومعهن سنوات. منهم الشاعر والكاتب وليد سيف، ومنهم عبد الكريم الحياري الذي تابع دراسته العليا وأصبح مدرسا للبلاغة في القسم، ومنهم د. خليل أبو رحمة الذي لقي حتفه في حادث سير مروع، وكان أستاذا في جامعة اليرموك. وهو مترجم كتاب **مقامات بديع الزمان الهمذاني وقصص البيكارسك** لجيمز مونرو. ومنهم خالد الكركي الذي تابع هو الآخر الدراسة، وعين مدرسا للأدب الحديث، ثم تنقل في وظائف كثيرة منها وزارة الثقافة، ومنها وزارة التعليم العالي والشباب، فرئيس لجامعة جرش، فرئيس للجامعة الأردنية، فرئيس للديوان الملكي، واختتم حياته الإدارية برئاسة المجمع اللغوي. ومنهم طه الهباهبة الذي عمل في إذاعة عمان، واستضافني في برنامج كان يعده، ثم عين وزيرا. ومنهم ياسرالملاح أحد أعضاء هيئة التدريس في جامعة القدس المفتوحة مؤلف كتاب **اكتساب مهارة الإعراب**، وكتاب **الأصوات اللغوية** وقد درست ابنه (مجد) الذي تابع هو الآخر الدراسة في أميركا. ومنهم زيد فريز الذي توقف عن الدراسة قبل التخرج، ولعب دورا رائدا في الإخراج والبرمجة التلفزيونية. وسمير الشوملي صاحب **قصائد عن الحب والموت** وفاروق وادي الذي تخصص في علم النفس، وغدا كاتب قصة قصيرة

وروائيا مشهورا له غير قليل من الروايات **كعصفور الشمس**. ومحمد ناجي عمايرة (أبو لؤي) الذي عمل في الرأي، وفي جريدة عُمان، وأمينا عاما لوزارة الثقافة، قبل أن يتم دراسته العليا، ويشد الرحال إلى السعودية، ومأمون فريز جرار، وعزام الشجراوي، وغيره.

ابحث عن السبب

على أن سعادتي في الالتحاق بالجامعة سرعان ما انتكست بسبب إسرائيل المجرمة ففي 13 /11 من العام 1966 ولم يكن قد مضى على دوامنا شهران قامت بالاعتداء على عدد من القرى في الضفة الغربية وهي السموع وعمواس والثالثة أظنها يالو. وفي ذلك الاعتداء استشهد أشخاص مدنيون، واستشهد الطيار موفق السلطي، وأصيب فراس العجلوني، وهو طيار آخر، ونجد توظيفا لهذا الهجوم الإرهابي في رواية **الصعود إلى المئذنة** للكاتب أحمد حرب 2008 الصادرة عن دار الشروق. وسرعان ما اشتعلت الاضطرابات والمظاهرات.

ولم تكن الجامعة في منأى عن ذلك، فانتشر الصخب في صفوف الطلاب الذين هتفوا بشعارات مناوئة للحكومة متهمين النظام بالتقصير عن حماية الأرواح والممتلكات. وظلوا يحتجون أياما، واضطرت قوى الأمن لحصار الجامعة، ومنعت المواصلات من سيارات أجرة، وحافلات اعتاد الطلاب على العودة بها للمدينة، أو إلى بيوتهم، وعند الخروج من البوابة الرئيسية ذات القباب، وجدنا شاحناتٍ عسكرية، وبعض الجنود يهيبون بنا للركوب كي تقوم هذه السيارات بنقلنا لأحيائنا وبيوتنا. فالجامعة تبعد عن قصبة عمان نحو 5- 6 كيلو متر. وحمدنا الله مصدقين، وامتلأت تلك اللوريات بالطلاب، وما هي إلا دقائق حتى غطيت الشاحنات من جهة مداخلها بالشوادر السميكة الموجودة أصلا على محيط الشاحنة، وسقفها، وأظلمت السيارات، ولم نعد نرى بعضنا. وبعد دقائق أنزلونا في مكان لم نعرفه، وأمام كل سيارة عدد من الجنود يحملون

عصيًّا تشبه تلك العصي التي تستخدم في الأدوات الزراعية كالفؤوس والمجارف. وكلما نزل واحد منا استقبلوه بما تيسّر من الضربات إلى أن يتوارى داخل القاعة التي حشرونا فيها إلى وقت متأخر من الليل، وهات يا شتائم، ويا محاضرات يلقيها علينا عسكريٌ بلغة فيها كل شيء إلا دقة مخارج الأصوات والحروف. وهو يتمشى بيننا جيئة وذهابا. وكلما رأى في أحدنا ما لا يعجبه انهال عليه بالشتائم، وربما باللكمات. وبعد منتصف الليل بقليل أطلقوا سراحنا بعد أن أخذوا علينا عهودًا كعهود بثينة على جميل بن معمر لقوله (أخذت عليّ مواثقا وعهودا) ألا نعود إلى التظاهر.

وحين أفرجوا عنا، وأطلقوا سراحنا، وجدنا البلد وكأنما فرض عليها حظر التجوال، فلا سيارات، ولا أيّ وسيلة من وسائل النقل. وكان علي أن أواصل السير مشيا على الأقدام إلى البيت من العبدلي إلى وادي الحدادة لأجد أخي وامرأته لا يستطيعون احتمال ما هم فيه من قلق بسبب تأخري، وما سمعوه من أخبار عن المظاهرة.

في الجامعة توقفت المظاهرات بعيد أيام قليلة، لكنها استمرت في الضفة الغربية نحو شهر توقفت فيه الدراسة.

مرة أخرى – حزيران 67

تتسبب إسرائيل مرة أخرى في النكد،وسوء الأحوال، وخيبة الآمال. وهي خلقت من أجل هذا. وعلى رأي المثل الشعبي (فهي كالبرد سبب كل علة). لا أعتقد أن في الكون شيئا ينطبق عليه هذا المثل مثل الكيان الإسرائيلي. ففيما كنا نقدم الامتحان في مادة الفلسفة الإسلامية من الساعة 12 – 2 ظهر يوم الاثنين 5 حزيران 1967 اندفع عدد من الطلبة، والموظفين في القاعة، وقالوا تقرر تعليق الامتحانات بسبب اندلاع الحرب بين العرب وإسرائيل المجرمة. روحوا.

وكانت النكسة التي أتت بالكثير من الكوارث، فقد انقطع عدد كبير من الطلاب والطالبات عن أهلهم في الضفة الغربية التي أصبحت محتلة، ومنهم من لا يملك نقودا لكي ينفقها على نفسه من حيث المسكن والمأكل والمواصلات. وفي تلك الأجواء التي يعمها الشعور بالإحباط تقرر إنشاء مخيم للطلبة من أبناء الضفة(الذكور) قبالة كلية العلوم حيث الأرض منبسطة، ولا توجد فيها أشجار مثمرة، ولا مبانٍ. أما الطالبات فتقرر السماح لهن بالبقاء في المنزل الداخلي بلا مقابل مادي إلى أن تُفرج. علاوة على ذلك تقرر تدريبنا تدريبا عسكريا على أساس أننا منذورون- فيما يقال - لتحرير البلاد، متناسين المثل الذي يقول (العليق عند الغارة ما ينفع). وجيء بضابط من آل البيطار، ومدربين برتب وهات يا محاضرات عن تفكيك السلاح، وتنظيفه. وقد استمر هذا نحو 6 أسابيع انتهت الدورة بتطبيق ميداني في الرماية بمعسكر مهجور في طبربور التي كانت في ذلك الحين خالية من المنازل، والبيوت، والمؤسسات، والمولات، لا مثلما هي هذه الأيام، إذ لا يكاد المرء يجد فيها مترا بلا زحمة تشغله.

وقد وقعت في ذلك اليوم حادثة مؤسفة ختمت تطبيقنا بالمآسي والأحزان. فأحد الطلبة، واسمه بسام فضل نافع، من جنين، ومن طلبة السنة الأولى، بعد أدائه الرماية، وكان قد عاد إلى الشاحنة العسكرية التي تقل المشاركين للعودة، واتخذ مكانه فيها، وبيده السلاح المسمى (ستن) أوقف الستن بين ركبتية، فارتطم كعبه بأرضية السيارة لتنطلق رصاصة منه، وتصيبه في الرأس، وتوفي في الحال. وأقيمت له جنازة وتأبين. وذلك الطالب للأسف كان من أكثر الطلبة مرحًا، وحبا للفكاهة، والنكت. ووالده له بقالة معروفة باسم بقالة فضل نافع، قرب دار سينما جنين، وهي السينما الوحيدة إذا تجاهلنا سينما الهاشمي التي لا تقدم العروض إلا في الصيف. وكان بسام زميلا لي في سنتين هما الأول الثانوي في مدرسة حيفا، والثاني الثانوي في مدرسة جنين. لذا شعرت شخصيا

بأن خسارتي برحيله الفاجع خسارة كبيرة، شأني في هذا شأن الآخرين من أبناء جنين الذين التقوا على غير ترتيب، ولا تواطؤ، في الجامعة الأردنية، وفي كلية الآداب تحديدًا.

عَسْكَر والبكالوريوس

ولم تستقم أحوالنا إذ بدأت الأخبار تنتقل عبر البث الإذاعي عن جرائم يرتكبها الاحتلال البغيض هنا أو هناك من الأرض المباركة، و هدم قرى، وترحيل سكان، وضم القدس، وتطبيق القانون الاحتلالي الإسرائيلي فيها، وإنشاء مستوطنات تحيط بها لزيادة عدد السكان الإسرائيليين فيها كي يصبح الضم أمرًا واقعيًا. ولم تمض إلا أشهر قلائل حتى بدأت الأعمال الفدائية ضد الاحتلال: تفجير قنبلة مثلا، أو اعتراض دورية بالسلاح. في هذه الأثناء تناقل الطلبة خبر استشهاد أحدهم في الأرض المحتلة، واسمه فايز حمدان. وأثار استشهاده الكثير من المشاعر الوطنية، ونظّم تأبين له، وألقى فيه عدد من الشعراء قصائد كانت إحداها للشاعر محمد القيسي:

مثلما يأتي المطرْ
مثلما ينبتُ في الأرض الزَهَرْ
مثلما المشتاق يأتي من سفرْ
فهو يوما سيجيء
لم يمت فايزُ ... من قال يموت
ذلك الحبُّ الصموت؟
فهو كالنبع ولما هزَّه التحنانُ للنور انفجرْ !!

واندلعت في 21 مارس – آذار 68 معركة طاحنة في موقع الكرامة شرقي النهر قتل فيها كثير من الصهاينة، وارتد الباقون منهم على أعقابهم خاسرين. لكن القلاقل لم تهدأ فقد غدا الأمر بين الحكومة والمقاومين متواترا بين شد وجذب،

وناقر ونقير، حتى اندلعت الفتن غير مرة. وبلغت الذروة في 17 أيلول من العام 1970 وعلى إثر تلك الحوادث المؤلمة، والمؤسفة، غادر أفراد المقاومة عمان، وغيرها من المدن، وحوصروا في أمكنة محددة، ونجد ظلال هذا في رواية فيصل حوراني **المحاصرون**. ثم غادروا بعد ذلك إلى سورية ولبنان. وتلك الحوادث تسببت في الكثير من المعاناة للناس من الجانبين، وتأخَّر تخرجنا، وألغي الحفل المرتب لذلك. وتسلمنا من عسكر - رحمه الله - وهو أحد المراسلين في قسم اللغة العربية شهادات الليسانس – أي البكالوريوس.

وانتظرتُ عدة أشهر قبل أن يصدر تعييني مدرسا في ثانوية التاج للبنين. وكان والدي عليه رحمة الله قد ظن أن في وساطة فريد السعد ما يعجل في ذلك التعيين. غير أننا عندما قصدناه في شركة السجائر برأس العين لم نجده واستقبلنا شقيقه أبو روحي، الذي طلب مني مراجعته في موعد حدده لي. وفي ذلك الموعد جرت إقالة حكومة عبد المنعم الرفاعي، وكلف الزعيم محمد داود بتأليف حكومة عسكرية. وتذرع بهذا التشكيل طالبا مني الانتظار ريثما تتضح الأمور. وفي شهر كانون الأول من العام 1970 تقرر تعييني دونما وسيط في المدرسة المذكورة. وعهد إليَّ مديرها السيد عطا أبو يوسف بتدريس الصف الثانوي الثالث - الفرع العلمي. وقد برز موسى أبو غوش من طلبتي في هذه السنة إذ كان من الأوائل ودرس على نفقة التربية وأوفدته الجامعة للدراسة في لندن إلى أن ظفر بالدكتوراه وعين في كلية الطب في الجامعة الأردنية. والتقيته بعد تعييني في الجامعة فألفيته ما يزال يبذل جهودا ليصبح شاعرا. وعلمت لاحقا أنه غادر الجامعة واستقر في إحدى الجامعات البريطانية. ومنهم ربحي عليان الذي أصبح أستاذا في كلية التربية. فضلا عن الثاني الأدبي، والأول.

ومثلما ذكرت لا يأتي النكد إلا من الإسرائيليين. ففي أثناء اشتراكي بتصحيح أوراق امتحان الثالث الثانوي في كلية الحسين مع عدد كبير من مدرسي العربية،

سمعنا عن اشتباكات عنيفة تدور في مناطق عجلون وجرش. وقيل إن المعارك تدور ضارية بين الجيش ومن تبقى من أفراد المقاومة. وأن أحد قادتهم واسمه أبو علي إياد – من قلقيلية - لقي مصرعه في حُرْش جرش. وإلى هذه يشير محمد القيس في قصيدة له بعنوان "**البكاء على أطلال جرش** ":

دفنا أجمل الفتيان فيكِ
وقلنا يا مليحة هل نفيكِ
فمن أسقاك هذا الكأس مرًا
سقاني من لظاهُ بُختم فيكِ
وقفتُ على طلولكِ في جَلالٍ
أريكِ من الهوى ما لا أريــكِ
لئن طوفتُ في البلدانِ عهدًا
فقد كانتْ يداكِ هـما شريـــكي

وظلّ التوتر الذي أعقب الفتنة يتعاظم. وبلغ الذروة في شهر نوفمبر عندما اغتيل وصفي التل رئيس الوزاء الأردني الأسبق في القاهرة. ووقع هذا الحدث المفاجئ في 28 نوفمبر من العام 1971 ويعد من تبعاتِ الفتنة المؤسفة التي أطلت برأسها في أيلول من العام الذي سبق، وقيل الكثير من الروايات التي تسرد مراحل الجريمة، وتصف تنفيذها، ودوافع المنفذين، وداعميهم. وأشارت أصابع الاتهام لمنظمة أيلول الأسود، وبعضها أشار للعقيد الليبي معمر القذافي. وثمة أقاويل تنفي هذا وتؤيد ذاك من التقارير. وصفوة القول أن المفجعَ في الأمر هو أن الغاضبين لهذا حمّلوا من لا علاقة له بالاغتيال مسؤوليته، وتبعاته. فقد روى لي من لا أشكّ في صدقه أن أحد الشبان خرج من سينما الحسين ضاحكا بعيد مشاهدته فيلما كوميديا، وتزامن خروجه مع إذاعة الخبر، واتخاذ الاحتياطات الأمنية المشددة التي لا علم له بها، ولا دراية، فما كان من الشرطة

إلا أن أمسكوا به، وضربوه ضربا مبرّحا، وهو لا يعرف سبب هذا الاعتداء حتى قيل له الخبر.

بواكير الأدب

في الوقت الذي تعاظم فيه العمل ضد الاحتلال، والنشاط الفدائي، وفي السنة 1969 صدر للزميل في حينه وليد سيف(أبو خالد) ديوان شعر بعنوان **قصائد في زمن الفتح**. وقبل ذلك كان عدد من الكتاب والأدباء قد تداعوا واتفقوا على إنشاء فرع لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينين. ومن هؤلاء ناجي علوش(أبو إبراهيم) وحنا مقبل، و رشاد أبو شاور(أبو الفهد) ومي صايغ الجبجي، وهدية عبد الهادي، وعلي فودة، وفاروق وادي، وسمير الشوملي، وعز الدين المناصرة، وآخرون كثر. وفي الأثناء أبعد الاحتلال عددا من الكتاب منهم محمود شقير، وخليل السواحري الذي وجد عملا في التدريس في رغدان الثانوية بعمان، وآخر في صحيفة الدستور، وهذا العمل يتلخص في موضوعين أولهما متابعة شؤون الضفة وأخبارها والاحتلال وجرائمه، وتحرير صفحة واحدة تحت مسمى أدب. مقاومة. فن.

وبموازاة ذلك، وبمحض الصدفة، تلاقى عدد من الكتاب على اختيار إحدى المقاهي التي تقع في مركز المدينة في شارع فيصل وتكاد تكون (مخفية) إذ إن موقعها في زنقة تؤدي إلى دار سينما عمان، ومقابل صالون حلاقة لأرمني اكتشفنا أنه كاتب وأديب، وعلى الرغم من معرفته لغات عدة إلا أنه لا يحسن القراءة، ولا الكتابة بالعربية. وفي مقدمة الزنقة دكان لبيع الفواكه والخضار ذات الأسعار العالية، ولهذا كنا نصف صاحبها وهو نابلسي من دار عميرة بالصيدلي، ودكانه بالصيدلية. وفي أقصاه زاوية يستخدمها خطاط (سباخ) فترى أمامها الكثير من الألواح بعضها ملطخ بالألوان.. أما الذين كانوا يتردّدون على هذه المقهى ذات الكراسي الواطئة ففي مقدمتهم خليل السواحري والفنان محمود طه والشاعر

المترجم موسى صرداوي وعلي فودة ومحمد ضمرة وعلي البتيري وأحمد عودة، وإبراهيم العبسي، ومحمد أبو شام. وآخرون يزاولون بعض الألعاب منها الزهر، ومنها الورق. وكان مستثمر هذه المقهى أحد أقاربي (أبو سلطان).

قلت عندما صدر ديوان **قصائد في زمن الفتح** كتبت مقالة عنه، وبعثت بها عن طريق صندوق البريد 591 للدستور، ولم يكن السواحري يعرفني. وفوجئت في يوم الجمعة بنشره. وقد طرت سرورا بذلك لأنني أرى اسمي مطبوعا لأول مرة، إلى جانب عنوان المقال. وذكرتني تلك الفرحة بقصة قصيرة قرأتها لأنطون تشيكوف؛ لأن بطل تلك القصة طار عقله حين رأى اسمه هو الآخر منشورا في جريدة، وأخذ يقول، والعالم يكاد لا يتسع له، صرت مشهورا .. صرت مشهورا.. والقصة كانت بعنوان (فرحة).

وأتبعت هذه المقالة بأشعار، ومقالات أخرى: إحداها عن ديوان محمد القيسي **راية في الريح**، وقد أبدى الشاعر القيسي- رحمه الله - إعجابه بالمقال، وإن كنت أظن أن هذا الإعجاب قد يكون من باب المجاملات. ونشرتُ مقالات في صحيفة أسبوعية هي صحيفة عمان المساء لصاحبها المرحوم ياسر حجازي. وفي الدفاع التي عادت للصدور بعد توقف. وفي مجلة فلسطين الثورة نشرت مقالات عن الشعر. وتناولت ديوان عز الدين المناصرة **الخروج من البحر الميت** في مقال. وسرعان ما غدوت كاتبا يتطلع إلي الكتاب بشيء من التقدير. وفي الرأي تبنى المرحوم جمال أبو حمدان نشر ما أبعث به إليه من مقالات في الأدب أو في أي شأن آخر كالفنون التشكيلية والمسرح. وقد ساهم في معركة أدبية مع المرحوم حسني فريز دافع فيها عني. ولم يكن فخري قعوار أقل حماسة منه لنشر ما أكتبه حين عهد إليه بالإشراف على ملحق الرأي، ولا المرحوم إبراهيم العجلوني، ولا أحمد المصلح، ولا خالد محادين. وازداد هذا في السنوات التالية أي بعد العام 1972. وهو العام الذي شرعت فيه أكتب ما يصلح للنشر في

المجلات كأفكار، وصوت الجيل، ومجلة الشباب. وقد شجعني المرحوم محمود سيف الدين الإيراني على هذا، وأقنعني بأن النشر في الصحف اليومية لا يكفي، واختارني لكتابة مقالات عن بعض الإصدارات، ومحررا في مجلة صوت الجيل التي أسندت رئاسة تحريرها لأمينة ماجد العدوان صاحبة كتاب **محدودات بلا حدود**.

أسوار عكا

في صيف العام 1973 تسلمت تصريحا يسمح لي بزيارة الضفة الغربية والعودة إلى عانين عودة محدودة بزمن لا يتجاوز الثلاثين يوما. وبالفعل أعددت نفسي جيدا لهذه الزيارة وملأت حقيبة السفر بما استطعت من الهدايا والملابس وغادرت عمان مع المسافرين إلى الجسر بسيارة أجرة. ومن الطبيعي أن يجد المسافرون مشقة في العبور من شرق الأردن إلى غربه، فثمة أوراق ينبغي إبرازها لشرطة الجسر في الجانب الأردني، ثم التخلي عن سيارة الأجرة والانتقال بالحقيبة إلى موقع آخر، وفيه ينبغي أن تترك ليقوم بعض العاملين بوضعها على سطح الباص المعد لنقل المسافرين إلى الجانب الآخر من الجسر. عند بلوغ الضفة الأخرى منه يهرول المسافرون إلى مكاتب يقدمون فيها الأرواق التي تبين شخصية المقبل على زيارة الأرض المحتلة، وأن لديه موافقة من الحاكم العسكري، أي: التصريح. وفي الأثناء تكون الحقائب قد أنزلت من الباص وألقيت في قاعة متسعة ليتعرف عليها أصحابها بعد الانتهاء من المرور من بوابات التفتيش البدني الذي يستغرق وقتا ليس بالهين ولا بالقصير.

قدر لي أنا، وقليل من المغادرين على تلك الحافلة، أن تتأخر أوراقنا، ولا يدعونا أحد للعبور إلى الرحبة التي تلقى فيها الحقائب. وعلمنا بعد تأخير دام ساعات أننا مطلوبون للتحقيق.

قادني أحد الإسرائيليين نحو حجرة صغيره فيها محقق، وأمامه بضعة أوراق وأقلام. وقد تظاهر بالرفق إذ رحب بي قائلا إنه لا يريد إلا التعرف بي. عرفت من لهجته تلك أنه يريد أن يعد لي ملفا. فهم لا يعرفون عني إلا القليل مما قدمه لهم أحد أقربائي حين تقدم بطلب التصريح، كمكان الولادة، وتاريخه، ومكان السكنى، والعمل، وما شابه ذلك من معلومات لا تفيدهم بشيء. وقد استغرق التحقيق نيفا وستين دقيقة. ولم يتضمن إلا أسئلة عادية مثل أين اتوجه؟ ومن هم أقربائي؟ وماذا يعملون؟ ومتى غادرت بلدتي؟ وأين درست؟ وماذا؟ وهل لي أقارب في عمان؟ ومن هم؟ وأين يسكنون؟ إلخ. لاحظت أن الأسئلة تبدو عديمة الفائدة إلا انني عرفت لاحقا حرصهم على مثل هذه التحقيقات، فهم يفاجئون من يحققون معهم بما لديهم من معلومات حصلوا عليها بهذه الطريقة، فلو ذكرت لهم أن لي قريبا في عمان، وأنه محام، ويسكن في كذا.. فإنهم ينتفعون من هذه المعلومات إذا صادف ومر بهم هذا المحامي، فيزعمون له أنهم يعرفون عنه كل شيء. بدليل أنه كذا ويسكن في كذا ومكتبه في الموقع الفلاني، وعلى هذا النحو تتحول المعلومات التي تبدو قليلة الفائدة لمفيدة جدا.

عندما سمح لي بالانصراف وجدت السيارات التي تقل المسافرين إلى الأماكن التي يريدونها قد اختفت إلا واحدة ليس فيها إلا راكب واحد فاضطررت أن اتغرم أجور بقية الركاب ليمضي بنا صاحب السيارة إلى جنين. وقد كانت بهجة أبي وأمي وإخوتي بوصولي بهجة لا تتصور، كأنني هبطت عليهم من السماء السابعة، غبطة لا يمكن التعبير عنها بالكلمات. فهذا هو أحد المواقف التي تضيق فيها العبارة عن التعبير عما يحس به المرء من مشاعر تملأ الروح وتهز القلب هزا عنيفا مرعدًا.

وبعد أيام قليلة استقبلت فيها غير قليل من المهنئين بسلامة القدوم، وتقبلت عددا من الدعوات لتناول الغداء أو العشاء لدى الأقرباء على عادة الناس في

القرى في إكرام العائدين من السفر أو الغربة، اقترح علي أبي رحمه الله القيام بزيارة ولو قصيرة لبعض الأمكنة في فلسطين المحتلة عام 1948 وكانت غايته - عليه الرحمة - التعريف بما لم أكن أعرفه من تلك الأماكن. وقد رحبت بذلك ترحيبا شديدا. وهكذا غادرنا البيت أنا وأبي والوالدة عليها رحمة الله(توفاها الله في 20 آذار – مارس 2012) فأدركنا السيارات المتوجهة للناصرة من جنين قرابة العاشرة.

في الطريق مررنا بغير قليل من القرى، والبلدات الفلسطينية التي لا أتذكر أسماءها الآن، وذلك قبل المرور بالعفولة. وكنت أسمع بها كثيرا مستغربا الاسم الذي سمعت به دون معرفة بمعناه، لا سيما بسبب اقترانه بآخر هو الفولة، وهي معروفة. وقد سمعت مرارا من يجمع بينهما قائلا الفولة والعفولة. أما الفولة فهي قرية صغيرة تقع في موقع استراتيجي من سهل مرج بن عامر الذي يمتد من الناصرة شمالا إلى جنين جنوبا، وكانوا يسمونها عاصمة المرج. وقد باعت أسرة لبنانية من آل سرسق ما تملكه من أراض شاسعة تابعة للقرية لجماعة صهيونية من المهاجرين وقدماء المستوطنين سنة 1925 وأنشأوا على تلك الأرض مدينة أطلقوا عليها الاسم الآخر عفولة. والعفولة هذه تبلغ مساحتها بما يتبعها من الأراضي نحو 25 كيلومترا. وتربطها طرق وخطوط سكك حديدية بمدن عدة كالناصرة وحيفا وعكا وجنين ومجدو.

و تذكرت هذه البلدة لاحقا عندما قرأت كتاب العميد الركن صالح الشرع " مذكرات جندي " فقد أفاد فيه أن المدينة التي سقطت بأيدي الصهاينة عام 1948 ارتقى فيها عدد من الشهداء العراقيين، وأن المقدم العراقي عبد الكريم قاسم عليه الرحمة حين جاءته الأوامر من بعض (الخون) للانسحاب منها، ومن جنين، ورأس العين، في صفقة، أبى الانسحاب إلا بعد أن تستخرج جثامين الشهداء العراقيين،خشية أن يدنس الأنذال الصهاينة رفاة الأبطال العراقيين،

وعددهم اثنان وعشرون شهيدا، وإعادة دفنها في مثلث جنين- عرابة المعروف حتى اليوم بمقبرة الشهداء العراقيين. وقد روى المؤلف، وهو عميد ركن سابق في الجيش الأردني، هذه الحكاية رواية شاهد عيان في كتابه المذكور بنغمة تنم على الفخر بذلك المقدم الذي اعتلى كرسي الرئاسة ببغداد لاحقا، وما كان يتصف به من نخوةٍ، وأريحية، تذكرنا بالماجدين من القادة كخالد بن الوليد(21هـ)، وصقر قريش عبد الرحمن بن معاوية(توفي 172هـ)، وصلاح الدين الأيوبي(589هـ).

بعد المسير بالسيارة لساعة أو بضع الساعة نزلنا في الناصرة، وتوجهنا الوالد والوالدة وأنا نحو كنيسة البشارة في المدينة. والناصرة من أكبر مدن فلسطين تزيد مساحتها عن 15 كيلومترا, وهي من أقدم المدن، وتقع على الطريق الواصل بين مصر وسورية. وتصلها طرق بحيفا وعكا وطبرية وصفد وجنين جنوبا وكانت تعد عاصمة الجليل. وهي من المدن التي يغلب على ساكنيها العرب الفلسطينيون، وتبلغ نسبة المسلمين منهم نحو 70% والآخرون من النصارى. وقد أقام المستوطنون على كثب منها مستوطنة تقتصر على اليهود أطلقوا عليها اسم الناصرة عيليت، أي الناصرة العليا، على حسب الموقع.

وكنيسة البشارة تعد من أكبر الكنائس في الشرق الأوسط، إذا تجاوزنا كنيسة المهد التاريخية في بيت لحم، والقيامة في القدس.

ومن الناصرة اشتهر من الكتاب الشاعر توفيق زياد(1994م) الذي شغل منصبا إداريا فيها فكان رئيس البلدية، وهو شاعر معروف، ومن كبار شعراء المقاومة، يقول في واحدة من قصائده مخاطبا الإسرائيليين"

كأننا عشرون مستحيل
في اللد والرملة والجليل
هنا على صدوركم باقون كالجدار

وفي حلوقكم كقطع الزجاج كالصبار
وفي عيونكم
زوبعة من نار

وفيها ولد ونشأ الشاعر مطلق عبد الخالق(1910- 1937) صاحب ديوان الرحيل. وكان قد توفي في حادث سير، وهو شاب، بدأ حياته صحفيا لامعا وانتهى على هذا النحو المفجع. وقد كتبتُ عنه فصلا في كتابي النافذة المضاءة الذي يتناول عددا من شعراء العربية المحدثين. وفيها ولد الشاعر الكاتب حنا أبو حنا(1928- 2022) الملقب بزيتونة الجليل، وقد انتقل إلى رحمة الله في العام 2022 وهو صاحب دواوين وكتب عدة أشهرها سيرته الذاتية ظل الغيمة الذي أفردت له فصلا في كتابي قراءات في كتب السيرة، وكنت نوهت له في كتاب سابق، بعنوان " الإعلام عمن عرفت من الأعلام ".

وأما كنيسة البشارة ففيها ما لا يوصف من جماليات الفن المعماري والزخرفة التي تتخللها الأيقونات والصلبان واللوحات المتعددة التي تمثل صورا للآباء والقديسين. وقد أضيفت للكنيسة مؤخرا إضافات جديدة مما استدعى إعادة الافتتاح مع أنها كنيسة قديمة تاريخيا، وقد سميت بهذا الاسم على وفق المزاعم السائدة في إشارة لما بشرت به السيدة مريم العذراء من البشرى بولادة الصبي الذي سمي عيسى، مع أنها كانت بكرا، لم تتزوج، ولم يمْسِسْها بشر.

ذكرت في الصفحة السادسة عشرة أن لوالدي صديقا مقيما برام الله ويدير مكاتب شركة التبغ والسجاير الأردنية بنابلس واسمه ناصر الحداد، وهو من الناصرة أساسا. وهذا الصديق هو وإخوته شريك لأبي في أراضٍ وزيتون في البلدة، وأما عائلة الحداد فهي في الناصرة. وقد أصبح الوقت مناسبا بعد طوافنا بأركان كنيسة البشارة لزيارة هذه العائلة حيث تقيم. وكان الحاج قد استحضر معه ونحن في جنين كمية من الفحم واللحوم الحمراء، ولم أكن أعرف لم هذه

الكمية؟ وبعد وصولنا لمنزل عائلة الحداد، وكان والدي على معرفة بهم قبل النكبة، وبعد السلام والحديث عن الأحوال، والاشتياق، وما شابه ذلك وشاكله، جيء بالغداء، وإذا به أطباق من اللحم المشوي (باربكيو) والكبة النيئة، وقد اكتشفتُ لاحقا أن الوالد كان قد تلافى إرباك الجماعة بالحضور في موعد الغداء فجأة، فأحضر معه هذه الأشياء. وكان غداءً رائعا يخيم عليه طابع الوجبات اللبنانية، فالفلسطينيون من أبناء الجليل، والشمال، لديهم طباع شبيهة بطباع اللبنانيين، وعادات قريبة من عاداتهم، وتقاليدهم، وإلى حدٍّ ما ثمة عائلات مشتركة. فعائلة الحداد نفسها منها أفراد لبنانيون يقيمون في بيروت.

بعيد الغداء غادرنا إلى عكا واتخذنا من إحدى الحافلات (إيجد) وسيلة النقل، وصادف أن كانت بجانبي سيدة، أو فتاة، من عرب فلسطين. وفي الطريق كانت تشرح لي بعض الشروح عن القرى التي نمر بها، وأكثرها قرى تم محو آثارها، وإزالتها. وقد رأيت بعيني قرية صفورية التي لم يبق الاحتلال منها سوى القبور التي أحاطت بها النباتات الشائكة العملاقة كالصبار وغيره. وحين اقتربنا من عكا دُهشت لمرتفع هائل من الأرض، بدا لي غريبا عن التضاريس، وشاذا، فافهمتني أن هذا المرتفع هو تل نابليون. وعندما اطلعت على ديوان محمود درويش(1941- 2008) "لماذا تركت الحصان وحيدا؟" استوقفتني في واحدة من قصائده إشارته لهذا الموقع:

إلى أين تأخذني يا أبي
إلى جمة الريح يا ولدي
وهما يخرجان إلى السهل حيث أقام
جنود بونابرت تلا لرصد الظلال
على سور عكا القديم.

والمعروف أن نابليون(1769- 1821) عندما استتبَّ له الوضع في مصر سنة 1799 طمع بالتوسع، ولاستيلاء على الشام، فاستولى على غزة، وعلى يافا، وزحف بعساكره شمالا إلى حيفا، وضرب حصارًا على عكا استمر لبضعة أشهر، فقاومته المدينة، وتراجع بقواته إلى مصر، ويرى بعض المؤرخين أن هزيمته أمام أسوار عكا الحصينة، والمساعدات التي تلقاها المقاتلون فيها من العثمانيين، ومن الإنجليز، مهدت لفشل الحملة الفرنسية التي زالت سلطتها على مصر في العام 1801مثلما ورد في كتاب عبد الرحمن الجبرتي(1825) الموسوم بعنوان(مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس). وقد قرأت لاحقا رواية للكاتب المصري صنع الله إبراهيم(ولد عام 1937) بعنوان " العمامة والقبعة" 2007 تروي الكثير من التفاصيل عن تلك الحملة، وعن حصار الفرنسيين لعكا. مستخدما التخييل التاريخي في نسْج الحوادث، وتسليط الضوء على المسارات. وأثارتني تجربة الكاتب في مجال الرواية التاريخية لاختلافها عما ينشر من روايات ساذجة، وسطحية، تؤكد جهل الكاتبين بالرواية بصفة عامة، والتاريخية منها على نحو خاص. فتناولتها في مقال نشر في الدستور الثقافي- الجمعة 24 مايو – أيار 2024.

وعكا مثلما هو معروف لدى القاصي والداني هي مسقط رأس الكاتب الشهيد غسان كنفاني(1939) الذي لجأ منها مع عائلته إلى الجنوب اللبناني ثم إلى سورية في العام 1948 وقد درس في مدارس الأنوروا وعشق الرسم والكتابة. وهو مؤلف أرض البرتقال الحزين، وعالم ليس لنا، وموت السرير رقم 12 وروايات: رجال في الشمس، وما تبقى لكم، وعائد إلى حيفا، وأم سعد،وهذه الكتب تناولتها في كتاب لي صدر مبكرا بعنوان في القصة والرواية الفلسطينية 1984 وله مقالات جمة، وكتب عن أدب المقاومة في فلسطين 1966، وعن الأدب الصهيوني1967، والأدب الفلسطيني المقاوم1968. وهو

منشيء صحيفة الهدف الأسبوعية في بيروت. واغتالته عصابة من الموساد في 8 يوليو – تموز 1972 بعبوة ناسفة وُضعت في سيارته في الحازمية ببيروت، واغتالت معه لميس، ابنة أخته، في عملية أرهابية تؤكد أن الإسرائيليين هم مخترعو الإرهاب، وأساتذته المبرّزون. ومن عجيب ما يذكر، وعلى كثرة ما ألف عن غسان من كتب، فإن أوّلاها بالتنويه ها هنا، كتابُ داني روبنشتاين، وهو صحفي وأكاديمي إسرائيلي، انتهى فيه بالقول: لقد استطاع غسان كنفاني أن يكون بطلا للثقافة الفلسطينية (انظر ما كتبته عنه في القدس العربي 7 يولية 2023) .

وفي عكا لا شيء يجذب الأنظار أكثر من مسجد أحمد باشا الجزار؛ فهو آية من آيات الفن المعماري الإسلامي ذي الطابع العثماني. وقد تجولنا في المسجد الذي ما زال يحتفظ بنضارته، ولم تظهر على جدرانه، ولا على أعمدته، ولا على منبره ملامح الشيخوخة في الأبنية والعمران، بل يتألق للناظرين بما فيه من الكتابات المذهبة بالخط العربي، وبما فيه من الزجاج المعشق، والفسيفساء التي تسلب القلوب، والعقول، بما فيها من جماليات بصرية. أما أحمد باشا الجزار، (1722 ـ 1804) فهو من الولاة المحليين في بلاد الشام. وكانت ولايته على صيدا وما جاورها. وقد نسبت له غارات عنيفة على البدو الذين كانوا يعتدون على القوافل في البادية. وسمي الجزار لبطشه بهم، وقتله الكثيرين منهم. وفي أثناء ولايته حاصر الفرنسيون بقيادة بونابرت عكا، وهُزموا هزيمةً منكرة 1799 .

ومما يلفت الأنظار في عكا سورها الحصين، وهو سور أقيمت أساساته في البحر. فمن يبصره يظن الغاية منه حماية المدينة من صخبه وهديره. وقد بني من حجارة ضخمة كتلك التي بنيت منها الأسوار في المدن التاريخية القديمة كطروادة وإسبرطة وغيرها. إذ يعجب المرء كيف كانوا ينقلون الحجارة الضخمة بوزنها الثقيل في زمن لم تعرف به الوسائل الحديثة في هذه الأيام. واللافت أن السور

في بعض أجزائه عريض جدا. ويزعم بعضهم أن المحاربين كانوا يتدربون وهم على صهوات خيولهم على السور، ولا سيما في الأجزاء العريضة منه. فيما يروي بعضهم أن الأولاد يزاولون في تلك الأجزاء مباريات كرة قدم. والمعروف أن السور بني في عهد ظاهر العمر(1695- 1775)، وهو من الولاة العثمانيين. ولد في عرابة البطوف سنة1695 وتولى متصرفية صيدا وصفد ويافا وحيفا واللد والرملة ونابلس. وفي العام 1746 أصبح ملتزما على عكا. وشرع في تحصينها مبتدئا بإنشاء سورها الحصين. وتوفي سنة 1775م. ولهذا السور حكاية تعود بي إلى عام 1967 ففيه نشر الشاعر العراقي سعدي يوسف(1934- 2021) قصيدة بعنوان " تأملات عند أسوار عكا ". وكان الظرف الذي كتبت فيه القصيدةُ، ونُشرت، ظرفًا ساخنا سخونة الدم النازف من جراح المكلومين في حرب العام المذكور، وانتكاسة يونيو، وفيها يقول الشاعر الراحل:

عشرون ألفا عند أسوارها
ماتوا، ولكنني من أجلهم عشتُ
كان جوادي متعبًا متعبًا
أعرافهُ الموتُ
وكانتِ الأسوار عندي
صخرةً صخرةً
ومنجنيقًا منجنيقا
أيها الصمتُ
يا أيها الصوت الإلهيُّ
أنا الأسوارُ والموتُ.

وهي قصيدة جيدة يقول فيها، معربا عن رأيه فيما جرى، ووقع، يوم الخامس من حزيران 1967:

جيش السلاطين طوى راية
أريد أن تطوى
فلترتفع في السوق راياتُنا
وَلْيبْدأ الأقوى

فالحكام بما لديهم من جيوش جرارة، فشلوا فشلا ذريعًا في الحفاظ على الأوطان، وحماية الديار، وما إن بدأت الحرب حتى التمسوا الهروب والنجاةَ والفرار، ولهذا يرى المتكلم أنهم بذلك الخذلان تخلوا عن مهمتهم، وطوَوْا راياتهم، وآن الأوان لترفع الشعوب راياتها، وتبدأ المقاومة؛ فهي الأقوى، والأكثر صمودًا.

وفي السور يرى الزائر نوافذ ضخمة كانت تندفع منها القذائف في المعارك، وهي تقصف السفن القادمة من جهة البحر. وفي البحر ثمة أبنية يظن أنها كانت تستخدم سجونا لحبس المعارضين، أو المجرمين، أو الأسرى. وقد ذُكر أحد السجون في الأغاني الشعبية الفلسطينية، وهو الذي قيل فيه:

من سجن عكا طلعت جنازة
جمجوم وعطا وفؤاد حجازي

في إشارة لليوم الذي أعدم فيه الأبطال الثلاثة: محمد جمجوم، وعطا الزير، وفؤاد حجازي، وهو يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر يونيو – حزيران 1930 وهو الذي نظم فيه الشاعر إبراهيم طوقان(1905- 1941) موشحا بعنوان الثلاثاء الحمراء:

لما تعرَّض نجمُك المنحوسُ وترنحت بعرى الحبال رؤوس
ناح الأذانُ وأعْولَ الناقوسُ فالليل أكدرُ، والنهارُ عَبوسُ

غادرنا بُعيد أن أشفينا الغليل من عكا، ومن مسجد الجزار، وسورها الحصين المنيع، ومن الشاطئ الذي توافر فيه الكثير من الصبية يتراشقون بالماء ويسبحون في الموج على شاطئ لا يبدو أنه موضع عناية. ففيه الكثير من الغثاء، إذا قيس بالشواطئ التي تخصص للإسرائيليين. فعكا في الحقيقة مدينتان، إحداهما قديمة ويغلب على سكانها أنهم فلسطينيون. وهذا القسم من المدينة مهمل إهمالا ظاهرا يتحدث عن نفسه، وآخر للمستوطنين الذين جاءوا للبلاد من بولندة وروسيا وفرنسا وغيرها،أي أنهم (حوَشٌ) ولمٌ، من هنا وهناك، واستقروا بحكم أنهم صهاينة يدعون حقا دينيا وهميا في البلاد. غادرنا إلى حيفا، وهي ليست بعيدة كثيرا عن عكا، إلا أن ما يميز هذه المغادرة أن المسير فيها على الساحل، فمن نوافذ الحافلة نستطيع رؤية البحر بزرقته المشربة بالخضرة، ورؤية السفن والمراكب، وهذا منظر في غاية الجمال الذي يثير فينا الشعور الممتزج بالمتعة، والحسرة، في آن.

في حيفا يختطف أبصارنا مسجد حسن بيك شكري. وهو مسجد يمثل، كغيره من مساجد فلسطين، معلما باهرا من معالم الفن المعماري الإسلامي. وقد علمت من والدي أن حسن بيك الذي يحمل المسجد اسمه من أعيان المدينة. وقد شغل منصب رئيس البلدية زمن الانتداب البريطاني(توفي 1940م), وفي كتاب لروضة غنايم عن حيفا في الذاكرة الشفوية (2023) تنويه لهذا الرجل في سياق الحديث عن أحياء المدينة الخمسة. ومنها حي وادي النسناس، وحي عباس، وحي الألمانية، والعتيقة، ووادي الصليب. وبعض هذه الأحياء فيما يروي أبناء المدينة كان مثالا لتعايش الطوائف، والملل، من مسلمين ويهود ومسيحيين، ومن عرب وأجانب أوروبيين. فعلى سبيل المثال عيادة الطبيب اليهودي ربما تكون في حي العتيقة، وهو حي شبه إسلامي خالص، مع أنه من سكان حيّ يهودي.. وقد شرد الصهاينة عام 1948 نحو 60 الفا من سكان حيفا

التي هي من أكثر المدن الفلسطينية عراقة شأنها شأن القدس والناصرة والرملة وسواها من المدن. ولم يكتف المجرمون بهذا، فقد سعوا لمحو آثارهم فيها، فاستبدلوا الأسماء العبرية للشوارع والطرق بالعربية. ومع هذا حافظ الحيفاويون على وجودهم فبرز فيها نابهون من أمثال المحامي حنا نقارة(1912- 1984)، والناشط السياسي توفيق طوبي(1922- 2011).وفيها نشأت المطابع والصحف كصحيفة الكرمل لنجيب نصار، ومجلة النفائس. وعرفت المسرح في وقت مبكر، ودور السينما، وزارتها فرق مسرحية من مصر. وفي حيفا حيٌّ وسوق عرف بأهميته السياحية، والتجارية، وهو الهدار(هدار الكرمل). ومنه يطل المرء على البحر. وإلى جانب المسجد المذكور ثمة حديقة للبلدية يعد التجوال فيها من أمتع اللحظات التي تجمع بين الماء والخضرة وجماليات العمران.

وحيفا هي بلد الكاتب الروائي إميل حبيبي(1922- 1996) مؤلف سداسية الأيام الستة، والوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل، و خرافية سرايا بنت الغول، وغيرها من الكتب، وهو مؤسس مجلة مشارف الأدبية. وأحد مؤسسي عصبة التحرر الوطني النواة المبكرة للحزب الشيوعي في فلسطين. وقد أوصى عند وفاته أن تنقش على شاهدة قبره عبارة "باق في حيفا" وهي أيضا بلد الكثير من الكتاب، كحسن البحيري(1921- 1998) صاحب الأصائل والأسحار، وأفراح الربيع، وحيفا في سواد العيون، وله خمسة عشر ديوانا . ومنهم جميل البحري(1895- 1930) مؤلف كتاب تاريخ حيفا، وإميل توما(1919- 1985) صاحب كتاب نضال الشعب الفلسطيني منذ الانتداب البريطاني، وله " جذور القضية الفلسطينية ". وقد صدرت أعماله الكاملة في أربعة عشر جزءًا. وأقام فيها كل من سميح القاسم، ومحمود درويش. وثمة كتب عدة يتحدث فيها مؤلفوها عن هذه المدينة، وماضيها الغابر، منها على سبيل المثال لا الحصر: كتاب قصة مدينة حيفا، وحيفا في الذاكرة الشفوية،

وتاريخ حيفا لجميل البحري، ومن اسطمبول إلى حيفا، وطيرة حيفا، وومضات من حيفا، وصفحات عن حيفا لعبد الرحمن مراد .

وفي ذلك الصيف غادرت البلدة في أواخر شهر آب(أغسطس) وقد فقدت حقيبتي في فوضى الأمتعة على الجسر في أثناء العبور من الضفة الغربية إلى الشرقية، وانتظرت وقتا طويلا لعلّ مَنْ أخطأ، وأخذها ظنا منه أنها حقيبته، يعيدها، إلا أنني لم أستفد من ذلك الانتظار سوى الملل، والسأم، وجفاف الريق، في جو الأغوار الحارّ الذي لا يحتمل هجيره. لم أكن أتوقع أن تعقب تلك الزيارة حربٌ ضروس هي الحرب التي يسميها بعضهم حرب تشرين 73 أو حرب أكتوبر، وبعضهم يسمونها حرب يوم الغفران، أو يوم كيبور.

اكتوبر 1973

ففيما كنت في منزلي الذي أقمت فيه بعد أن غادرت منزل أخي في وادي الحدادة لعدم الاتساع، وكنت متمددا على سريري أستمع لإحدى أغاني أم كلثوم القديمة، وإذا بأحدهم يقرع الجرس ويدخل دون استئذان. إنه جميل البرقاوي أحد طلاب الجامعة، وشركاء السكن مع محمد عبد اللطيف ابن خالتي، و محمد عبد الفتاح المنبوز بلقب نهيان، ومحمد عبد الله حسن، يقول مندهشا قامت الحرب!!! فحسبته أول الأمر مازحا فأدرت جهاز الراديو إلى صوت العرب من القاهرة، وإذا بالموسيقى العسكرية والأناشيد الحماسية والبيانات العسكرية تصم الآذان. فقلت (عملها السادات) استمرت الحرب عدة أيام. في البدء تفاءلنا بها خيرا حتى أنني سمعت بمن يجهزون أمتعتهم للعودة.

بدأنا نتابع الأخبار: تحطيم خط بارليف، التغلغل في سينا إلى ممري متلا والجدي، القوات السورية على مشارف الحولة. ولكن الحرب تحولت، وتذكرنا القول المأثور (ريتك يا أبو زيد ما غزيت). وثغرة الدفرسوار تقطع الطريق على الجيش المصري. والقوة السورية المتوغلة تتراجع. والجسر الجوي من أميركا إلى

تل أبيب يواصل إمداد إسرائيل بالسلاح والذخيرة. السادات والأسد كل منها يدعو لوقف إطلاق النار، وهات يا تفاوض.

أفادت الدراسات والتحليلات العسكرية لاحقا أن الحرب لم تكن أكثر من عملية تكتيكية لتحريك المفاوضات بين الخصمين. وعلى الساحة الفلسطينية لم يكن ثمة أي تغيير.

وفي السنة نفسها، وبُعيد أن وضعت الحرب أوزارها، فوجئنا نحن المهتمين بالشعر والأدب وحتى بالإعلام والصحافة بخبر فاجع ومفاجئ. وهو انتحار الشاعر الشاب تيسير سبول صاحب الديوان **أحزان صحراوية** والرواية الرائدة في التجريب **أنت منذ اليوم.** كنت قد التقيته مرة واحدة في منزل الصديق المرحوم خليل السواحري أيام كان مقيما في جبل الحسين، قريبا من مدرسة رغدان بعد محطة الوقود. وكان في ذلك الوقت عائدا من جولة له في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام 1948 و1967. وكتب بعض المقالات في منبر الرأي عن جولاته يلح فيها على الديمقراطية وحرية التعبير. ويدعو لإلغاء الألقاب مثل البيك والباشا والمعالي والعطوفة والسعادة. ومخاطبة المسؤولين بأسمائهم فحسب. وكان قد عُرف ببرنامجه الإذاعي من أدبنا الجديد. ويجد القارئ المزيد مما يتصل بهذا الشاعر الروائي في كتابي **تيسير سبول من الشعر إلى الرواية** الصادر في بيروت 2005.

وينبغي ألا يفوتني شيء يجب ذكره وهو تغيير موقع عملي. فقد جرى انتدابي من التعليم للعمل في شعبة الإعلام والدراسات في المكتب التنفيذي لشؤون الأرض المحتلة، وذلك باقتراح من الصديق الراحل السواحري. وفي عملي الجديد عرفت زملاء جددا منهم صلاح تيم المسؤول عن الأرشيف، وأبو درويش وشاهر وهما في الديوان، ومحمد فضل الطاهر المسؤول عن البلديات، وخالد العطعوط المسؤول عن جل ما له علاقة بالأراضي والزراعة والمزارعين، والمحامي

محمود حماد، والمحامي جواد يونس، والمدعي العام الحقوقي حيدر الكايد، وهؤلاء جميعهم مسؤولون عن التقاضي، وإحسان خالد الذي يعمل في التلفزيون أيضا وهرون محاميد المترجم عن العبرية، وغازي السعدي الذي أنشأ دار الجليل للدراسات والنشر في جبل الحسين، ونشرت كتبا كثيرة عن فلسطين، وعن الشؤون الإسرائيلية، ولم تخل منشوراتها من الأدب، مثلما هي الحال في نشره كتبا لأنطوان شلحت عن الأدب الإسرائيلي، فقد كان مبعدا من الجليل، ولديه علاقات جيدة.

قلت: نُشر خبر انتحاره يوم 15 تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه. بعض التأويلات تقول إنه فعل هذا متأثرا بالنهاية التراجيدية التي انتهت بها حرب أكتوبر. والواقع أن هذا قد يكون صحيحا، ولكن التأويل المذكور يحتاج إلى ما يؤكده. تداعى بعد أسابيع من هذا الحادث عدد من الكتاب والأدباء والإعلاميين لتأبين الشاعر. ونظمت ندوة بهذا الشأن في نادي خريجي الجامعة الأردنية الذي يقع قرب الدوار الثالث. وتنبه المشاركون من متحدثين وحضور لعدم توافر هيئة ما تنتظم الكتاب والأدباء، وانبثقت فكرة تطرح للمرة الأولى، وهي فكرة رابطة الكتاب الأردنيين. وقد استغرقت المشاورات واللقاءات نحو خمسة أشهر من العام 1974 وأعد المحامي المرحوم عدي مدانات نظاما داخليا لهذه الرابطة. ونوقشت مواده، وقدم للداخلية لأخذ الموافقة النهائية على المشروع. وصدرت الموافقة في 29 أيار – مايو 1974 وسُجلت الرابطة بصفة جمعية خيرية.

أما المؤسسون الذين وقعوا الطلب، وتابع بعضهم الإجراءات، فأذكر منهم السادة عبد الرحيم عمر، وسليمان عرار، وروكس العزيزي، وراكان المجالي، وجمال أبو حمدان، وسالم النحاس، وخليل السواحري، وعيسى الناعوري، ومفيد نحلة، ود.هاني العمد، ود. محمود السمرة، ود. هاشم ياغي، وعبد الرحمن ياغي، ود. فواز طوقان، ومحمود سيف الدين الإيراني الذي توفاه الله في 31

من الشهر المذكور، فكان أول نشاط لهذه الهيئة التأسيسية هو التعزية برحيله عليه رحمة الله.

ولم تمض سوى بضعة أيام حتى أعلنت أسماء الهيئة الإدارية برئاسة الشاعر عبد الرحيم عمر، وعضوية ستة آخرين في مقدمتهم خليل السواحري أمين السر، وسالم النحاس أمين الصندوق، و د. هاشم ياغي مقرر لجنة العضوية التي تضم روكس العزيزي ود. هاني العمد، ومفيد نحلة. وفتح باب الانتساب. وفي يوليو تموز من العام قُبلت عضويتي في الرابطة فكنت من أوائل المنتسبين.

ومن المفارقات التي تجلت في تأليف الهيئة الأدارية، وكانت لها ارتداداتها، أنَّ المرحوم عيسى الناعوري، وكان في حينه معتدا بنفسه من حيث أنه شاعر، وكاتب قصصي، وروائي، وصحفي، أصدر مجلة بعنوان **القلم الجديد**، ومترجم عن الإيطالية، وحائزٌ على دكتوراه فخرية من جامعة باليرمو الإيطالية، وجامعات أخرى، يَظنّ بل يوقنُ أنه الأولى بمقعد الهيئة الإدارية من غيره، ولكن نتيجة التصويت خيّبت آماله، إذ لم يحظ إلا بصوتٍ واحد هو صوته. وأكثر ما أثارهُ أن واحدا كمفيد نحلة، أو هاني العمد، غير مشهور، فاز بعضوية الهيئة، وهو لا، على قدر مكانته. ومن ذلك الوقت ناصب الرابطة العداء. وحاول في غير مناسبةٍ استعداء الدولة عليها، وانتهت مناكفاته باستقالته من الهيئة التأسيسية، ومن الرابطة، وبقي خارجها إلى أن توفاه الله في العام 1985.

دروب أولى

في تلك السنة انطلقت فعاليات ثقافية شعرا ونثرا. فهذا يشارك في أمسية شعرية، وهذا في ندوة قصصية، وهذا في محاضرة. وشرعت الصحف اليومية كالدستور والرأي والدفاع ثم الأسبوعية كالصباح ولاحقا صحيفة الشعب والمجد تتابع هذه النشاط مما لفت الأنظار للرابطة، وانثالت عليها طلبات الانتساب، وتزايد عدد الأعضاء تزايدا كبيرا. وفي هذه الأثناء بدأتُ بجمع ما نشرته من

مقالات عن الشعر. وأعدت فيها النظر لكي تغدو قابلة للنشر في كتاب. وتقدمتُ به لنادري خريجي الجامعة الأردنية بناء على نصيحة من الصديق الفنان عبد الرؤوف شمعون، وكان هذا النادي يرعي بعض النشاط الثقافي، وتقرر دعمه، ونشره، وصدر عن جمعية عمال المطابع التعاونية بعمان بعنوان **الشعر المعاصر في الأردن**. وتضمن مقالات عن أمين شنار ووليد سيف ومحمد القيسي وتيسير سبول وفدوى طوقان وعبد الرحيم عمر وعز الدين المناصرة وآخرين. وعلى الرغم من أن الكتاب صغير الحجم، إلا أن كثيرين عدوه جمّ الفائدة لسببين، هما: أنه أول كتاب يلتفت بالدراسة للشعراء الذين ذكرتهم آنفا، والثاني هو تركيز الاهتمام فيه على الشعر الجديد، فقد كانت الدراسات سابقا تقتصر على الشعراء المحافظين حسب، كعرار، ومحمد سليم الرشدان، ورشيد زيد الكيلاني، وغيرهم من التقليديين، وهذا الكتاب كسر هذا الاحتكار المتحيز للمتقدمين، ونظر بعين الاهتمام للمجدّدين.

وفي العام التالي وفي شعر تموز يوليو 15/ 7/ 1975 أجريت انتخابات جديدة للهيئة الإدارية واختير المرحوم محمود العابدي رئيسا وسالم النحاس نائبا للرئيس وخليل السواحري أمينا للسر وتم تكليفي بأمانة الشؤون المالية.

وفي هذه السنة أضحت الرابطة عضوا عاملا ونشطا في الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، وعضوا في اتحاد الكتاب الأفرو- أسيويين. ولم يخل الأمر من مشكلات لقيتها الهيئة الجديدة. وذلك أن بعض الكتاب كالشهيد علي فودة وغيره أبو على أنفسهم إلا معادة الفريق الجديد، ونشر المقالات، والمقابلات، التي تحط من شأن الرابطة في سنتها الجديدة. وبالمقابل نشطت الهيئة، وعقدت الكثير من الندوات، والمحاضرات، ونشرت عددًا من الكتب لمن لا كتب لهم. وأقامت بعض الأنشطة بهدف جمع التبرعات لتوفير الدعم المالي نتيجة الضغوط التي واجهتها ماليا.

ولم تلبث هذه الهيئة التي انتخبت في صيف 1975 أن شارفت دورتها على الانتهاء في صيف العام التالي، مما استدعى إعادة النظر في النظام الداخلي، وزيادة عدد الأعضاء من 7 إلى أحد عشر عضوًا بمن فيهم الرئيس، وتمديد الدورة سنتين بدلا من سنة واحدة. وتكللت هذه المحاولات بالنجاح على الرغم من أن الفريق الآخر عارض هذه التعديلات. وفي تلك السنة أي 1975 بلغت من العمر نحو 27 عامًا أو تزيد وكان والداي يحثانني كلما قدما من البلد إلى عمان، ونزلا في ضيافة أخي لبضعة أيام، على الزواج. ويعرضان علي في كل زيارة إحدى القريبات، والقريبات في البلدة لا أكاد أعرف أيا منهنّ. وأخيرا تعرفت عن طريق الصديق خليل السواخرى على عائلة من الولجة، تقيم في حي الحسين بالزرقاء لديها فتاة اسمها(هدى) وكانت قد حصلت لتوها على الثانوية العامة. ودعاني لزيارتهم، ولم أتردد. وعندما زرناهم أنا وأبو عروة ورأيت الفتاة للمرة الأولى ذكرتني طلعتها بالممثلة المصرية نبيلة عبيد في فلم المماليك. وهذا شيء كان بالنسبة لي وميضٌ من الانبهار فضلا عن الإعجاب، فأشرت لصديقي أن لا اعتراض لدي.

غادرنا المنزل في وقت متأخر من تلك الليلة، وبعد ذلك بدأنا بالإجراءات وكانت الموافقة من الجميع على الجميع. وهكذا حضر والدي وأمي وشقيقتي خيرية(أم راشد) وأعلنت خطبتي. وفي العام 1976 أي في 13 آب أغسطس أصبحنا زوجين، وأقمنا في شقة صغيرة في جبل المريخ. وبعد زواجنا بأشهر نجحت الأسرة في عانين باستصدار تصريح باسم هدى لزيارة الضفة الغربية عن طريق الجسر مثلما هي العادة متبعة من عام 1967 وكانت شديدة الرغبة في ذلك. وقد سافرت وحدها على أن ألحق بها عندما تسمح الظروف بالحصول على إجازة، ثم على تصريح مماثل لذلك الذي منح لها .

بعد نحو أسبوعين وصلني تصريح مع أحد القادمين إلى عمان، لا أذكر من هو، وبالفعل غادرت عمان متوجها إلى الضفة. وتكررت المشاهد التي سبق لي أن وصفتها في موقع آخر من هذه السيرة . وقد لاقيت من حفاوة الاستقبال ما لا تستطيع الكلمات وصفه. وأفدت من هذه الزيارة باستعادة ذكرياتي الغابرة لا سيما في المدرسة، وفي الأراضي التي كنت قد ألفت التردد إليها صغيرا لا سيما العمائر المشجرة. وبعد يومين عزمنا على زيارة المدن مثل جنين ونابلس وغادرنا أنا وهدى وحيدين. وتوقفنا في كل بلدة. ولكننا كنا في الواقع نرمي ونرنو بأبصارنا لزيارة القدس بصفة أساسية، وقبلها بيت حنينا بلدة الصحفي الكاتب الفلسطيني جاك خزمو(1951- 2020) الذي عرفناه من مجلته الشهرية البيادر السياسي. وقد اهتدينا إلى منزل عائلته، واستضافتنا أمه وأخوات له ولم نجده في المنزل. وبعد انتظار غادرنا البيت معتذرين. وعدنا في طريقنا للبيرة بلدة الشاعر الراحل أمين شنار (1933- 2005) رئيس تحرير الأفق الجديد وصاحب " المشعل الخالد " والأعمال الدرامية المتعددة، وقد جمعت شعره، وقدمت له بمقدمة، وصدرا بعنوان " أمين شنار الشاعر والأفق" 1997، ثم زرنا رام الله، والقدس، التي قضينا فيها ساعات نتنقل من سوق لآخر، ومن حي لحيّ آخر، ومن قبة الصخرة المشرفة إلى المسجد الأقصى، ومن كنيسة القيامة إلى جامع عمر بن الخطاب مشيا على الأقدام. وقد ذُهلنا بما في أسواقها من منتجات تمثل مجسماتٍ، وتحفا، ومأثورات شعبية. و ابتعنا شيئا من ذلك على سبيل التذكار. وكانت هذه الزيارة هي المرة الأخيرة التي شاهدت فيها بيت المقدس. وتجولت في أحيائها وأسواقها وما فيها من الآثار الإسلامية القديمة. وقد خلفت تلك الزيارة في نفسي انطباعا مؤسفا. فقد رأيت المدينة التاريخية العريقة وقد شُوّهت بالبنايات متعددة الطوابق، وقيل لي إن تلك الأبراج السكنية تأوي مستوطنين جاء بهم الاحتلال لخلق واقع ديمغرافي يسمح بتهويد المدينة.

ولم يشغلني الزواج - بصفة عامة - عن متابعة النشاط الأدبي، والثقافي، الشفوي والمكتوب في رابطة الكتاب. وشاركت في الكثير جدا من الندوات والحوارات والاتصالات التي تؤكد حضوري ومساهمتي في الحياة الأدبية سواء بالنشر في الصحف: الرأي والدستور والشعب. أو في المجلات كالموقف الأدبي، والأقلام العراقية، وأفكار، وغيرها من مجلات تصدر في عمان، أو في غيرها من العواصم. وسرعان ما مر العام وآن أوان اجتماع الهيئة العامة لانتخاب هيئة جديدة. وأخترنا لسنة 77 / 78 المرحوم محمد أديب العامري(1907- 1978)- وهو صاحب المجموعة القصصية شعاع النور وقصص أخرى- رئيسًا، وكان رحمه الله قد شغل منصب وزير الإنشاء والتعمير في إحدى الحكومات الأردنية. وهو والد كل من أروى العامري، أستاذة علم النفس في الجامعة الأردنية، وسعاد العامري، مؤلفة الرواية: شارون وحماتي (وتوفي رحمه الله في براغ وهو على رأس وفد الرابطة في اجتماعات اتحاد الكتاب الأفروآسيويين) على أن يكون سالم النحاس نائبا للرئيس، وخليل السواحري أمينا للسر. وكنت عضوا في مشروع تلك الهيئة غير أنني اضطررت للاعتذار عن الاستمرار بسبب سفري في إعارة للمغرب بدءًا من شهر سبتمبر – أيلول من العام 1977.

الفصل الثالث

تغريبتي

كان الصديق الشاعر أحمد المصلح، ابن عصيرة الشمالية، وصاحب الديوان **أصوات من النافذة الغربية** (أبو نضال) قد غادر إربد في صيف العام 1975 إلى المغرب للعمل لدى وزارة التربية الوطنية وتكوين الأطر مدرسا للفلسفة في إحدى المدارس الثانوية بوجدة. وهي مدينة كبيرة، ومركز ولاية، على كثب من الحدود الجزائرية شمالا. وتبعد عن ساحل البحر الأبيض المتوسط نحو 60 كم. وفي صيف 1977 عاد زائرا، وتقابلنا بالصدفة، فقد كان عضوا في الرابطة، ولعله جاء للمشاركة في الانتخابات. وسألته عن ظروف العمل، في المغرب الشقيق، فامتدح لي الحياة في المغرب، وشجعني على الذهاب إن أتيح لي.

وكانت الوزارة قد عممت على الراغبين في الإعارة للمملكة المغربية ضمن شروط معينة أن يتقدموا بطلبات لذلك. وفي ضوء هذا التشجيع زرت الوزارة وتقدمت بطلب، إلا أن مدير شؤون الموظفين اشترط شرطا إضافيا وهو فك انتدابي من التربية لشؤون الأرض المحتلة. فحاولت ذلك، وتكللت المساعي بالنجاح. وبدأت أهيئ نفسي للسفر الذي سيكون في شهر أيلول- سبتمبر من العام 1977. وفي هذا الشهر ستكون زوجتي الحامل بطفلنا الأول في شهرها الأخير. قلت لهدى إن سفر الحامل بالطائرة - إن جاز - لا يخلو من مخاطرة، واقترحت عليها أن تسافر إلى(عانين) وتقضي بقية الشهر التاسع لدى أهلي الذين كانت قد زارتهم من قبل، وأقامت لديهم ثلاثة أسابيع. ثم أبعث بتذكرة سفر لها وتلحق بي. ورحبت بالفكرة، إذ لا يوجد خيار آخر. وأعددنا نفسينا لهذا

الترتيب. وفي ما تبقى من شهر تموز وآب تخلصنا مما لدينا من أثاث، ومن معاملات. واستخرج أهلي تصريحا لهدى، وسافرت هي للضفة عن طريق الجسر، وأنا سافرت للمغرب. وبذلك بدأت تغريبتي التي استغرقت خمسًا من السنين.

فعندما هبطت بنا الطائرة في مطار الرباط- سلا، وانتهى ختم الجوازات وتم تسلُّم الحقائب، صرنا إلى حافلات أقلتنا نحو مدرسة داخلية فيها منامات، وقضينا تلك الليلة، وفي اليوم التالي جرى استقبالنا من موظفي الوزارة في المكان نفسه، واحدا تلو الآخر. وبعد التأكد من سلامة الإجراءات تُعيّنُ الموظفة أو الموظف المركز الذي سيلتحق به المتعاقد، وقد كان حظي مركزا هو مدرسة جديدة في الفقية بن صالح مديرها اسمه الحاج شوقي. وفي اليوم التالي غادرتُ الرباط عن طريق الحافلات التي تتجه منها إلى بلدان أخرى. بدأت مراقبة المشهد من النافذة، وبهرت بالعمران وبالأسواق، وبالشوارع في الرباط أولا، ثم فيما رأيت على طول الطريق التي تقارب الـ 165 كيلومترا. مرورًا بعدد من البلدات منها برشيد، ووادي زم، مثلا، التي يقال إنها كانت منطلقا لحركة مقاومة المستعمر الفرنسي، وقد قرأت عن هذا في رواية **بامو** لأحمد زياد. وما تزال فيها آثار لذلك المستعمر، ومن ذلك كنيسة في وسط البلدة. تذكرت منبهرا ببيئتي الجديدة قول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي شعرا:

وطول مقام المرء في الحيّ مخلقٌ لديباجتيه فاغـــتربْ تَتَجـــدَّدِ

وبعد مايقارب الساعات الثلاث وصلت البلدة، وبحثت عن فندق فوجدت واحدا صغيرا، قضيتُ ليلتي فيه. وفي الصباح طلبت فطورا. وفوجئت باختلاف العادات. فقد جاءني العامل بطبق فيه شيء من الزبدة والمربى وقطع من الخبز أسطوانية الشكل تشبه ما يعرف بخبز الحمام لدينا لكنه مختلف، ويسمونه (قمير) وفيه صلابة، وهشاشة، في الوقت نفسه، والمتبع أن يأخذ المرء

شيئا من الزبدة بوساطة رأس السكين، ويبسطه على قطعة الخبز تلك، ثم يتناول بالطريقة نفسها شيئًا من المربى (الكونفتيير) ويبسطه فوق الزبدة. ومع هذا يوجد كوب من الشاي الأخضر بالنعناع(الوَرْقة). بالنسبة لي لم يكن هذا الفطور مستساغا، ولكن للضرورة أحكامها. فالعادة أن نتناول صباحا الجبن أو اللبنة والحمص أو الفول والفلافل(الطعمية) والبيض. وسألت عن المدرسة(الكوليج)، وقدمت أوراقي، وهكذا بدأت التدريس. كانت المدرسة خاصّة بالمرحلة التي نسميها الإلزامية، وفيها صفوف للإناث، وأخرى للذكور.

من اليوم الأول اكتشفت عددًا من الأردنيين والفلسطينيين والسوريين الذين سبقوني لهذه البلدة منهم سعيد البرغوث، وهو ولجي من سكان الزرقاء، ومنهم احمد الهزايمة من إربد، ومنهم عبد الرحيم السحيمات من الجنوب(الكرك)، ونهاد عودة الله من العباسية وسكان النزهة، وأيوب ابداح رحمه الله. ومنهم سليمان أبو نويرة سبعاوي من سكان الزرقاء. و من السوريين أحمد العيطة، ويوسف قطان، وصهره إسماعيل، ووليد، وفاتح الزغل، وسمير أسود، وكلاهما من إدلب. وثمّة عدد آخر لم أعد اتذكر أسماءهم. وعلى بعد 40 كيلومترا في بني ملال ثمة معلمون أذكر منهم حسن الزعبي، وأيمن أبو العسل، وآخرين.

وقد نشأت بيننا علاقاتٌ أستطيع أن أصفها بالحميمة، والعائلية. ولم يمض إلا شهر واحد حتى كنتُ قد تلقيت من الوطن خبرا بأن زوجتي وضعت طفلة، وقد سموها في غيابي (سنابل) باسم ابنة شقيقتي(خديجة). وأن الولادة تمت بحمد الله بالسلامة واستخرجت لها شهادة ميلاد ذكر فيها أن الوضع تم في مستشفى جنين. وأنا أذكر هذه المعلومة ها هنا لأنها تسببت لي بمشكلة مع دائرة الجوازات بعمان.

فذات يوم أردت أن أجدّد جواز سفري، وأظنها للمرة الخامسة. فأوقفني الموظف قائلا لا بد لك من مراجعة المتابعة والتفتيش. فقلت: ولكنني جددت

جوازي مرارا ولم يسبق أن طلب مني هذا الطلب. فقال لي: ربما كانت لكم بطاقة جسور، وحدق في صورة دفتر العائلة، قائلا: عندك بنت(سنابل) مكان ولادتها جنين، إذن كنتم في العام 1977 في جنين. قلت له: لو أن الأم كانت في زيارة للقاهرة، أو بغداد، ووضعت طفلا هناك، واستخرجت شهادة ولادة، فأين سيكون مكان الولادة؟ فقال لي أعرف أنك تريد القول: إن أمها كانت في زيارة ثم وضعت هناك، وهذا شيءٌ جائز، وطبيعي، لكن لا بد من مراجعة المتابعة. أخذت الأوراق، وذهبت للمتابعة قرب دوار المنهل بعمان، لأجد المراجعين يقفون في طوابير طويلة جدًا، وقلت في نفسي: حسبي الله ونعم الوكيل! ووقفت بضع ساعات حتى حان دوري، وقامت الموظفة بمداعبة لوحة المفاتيح على جهاز الحاسوب قليلا،ثم ختمت المعاملة بخاتم يتضمن عبارة واحدة: المذكور ليس له بطاقة جسور. وهذا الإجراء لم يستغرق منها إلا بضع ثوانٍ ومني بضع ساعات لا ثواني فحسب.

والحكاية تعود أسبابها للمهندس الزراعي سمير الحباشنة الذي اختير وزيرا للداخلية(2004) وفي الأثناء أصدر تعليمات جديدة عُرفت بتعليمات سحب الجنسية. وتقضي هذه التعليمات بعدم تجديد أي جواز سفر أردني منح لأبناء الضفة الغربية التي كانت أصلا جزءًا من الأردن، إلا بعد التأكد من أنه لم يأت للأردن بعد إعلان فك الارتباط في 31 تموز- يوليو 1988 وللتأكد أحدثوا هذه الدائرة للمتابعة والتفتيش. وهذه التعليمات تأذى منها كثيرون، وأدت لتشتت بعض العائلات، وهات يا محاكمات!!

مضت أيامنا الأولى في التعرف على الأصدقاء، وضيافتهم لنا، وضيافتنا لهم من حين لآخر، وبعد أن استقر بنا الوضع، وتأقلمنا، استأنفت اتصالي بالأدب. وفي هذا الطور تملكني إحساس بضرورة التعرف على الأدب المغربي. وقرأت عددا من القصص لمحمد زفزاف(1945- 2001)، وكنت قرأت له مجموعة(**حوار**

في ليل متأخر) صدرت في دمشق عن اتحاد الكتاب العرب 1970. واتفقت في الرأي مع فخري قعوار على أنه من أفضل كتاب القصة القصيرة. وزادني إعجابا بكتاباته عندما قرأت مجموعته القصصية **بيوت واطئة** وروايته **المرأة والوردة ، والأفعى والبحر.** وقد التقيته لاحقا في العام 1988 في العاصمة الليبية طرابلس على هامش مؤتمر" هاجس الحرية والإبداع في الثقافة العربية " الذي نظمه المجلس القومي للثقافة العربية برعاية عبد السلام جلود. وقد كتبت عنه لاحقا عددا من المقالات يجدها القارئ أو يجد بعضها في كتابي **صفوة المجتبي من الأدب المغربي**.

وتتبعت آثار الكاتب المخضرم عبد المجيد بن جلون، ولا سيما كتابه **في الطفولة**، وآثار الكاتب الذي شغل مناصب عدة كرئيس تحرير صحيفة العلم، و عضوية البرلمان عبد الكريم غلاب. وكتبت عن روايته **دفنا الماضي وسبعة أبواب والمعلم علي**، ولاحقا تناولت سيرتيه **سفر التكوين**، و**الشيخوخة الظالمة**. وقد أبلغني المرحوم د. ناصر الدين الأسد بإعجاب الغلاب بما كتبته عن سفر التكوين(1995). وقرأت رواية **الطيبون** لربيع مبارك، وجزءين من **الريح الشتوية**، وغيرها. وكتبت عن (**الطيبون**) مقالا في مجلة أقلام العراقية في الوقت الذي كان طراد الكبيسي رئيس تحرير لها. واطلعت على بعض مصنفات عبد الله العروي، وبصفة خاصة رواياته، ومنها رواية **اليتيم**. وتناولتها في مقال. واطلعت على شعر عبدالله راجح، وأحمد المجاطي، فضلا عن الحبيب الفرقاني، و عبد الرفيع الجواهري. وكتب لعباس الجراري، و إبراهيم السلامي لا سيما كتابه عن **الشعر المغربي في عهد الحماية.**

وقرأت بشغف كتاب عبدالله كنون **النبوغ المغربي في الأدب العربي**. وذلك أننا كنا في عماية تامة عن هذا الأدب إذ في الشرق العربي لا نهتم إلا بالأدب في مصر: شوقي وحافظ وطه حسين والعقاد، وكأن العربية لا وجود لها إلا في

أرض الكنانة، وبلاد الرافدين، وهذا إجحاف. وعبد الله كنون شاهدته بعد سنوات يلقي محاضرة في مجمع اللغة العربية بعمان وإلى جانبه المرحوم عبد الكريم خليفة. وتعمقت في قراءة أعمال إدريس الناقوري في النقد، ومحمد بنيس، شعرا ونقدا، وإدريس الخوري، ولا سيما مجموعته القيمة **البدايات**، وتتبعت أعمال محمد عزيز الحبابي ومنها **الشخصانية**، ورواية **جيل الظمأ**، وديوان شعر (بؤس وضياء) وقد عرفته عن بعد في مؤتمر الجمعية الفلسفية الأردنية الذي عقد في عمان عام 1994. ونظرت فيما ينشرونه في الفلسفة. ومن ذلك بعض كتابات الجابري، وسالم يفوت، ومحمد سابيلا، وترجمات عدة من الأدب والفلسفة والفكر، وقد قال لي المرحوم إبراهيم العجلوني(ابو سلطان) وكان إذ ذاك محررا ثقافيا في صحيفة الرأي: كم من الناس الذين عملوا في المغرب والجزائر وفي دول الخليج كالسعودية والبحرين واليمن والإمارات العربية المتحدة وعُمان: ممن لم نعرف أحدا منهم اكتسب من ذلك شيئا غير المال، أما أنت فقد اكتسبت الثقافة والعلم والمعرفة بالبلد الذي عملت فيه وأفدتنا بما لا تقدر قيمته.

ولا تفوتنا - ها هنا- ملاحظة ينبغي أن تُذكر، وهي أن في المغرب جماعات أدبية بعضها يُعنى ببعض على الرغم من وجود اتجاهات متنافرة. فكانت ثمة مجلة باسم **أقلام** تصدر شهريا ولعلها بعناية إبراهيم بو علو. ومجلة لاتحاد كتاب المغرب أذكر أنها باسم **آفاق**. وإلى جانب هاتين المجلتين مجلة أصدرها بنيس باسم **ثقافة**. والدور الذي تقوم به صحيفتا العلم، والاتحاد الاشتراكي، دور يغني الحوار الأدبي، والثقافي، علاوة على الجدال الفكري. ولم أتوقف في هذه الأثناء عن الكتابة لصحف الدستور الأردنية، والرأي، و مجلة أفكار التي زوَّدتها مرارا برسالة المغرب إبان إشراف المرحوم حسني فريز عليها بمساعدة بدر عبد الحق رحمهما الله. وقد أعجب الأول منهما بقصة قصيرة بعثت بها ونشرت بعنوان **العنف في مملكة القرش.**

أم الربيع

في العام 1978 اقتنيت سيارة، وأصبحت قادرا على مشاركة الزملاء في الرحلات شبه السياحية التي يقومون بها مع عائلاتهم. وعلى بعد 20 أو 25 كيلو مترا من الفقية بن صالح توجد مشاهد سياحية يسمونها اللاشيت. ولعله لفظ أمازيغي أو فرنسي محرف يعني فيما يعنيه الشلالات. ويبدوا أن مهندسين صمموا مصبا لفرع من فروع نهر أم الربيع بحيث يضيق مسار الفرع قرب النهر بجدران إسمنتية ترتفع إلى أعلى عشرات الأمتار قبل أن تندفع بقوة، وتصب في مجرى النهر، فيبدو منظرها خلابا ولا سيما إذا تأثرت بأشعة الشمس. ونهر أم الربيع هذا ينبع من موقع جبلي شاهق يعرف باسم جبال الأطلس الوسطى على مقربة من خنيفرة. وينحدر إلى الجنوب الغربي متابعا سيره، ليصب في المحيط الأطلسي قرب مدينة أزمور، ويبلغ طوله نحو 550 كيلو مترا. وهو عريض في الموقع الذي دأبنا على التنزه فيه، ويشبه البحر. وقد أوحى لي في غير زيارة بقصيدة بعثت بها فورا لمجلة أقلام ببغداد، ونشرت في عدد لم أعد أتذكر رقمه، والقصيدة في ديواني(1984) تداعيات ابن زريق البغدادي الأخيرة. ومنها:

كل شيء يغير ألوانه
ما عدا النهر
والنهر ينشقّ من سجفِ الطين .. والطمي
من شاطئيهِ
وينشق من ضفتيهِ
يعربدُ
ينسابُ
يلتفُّ
تركض أمواجه للمحيط

وقد وجدتُ في بني ملال، التي يزعمون أن اسمها ذا صلة ببني هلال المذكورون ذكرا كثيرا في التغريبة المشهورة، موقعا يبهر الزائر. وهو العين المعروفة بعين السردون، التي قام ولي العهد السابق الأمير حسن بزيارتها في إحدى زياراته للمغرب، وَدُعي بعض المدرسين، واقتصرت الدعوة على من لهم علاقة خاصة بالملحق الثقافي في ذلك الحين على عادته المعروفة، في التفريق بين الناس على أساس أن بعضهم خيار، والآخرين فقوس، قبل أن يغدو الفقوس أكثر غلاءً من الخيار، وأكثر ندرةً. وقيل، والعهدة في ذلك على الراوي أن السردون معناها(البغل). وهي نبع ينبع هو الآخر من مرتفع جبلي شاهق تكسوه الثلوج في الشتاء مدة غير قصيرة. وقد أعدت قنوات إسمنتية عريضة تنحدر فجأة فيما يشبه الشلال وتتدفق في قناة أخرى ثم تنحدر فجأة فيما يشبه شلالا آخر. وهذا يتكرر إلى أن تصبح الأرض منبسطة. وإذا وقفت عند الأخير منها لاح لك منظر خلاب فكأن الشلالات على هيئة المدرج. أما الماء نفسه فشديد البرودة صيفا وشتاءً. ولا ينقطع لا في صيف ولا في غيره. والأشجار التي تنتشر في الموقع عالية وضخمة، وظلالها وارفة، ولا أبالغ إذا قلت إن مجموعة كبيرة من العائلات تستطيع الجلوس في ظل شجرة واحدة. ومحيط ساق الشجرة إذا قيس بالمتر يزيد على بضعة أمتار. والتقدير الأولي في رأيي هو أن أعمار هاتيك الأشجار تتجاوز عشرات السنين إن لم تكن مئات. هذا عدا الزهور، والرياحين، والمنحوتات التي تمثل بعض الطيور، والسباع، التي تزين حواف البرك المستطيلة والمربعة المتناثرة في المكان.

وقد فوجئتُ لدى الزيارة الأولى أن الزائر - أيا كان - لا يدفع مقابل هذه الزيارة سنتيما (فلسا) واحدًا، مع أن هذا المتنزه الطبيعي الباهر لو كان في الأردن - مثلا - لتقاضى الإداريون من وزارة السياحة من الزائر مبلغا كبيرًا قد يضطره للاستدانة، والاقتراض. فسبحان الله كم في الأرض من عجائبَ!!

في العام 1978 رزقنا في سبتمبر أيلول بطفلة ثانية، وسميناها سوسن. وعلى وفق التعليمات النافذة لا بد من إبلاغ الوزارة في الرباط بقدوم أي مولود أو مولودة جديدة. وهو إجراء معتاد لأمر يتعلق بالعلاوة التي تصرف عن كل ابن من أبناء المتعاقد. ويصرف أيضا مبلغ محدود لمرة واحدة تسمى منحة ازدياد، والازدياد بعرفهم هو الميلاد، فإذا سمعت من يقول تاريخ الازدياد فاعلم أنه يعني تاريخ الولادة. ولهذا قررت الذهاب بنفسي للرباط ومراجعة الوزارة واصطحبت معي الصديق سعيد البرغوث. وعندما قدمت للموظف شهادة الولادة سألني ما معنى الاسم سوسن؟ فأجبته نوع من النبات ويتصف بأوراق عريضة ومدببة ويطلع منها زهر ذو لون كحلي. فقال لي: وخّا، سوسان. فاستخلصت أن الفرق بين اللهجة والأخرى هو النبرة فالفتحة يلفظونها ألفا وقد يجعلون الفتحة سكونا. فالنبر في الكلام هو الفيصل بين لهجة ولهجة. وفي طريقنا إلى الرباط مررنا بمكان يسمى الرماني وهي قرية صغيرة محاطة بغابات كثيفة جدا تنتشر فيها الوحوش والظباء وما إلى ذلك من الأوابد التي ذكرها امرؤ القيس مدعيا أن جواده يلحق بها، ويتركها لسرعته وراءة:

وقد اغتدي والطيرُ في وكناتها بمنجردٍ، قيدِ الأوابد، هيكلِ

وشيء آخر لاحظته وحدي، فسعيد يعرف المكان من قبل، وهو كثرة المنعطفات، واتصال بعضها ببعض، فلا يرى السائق السيارة المقبلة ولا يعرف متى ستظهر له ولا سيما في الليل. فهي من أخطر الطرق التي رأيتها في حياتي. أما إذا صادف أن فاجأ السائق ضبابٌ في طقس شبه ماطر، فما عليه إلا التوقف لأنه قد يداهم إحدى الهضبات التي ينتهي بها المنعطف. وقيل إن من ينجو في هذه المتداخلات يحق له أن ينال شهادة سياقة بجدارة دون تدريب سابق أو اختبار قيادة.

وفي العام نفسه انتقل زميلنا نهاد عودة الله وعائلته للعمل في السويرة، وهي تلفظ وتكتب بالسين وبالصاد مثل السراط والصراط. وهي مركز عمالة تحدها شمالا آسفي، وجنوبا عمالة أغادير. ويقال إن الذي أنشأ هذه المدينة على ساحل المحيط الأطلسي هو محمد بن عبدالله العلوي عام 1178 ويبلغ عدد سكانها نحو 80 ألف نسمة. وهي من أشهر موانئ الصيد. ومما سمعته أن مقابلها في المحيط ملتقى تيارات بحرية تصلها بتيارات من الكاريبي، وجزر الكناري، فتجعل مياه المحيط في الشتاء دافئة تتجه نحوها الأسماك فتكثر فيها كثرة تلذ للصيادين. وفي الصيف تغدو المياه معتدلة وتتناوب على شواطئها أسماك أخرى تفضل المياه المعتدلة، ولهذا أقاموا قربها مصانع لتعليب السردين.

ودعانا (أبو عماد) بإلحاح لزيارتهم في العطلة التي بين الفصلين. والذهاب للصويرة يقتضي المرور بمراكش. فالمسافة بين الفقية بن صالح ومراكش نحو 185 كم ومن مراكش للصويرة مثلها تقريبا. ولذلك اتخذنا ترتيبنا أن نمكث يومين أو ثلاثة في مراكش، ثم نتابع. وقد شعرت بالأسف لأنني لم أقرأ كتاب **كنت في مراكش** للقاضي الأردني القاص ماجد ذيب غنما مع أنه فيما أذكر زودني بنسخة منه فيما مضى. وفي هذه المدينة الدافئة في الشتاء الحارة جدا في الصيف، شعرنا بأننا في مدينة عربية قديمة كبغداد، أو دمشق، أو القدس: أسواق مسقوفة، ودكاكين، وحوانيت متراصة تذكرتا بالمشهد الذي وصفته سابقا لخان التجار في نابلس. ولعل أول ما يلفت النظر في مراكش هو صومعة الكُتُبيّة، وهي مئذنة للجامع الكبير – جامع الكتبية - ذات طراز خاص لا يعرف في المشرق إذ تكون المئذنة من برج مربع بزوايا، لا بتصميم أسطواني. وكلما ارتفعت إلى أعلى ضاقت حت تصل إلى منتهى شأو القياس وهو نحو 70 مترا أو أكثر. وفي الرباط نموذج آخر من هذه الصوامع باسم صومعة حسان. وقد شاهدت لاحقا

في إشبيلية صومعة شيدت في عهد الموحدين، جرى تحويلها إلى جَرَسيّة لكنيسة أو كاتدرائية باسم الخيرالدة La Giralda.

جامع الفنا

من لم يقف مطولا في ساحة جامع الفنا- غير مهموز- بمراكش، كأنه لم يزرها قط. وقد استغرقت الفرجة في تلك الساحة ساعات لم ندر، ولم نشعر بها، كيف، ومتى مرت. إذ وجدنا أنفسنا أمام بانوراما للتسلية والتشويق والفرجة. فبعضهم يمثل تمثيليات وحوله المتفرجون. وآخر يتلو على السامعين حكايات عن حمزة البهلوان. وآخر يرقّص الأفاعي على وفق لحن معين تعزفه آلة موسيقية كالدف. وسائحون يتجولون، وباعة الحلوى، والتحف، والملابس، والتذكارات، ومتسولون يحملون على أكتافهم صغار السعادين، وما شابه ذلك. وإلى هذا ثمة من يلعبون ألعابا تشبه المقامرة. ولكي ترى ذلك كله، وتعرف بعضه إن لم يكن جله، تحتاجُ لساعات. وكنت قد قرأت في بعض الكتابات أن بعض المسرحيين ومنهم الطيب الصديقي، الذي أخرج نصوصا من مقامات البديع، وجعلها مسرحا كوميديا، قد أفاد من هذه الطقوس التي تمارس في ساحة الفنا بلا انقطاع.

ولا أذكر الوقت الذي قمنا فيه بزيارة قبور السعديّين. وهم أسرة حكمت المغرب مدة من الزمن تمتد من العام 1510 إلى 1660 ومؤسس دولة هذه الأسرة هو القائم بأمر الله السعدي. وفي زمن السعديين ظلت مراكش هي العاصمة، وحاضرة الملك، بعد فاس، وقبور السعديين آيات في الهندسة المعمارية، والزخرفة، والنقش، والتزيين بالفسيفساء، والزليج، والتعريقات النباتية، والتوريق، مع ما في ذلك من سحر الألوان، فضلا عن الكتابات الرائعة بالخط الأندلسي الذي يميز المغرب، ويضفي على خطاطيه طابع الشخصية المستقلة عن المشرق.

وعندما انتهينا من زيارة هاتيك القبور، وهممنا بالمغادرة، رأينا سيدة تجلس القرفصاء إزاء قبر خارج الروضة، وعند القبر ينهض نقشٌ قرأنا فيه أنه قبر مؤسس دولة المرابطين يوسف بن تاشفين(400- 500هـ). وقد ذُهلت لطول القبر، وظننته قبرين لا واحدا. وتساءلت عما إذا كان ابن تاشفين عملاقا لهذه الدرجة. ولم تفدني المراجع التي اطلعت عليها لاحقا بذكر صفة من صفاته على هذا النحو. لكني عرفت من سيرته أنه كان على صرامته شجاعا. فقد انتصر على الفرنجة في الأندلس، وأطاح بملوك الطوائف، وضمها للمغرب منشئا بذلك امبراطورية المرابطين. وممن قضى على ملكهم الأمير المغرور في حينه المعتمد بن عباد، ونفاه إلى أغمات قريبًا من مراكش. ومن الدلالات على بأسه، وشجاعته، أن بعض مستشاريه اقترحوا عليه بعد أن أتم إنشاء المدينة المعروفة باسم مراكش أن يحيطها بسور على عادة المدن الأخرى، فأبى ذلك، قائلا: تلك المدن كانوا يخشون عليها من الأعداء، أما نحن فلا نخشى أحدًا غيرالله. وتبعا لذلك، فإن السور الذي يحيط بها الآن أنشيء بعده. وقد أوحت زيارتي لمراكش، وما شاهدته فيها، وما فيها من القباب والمآذن، وما حضرني من حنين إلى القدس، بقصيدة نشرتها في الديوان الذي ذكرته سابقا أولها:

إن مراكش الآن تدخلني
وأنا طارق بابها
حمرة الورد من لونها
قلعة الموت أسوارها
وأنا شاحبٌ، حاملٌ في فمي
غيمة من غبار
غصة من زمان بطيء النهار

قصر البديع

كنت قد قرأت في مقرّر مدرسي درسًا عن قصر البديع بمراكش، وما احتواه من بديع النقش والزخرف. وأحببت أن أنتهز الفرصة وأهتبلها لمشاهدة هذا الأثر التاريخي المعماري الفريد. وتوجهنا في اليوم التالي لهذا الأثر. وقصر البديع بناه السلطان السعدي أحمد المنصور بعد توليه ببضعة أشهر، واستغرق بناؤه نحو 15 عاما إذ ابتدأ في العام 1578 م وافتتح في العام 1593. ويقال إن تسميته بهذا الاسم نسبة لأحد أسماء الله الحسنى. وفي رواية أنه سمي بذلك نسبة لوفرة ما فيه من الزخارف، وعلى ذلك يكون لِبْديع وهو الاسم الذي يطلق على نوع من الزخرفة، وقد جرى تعديله فسمي بقصر الباهية. ومساحته كبيرة وتوجد فيه بركة مستطيلة. وهو بصرف النظر عن التسمية، يعد من مفاخر الآثار الإسلامية في المغرب. وقد تجولنا في أروقته وآثاره. ويظن أنه تعرض إما لهزة تهدمت على إثرها بعض الجدران، والمقاصير، أو تعرض لاعتداءات في الصراعات والحروب التي كانت تدور بين المتنازعين على عرش المغرب. وبعد الانتهاء من تلك الزيارة التي لا تنسى تابعنا مسيرتنا إلى الصويرة.

وأقمنا في ضيافة أبي عماد أياما تعرفنا فيها على سوق يختص بالنحت على خشب العرعر. وفيه الكثير من الأعاجيب. فهم ينحتون أطباقا وأواني من الخشب المعرق تعريقا طبيعيا تكشف عنه عملية الصقل بمادة من زيت أرغان. والجولة في هذا السوق من أروع ما يستمتع به المشاهدون. كما اعتلينا الأسوار الضخمة. وشاهدنا المدافع القديمة المركوزة على الأسوار، وهي التي كانت تستخدم في التصدي لغزو البرتغاليين تارة، وقراصنة البحر تارة أخرى، وفي المقابل ثمة جزيرة كانت تستخدم سجنا للأسرى. واللافت للنظر أن الصويرة على الرغم من أنها مركز اقتصادي مهم على شاطيء الأطلسي، يبدو أنها كانت ثغرا للدفاع عن جنوب المغرب في مواجهة الغزو.

ذات صيف على الشاطئ

في صيف ذلك العام اقترح علي البركة، وهو صديق مغربي كانت لنا علاقة به، وبعائلته فاطمة، وابنائه، ولا سيما طارق، أن نمضي أسبوعا أو اثنين في الدار البيضاء على شاطئ البحر. وابتعت لهذا الغرض خيمة من أحد المغادرين الفرنسيين الذين انتهت مدة عملهم في الفقية بن صالح، وغادرنا. وفور وصولنا اختار لنا موقع مخيم قريب من المكان المعروف بعين الذياب، وهو منتجع يؤمه السياح في الليل وفي النهار، وفيه كل ما تشتهيه العين والأذن. أقمنا الخيمتين الواحدة بجانب الأخرى، ولكن خيمتنا كانت ذات نوافذ بلاستيكية، وأرضية تقوم مقام المصطبة، وعلى محيط الباب سحّاب، ونستطيع إغلاقه بإحكام في الوقت الذي نريده. سعدنا بتلك النزهة أنا وهدى والبنتين سنابل وسوسن، مع أنهما كانتا (تدبّان) الصوت عندما نجبرهما على العوم في ماء البحر. وكانتا فرحتين ببناء البيوت من الرمال ثم هدمها.

وكانت ثمة فتاة ربما لم تبلغ العشرين من عمرها ترتدي (ميوه) من قطعتين برتقالي اللون. شاهدتها مرارا وهي تسبح فجذبني ما هي عليه من رشاقة البدن، ولون البشرة الفاتح الذي يجعلها تتألق كلما خرجت من الماء كأنها حورية من حواري الفردوس. وعلى رأسها شيء يشبه القبعة. وفي الصباح كنت أراها تتريض وتركض على ساحل البحر كأنها تسابق أحدا غير موجود، وكلما ابتعدت مسافة عادت من جديد لموقع قريب من الخيمتين. أعجابي بها ذكرني بمن رأيتهم يسبحون من أبناء عكا في صيف 1973 عندما زرت البلاد وتجولت مع والديَّ في شمال فلسطين، وزرنا حيفا وعكا والناصرة مرورا بمعظم القرى والبلدات في الطريق بدءا من العفولة وانتهاءً بيافا عند العودة وأم الفحم. ففي عكا رأيت مشهدا اغرورقت عيناي له بالدموع من التأثر، فالبحر الممتد أمامي وأبناء المدينة العربية المتداعية يسبحون ويتراشقون بالماء. تمازج هذا في خيالي مع هذا المشهد

في ساحل المحيط الأطلسي، فكتبت قصة بعنوان " ذات صيف على الشاطئ". تقوم القصة على فكرة الجمع بين مشهدين متوازيين أحدهما يجري تذكره في فلسطين، والآخر تجري معايشته في الدار البيضاء على مقربة من البحر.

بعثت بالقصة لمجلة المعرفة بدمشق، وكانت تحت إشراف القاصّ المعروف زكريا تامر صاحب دمشق الحرائق، والرعد، وصهيل الجواد الأبيض، بصفته رئيس التحرير. ودون أن يبلغني بوصول القصة، وإذا بها بعد عددين منشورة في المجلة في العدد ذي الرقم224 تشرين أول – أكتوبر 1980 ص 103- 117 ثم نشرتها في مجموعتي القصصية التي صدرت في العام 1982 عن رابطة الكتاب الأردنين بعنوان **من يذكر البحر**. ولا أشكّ في أن هذه القصة ناجحة، وجيدة، وقد اطلع عليها أحد المغاربة في حينه، وقال لي إنها جيّدة. والسبب بطبيعة الحال يعود لكونها نابعة من تجربة مررتُ بها، فالقارئ حين يطلع على القصّة يحس- بلا ريب - بأنها تعبر عن تجربة حقيقية، وصادقة، عاشها المؤلف مع أنها كتبت على لسان الراوي، وبطلها متخيّل، وليس المؤلف. أقول هذا لأن كثيرين يكتبون قصصًا، ولا سيما قصصًا قصيرة جدا، لا مكان فيها للتجارب، ولا للإحساس، ولا للشعور بدفء الحكاية، ومصداقية المشهد السردي.

بعد مغادرتنا المخيم، واصلنا طريقنا باتجاه الرباط، ثم سلا، ومررنا عن نهر أبي رقراق الذي يفرق بين المدينتين، فالقنيطرة، مدينة محمد زفزاف الذي كتب فيها قصصه القصيرة قبل أن يغادرها للدار البيضاء. ثم للعرايش وهي من أكثر المدن جمالا وبهاءً، ثم إلى طنجة، التي كتب فيها محمد شكري الكثير من القصص. وأقام فيه جان جينيه مفتونا بسحرها الذي لا يدانيه سحر، وبجمالها الفاتن الذي لا يقاربه جمال. وفي طنجة التي أقمنا فيها أياما تسلقنا جبلا بالسيارة لبضع دقائق وبضع كيلومترات(14كم) حتى وصلنا للذروة التي تعرف برأس بارطيل. في هذه الذروة ثمة غابة، وأماكن للتنزه، ومقهى، ومطعم، ومنارة، وجلّ

ما يحتاج له المتنزه في موقع بعيد عن المدن. ومنه يطل المرء على إسبانيا، ويرى مضيق جبل طارق، والبوغاز الذي يفصل العدوتين رأي العين. شيء كنا نقرأ عنه، ونحفظُ في دروس التاريخ والجغرافيا، لكننا الآن نشهده عياناوليس بالقراءة. ومن هذا الموقع يرى المتنزهون تداخل مياه البحر الأبيض المتوسط في مياه المحيط كما لو كنتَ ترى سهما ينتظم شيئين متباينين مختلفين، فتذكرت قوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخٌ لا يبْغيان) (الآيتان 19 و20 من سورةالرحمن).

وفي رأس بارطيل هذا مغاور يزعم الرواة أنها مغاور هرقل الذي يتردد اسمه في الملاحم والأساطير والأفلام الأجنبية. وهي كهف يمتد نحو ثلاثين مترا داخل الجبل وهو منحوتٌ في الصخر، ويبدو عليه الإهمال، وقد نسجت حوله قصص وأساطير. ويزعم الزاعمون أيضا أن سبب فصل القارة الأوروبية عن أفريقيا بالمضيق يعزى لخطوة هرقل، فكانت إحدى قدميه في البر الأفريقي والأخرى في البر الأوروبي. ولا ريب في أن هذا من الخرافات التي نسجت حول هذا البطل الذي خُلعت عليه في بعض الملاحم، والأساطير، صفات الآلهة.

وقع هذا في صيف 1979 وفي آذار من العام الذي يليه وضعت هدى طفلة ثالثة سميناها منالا باسم ابنة صالح شقيق هدى المقيم في تل منين بدمشق مع عائلته أم عادل وأبنائه محمد ومحمود ونضال. وفي الصيف عدنا إلى عمان على سبيل الزيارة. وكان إخوتي في عائين وأهلي عموما قد اقترحوا استخراج تصريح سفر لهدى وللبنات كي يزرن البلد ويقضين بعض الوقت هناك. وغادرن للبلد مع بعض المسافرين. وفي الأثناء شاركت في بعض الأنشطة الأدبية وأثبتّ حضوريا مشاركتي في انتخابات رابطة الكتاب الأردنيين التي تألفت هيئتها الإدارية من ائتلاف الاتجاهين المعروفين فيها برئاسة د. عبد الرحمن ياغي، وعضوية خليل السواحري، ومحمود شقير، وإبراهيم العبسي، وآخرين.

والمؤسف أن ابنتنا منال عند العودة، وبسبب الحر في موقع الجسر، والازدحام، و طول الوقت، إذ يغادرون البلد في الصباح ولا يصلون إلا في المساء لكثرة الإجراءات المملة والمزعجة، بسبب هذا كله عرض لها شيء من العياء والتعب، وهي ما تزال لم تتم الشهر السادس من العمر، وظننا أن الأمر بسبب السفر لكنها ازدادت عياءً، وتعبًا وارتفاعا في درجة الحرارة مما استدعى أخذها لمستشفى الحاووز في الزرقاء. وذلك لأننا كنا قد حللنا ضيوفا في بيت نسيبي (أبو صالح) المعروف بالولجي في حي الحسين. وعلى الفور أجرى لها طبيبُ الأطفال وجيه حدادين فحوصًا وأخبرنا أن لديها جفافا، وهذا كثيرا ما يصيب الأطفال في هذه السن. وطلب منا أن نوفر لها وحدة دم، قال ذلك فيما كان يمر عامل مصري من الذين يطوفون في المستشفيات بحثا عمن يحتاج لمتبرع بالدم، فسمعه، وعرض علينا أن يقوم بالتبرع. وتوفرت وحدة الدم، وقال الطبيب بعد إعطائها الوحدة ينبغي أن تظل تحت المراقبة لصباح الغد. وفي اليوم التالي غدونا للمستشفى مع شروق الشمس للإطمئنان عليها إذ لم تكن أجهزة الاتصال منتشرة مثلما هي منتشرة في هذه الأيام. ووجدناها قد تحسنت كثيرا، وكتب لها خروج وازداد وزنها في الأيام التالية.

وفي السنة 1980 /81 جرت تغييرات في المدراس، ونقل بعض المدرسين، وعين مديرون جدد، وتقرر نقلي من الكوليج إلى الليسيه المعروفة باسم ثانوية الكندي. وعهد إلي بتدريس طلبة البكالوريا. وهم الذين يتقدمون في نهاية العام لامتحان قطري على أساسه يتقرر الناجح من الراسب في التعليم الأكاديمي. والناجحون منهم تلتزم الدولة بتأمين مقاعد لهم في المعاهد والجامعات والذين لا ينجحون فيه يتوجهون لمعاهد مهنية أو أي شيء يريده، أو يعيد تقديم الامتحان مرة أخرى. وقد عرفت بين الطلبة من أعادوه مرارا دون أن يظفروا بالنجاح. وقد اتخذت الثانوية ترتيبا يقضي بأن يكون الطلاب الذين يعيدون الدراسة بعد

رسوبهم في شعب منفردة عن باقي الطلاب كي لا يتأثر الطلبة الأذكياء بالأغبياء. وهؤلاء في العادة يتغيبون كثيرا مما يجعل تدريسهم سهلا يسيرا على المدرس.

زمن الوصل

ومع اعتذاري الشديد لكاتب المسلسل التلفزيوني المذكور " زمنُ الوصل " الراحل جمال أبو حمدان أسمح لنفسي باقتباس العنوان(زمن الوصل) عنوانا لهذه الفصلة من سيرتي، فقد وجدت في هذا العنوان اسما على مسمى، وهو أصلا مقتبس من موشح لسان الدين بن الخطيب:

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمـان الوصـــــل بالأندلسِ

وكنت قد سمعت أحد الزملاء يتحدث عن رحلته مع عائلته إلى إسبانيا. وتحدث عن مشاهداته التي تسلب العقل في قرطبة وإشبيلية وغرناطة وختم أقواله قائلا: قليل عقل من يقيم في المغرب ولا يزور الأندلس. وعلقت بيني وبين نفسي بل أكثر من ذلك، فهو كما قال الشاعر: لا عقل له. ولذا أزمعت على الارتحال لإسبانيا مع عائلتي. واستفسرت عن المعاملات فقيل لي إن المقيمين في المملكة المغربية من الجنسيات الأخرى ينبغي عليهم الحصول على تأشيرة (فيزا) من السفارة الإسبانية في أكدال بالرباط. عدا عن ذلك لا يتطلب الأمر سوى تذكرة العبور بوساطة السفينة (العبارة) مقابل مبلغ مالي معين كأنه 200 بزيتة عن كل شخص ومثلها عن السيارة.

ولأنني كنت أعرف الطريق من الفقيه بن صالح إلى طنجة مرورا بالرباط، فقد توكلت على الله في شهر آب ثاني أيام عيد الفطر 2 شوال 1401هـ متأبطا في جعبتي مطوية تتضمن خريطة تفصيلية لإسبانيا. بتنا في طنجة وفي اليوم التالي قصدنا سبته، وما هي إلا دقائق حتى كنا في إسبانيا لأن سبتة من الأرض المغربية وتحت الإدارة الإسبانية هي ومليلة. وكلتاهما على شاطئ المتوسط. وعلى الرغم من صغر مساحة سبتة، إذ لا تتعدى شارعا واحدا يخترقها من الغرب إلى

الشرق في موازاة ساحل البحر المطل على مضيق جبل طارق، إلا أنها من المدن التي تعاني كثافة سكانية كبيرة، إذ يبلغ عدد سكانها نحو 85 ألف نسمة. وهم خليط من العرب المغاربة، والإسبان. ويقال: إن الإسبان احتلوها هي ومليلة في أواخر القرن الخامس عشر. ويطالب المغرب منذ الاستقلال 1956 باستعادة السيادة على المدينتين بلا فائدة.

وقصدنا الميناء، وابتعنا التذاكر، وعندما حان موعد الإقلاع فتحت أبواب العبارة، فإذا مكان فسيح لاصطفاف السيارات بما فيها من الأمتعة. وترجلنا من السيارة. وإذا ثمة سلم داخلي يصعد بالركاب إلى الطابق الثاني من العبارة حيث الناس تجدهم جالسين يتحدثون أو يتناولون طعاما أو شرابا في انتظار الوصول إلى البرِّ الثاني. ولا أدري كم من الوقت مر حتى طُلب منا أن نتهيأ لمغادرة العبارة. فنحن في المكان المعروف بالجزيرة الخضراء. وهي الرأس المطل من إسبانيا على البحر، وفيها مرفأ يستقبل السفن. في هذه الجزيرة الخضراء توقف أبو عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس، وزفر زفرته الأخيرة، مودعا مملكة الآباء والأجداد، وقد سمى الفرنجة هذه البقعة باسم زفرة العربي الأخيرة. وإلى هذا يشير محمود درويش في قصيدته المشهورة **أحد عشر كوكبا على المشهد الأندلسي** التي حاول المتوكل طه السطو عليها فيما يظنه قصيدة نشرها بعنوان " نقوش على جدارية الخروج إلى أبي عبد الله الصغير وتسليم غرناطة ":

أنا واحدٌ من ملوك النهاية
أقفز عن فرسي في الشتاء الأخير
أنا زفرة العربي الأخيرة
لا أطلّ على الآس فوق السطوح ولا
أتطلع حولي لئلا يراني هنا
أحدٌ كان يعرفني.

بعيد الجزيرة الخضراء في اتجاه الغرب تقع أول بلدة واجهتنا. وقرأت عند مدخلها كلمة بالأحرف اللاتينية Tarif تذكرت هذا الاسم لسببين، أولهما أنها بلدة مشهورة في تاريخ الأندلس، وقد شهدت معارك في مراحل زمنية متعدِّدة، وثانيا لأن الظنون تقودنا لتصور بلدة أخرى في فلسطين بهذا الاسم، وإليها تنسب عائلة معروفة وهي عائلة الطريفي، التي لمع منها مخرج مسرحي مشهور هو خالد الطريفي(توفي عام 2023) وإليه يعزى تأسيس فرقة الفوانيس للمسرح. وينسب لها السياسي الفلسطيني جميل الطريفي(توفي 2022) الذي شغل منصبا وزاريا في السلطة الفلسطينية برام الله. والاسم الدقيق لهذه القرية دير طريف، وتقع على مسافة 17 كيلومترا إلى الشمال الشرقي من الرملة، ولا تبعد كثيرا عن اللد، وقد هجّر سكانها تهجيرًا قسريا عام 1948 وعددهم يربو على 1700 إنسان. وفي السعودية توجد مدينة باسم طريف. ويعتقد أن طريف التي نروم النزول فيها من إنشاء طريف بن مالك المكنى بأبي زرعة - أحد قادة الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية(91هـ) - وهو أول من دخل المكان، فلما أنشئت على عادة العرب في فتوحاتهم لإقامة الجند أطلق عليها اسمه، ثم عرفت اختصارا بطريف. حللنا فيها قبيل أذان المغرب بقليل كانت الطيور تحلق في السماء، وقد أخذت الشمس بالتواري. وبدت قامات النخيل في مركز المدينة عالية حتى كأنها تجاذب عنان السماء على رأي ابن خفاجة الأندلسي. تذكرت في تلك اللحظة نخلة عبد الرحمن الداخل الأمير الأموي الذي نجا من عسف العباسيين في العراق، واستطاع وحده أن يقيم دولة موحدة في الأندلس استمر ورثته في حكمها نحو ثلاثة قرون:

تراءت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي بالتغرُّب والنوى وطول التنائي عـن بنيَّ وعن أهـلي

وجدت في البيتين لسان حالي. أعبر بيني وبين نفسي عن مشاعر الحنين وأنا أحدق بالنخيل متعجبا كيف تأتي لهؤلاء الأعراب أن يصلوا من الشام ومن الجزيرة إلى هذه البقعة النائية من العالم القديم على متون الإبل وصهوات الجياد، وينشئوا مثل هذه البيئة التي ملأوها بالنخيل والعمران، وهم الآن يشبهون حشية قش يتدرب عليه هواة الملاكمة من هولاكو إلى أحقر الناس من الطغمة الفاشية في تل أبيب. وظللت أعالج هذا الإحساس مرة تلو الأخرى حتى كتبت ما أعده فيض خاطر أكثر منه نظم شاعر:

من هنا عبروا
زرعوا في طريف
نخلةً
نخلةً
وهي ليست بأرض النخيل
كأنكِ من نجد
أو من نخيل العراق
حملتِ ليَ الشرق في خُضرةٍ والزمان
حكاية حزن لها أولٌ
وليس لها آخرٌ
والمكان
سجل لكل قطيرة دمْ
كانت تراق

كتبتها في الثالث من شوال 1401 وهي بعنوان **حوار مع نخلة أندلسية**. بعيد الاكتفاء بزيارة طريف وهي صغيرة والآثار فيها قليلة ونادرة لا تتعدى بعض الحصون. تابعنا المسير في اليوم التالي إلى عاصمة بني عباد (إشبيلية)

والخريطة التي بحوزتي تحتوي على إشارات مساعدة. فرسم الخيمة ينم على موقع مخيم، وغالون البنزين ينم على وجود محطة وقود، والشوكة والسكين ينمان على وجود مطعم أو كافتيريا. وعندما بلغنا إشبيلية دخلنا أول مخيم صادفناه. وهذه الطريقة في النشاط السياحي في إسبانيا مريحة جدا، فبدلا من البحث عن الفنادق، وتكبد خسارة مالية كبيرة، تستطيع باستخدام المخيم توفير الكثير. والمخيم في العادة يحتوي على مرافق في غاية الأناقة: حمامات تسهر على تنظيفها عاملات ليلا نهارا. ومخبز وسوبر ماركت تجد فيه كل المتطلبات من مشروبات ومأكولات. و أمكنة لاصطفاف السيارات، وحراسة، ومكتب للمراجعة والاستلام والتسليم والمحاسبة.

وأول ما يهرع إليه زوار إشبيلية هو رؤية الصومعة المعروفة باسم الخيرالدة التي ذكرتها آنفا. ثم الكازار، وهو قصر الأمراء من معتضد ومعتمد من أبناء عباد. وهم أسرة من أمراء الطوائف الذين حكموا الأندلس مدة من الزمن. والمعتمد بن عباد هو الذي ذكرته سابقا، وذكرت أن يوسف بن تاشفين(500هـ) أسره ونفاه إلى أغمات على كثب من مراكش، وهو الذي عناه الشاعر بقوله:

لا تمدحنَّ ابن عباد وإن هطلت يداه بالجود حتى شابه الديما
فإنها خطـــراتٌ من و ساوسـه يعطي ويمنع لا جودا ولا كرما

وكان المرحوم عبد الوهاب عزام قد كتب عنه كتابا ونشره بعنوان المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزّأ. وصنف آخرون كتبا عنه وعن شعره. وحُقق ديوانه ونُشر غير مرة. ويذكر أن دولة بني عباد قامت في إشبيلية سنة 414هـ . واتسعت فشملت قرطبة، ومرسية. ودام حكمهم نحو 70 سنة. وقد اجتمع له في البلاط كبار الشعراء ومنهم ابن زيدون وابن اللبانة وابن حمديس.

حمص الأندلس

أما إشبيليةSevilla فهي حاضرة إقليم الأندلس (أندلوثيا) وكان العرب يسمونها حمص تشبيها لها بمدينة حمص في سورية. و يعزو بعضهم هذه التسمية لكون الذين استقروا فيها من الفاتحين جاءوا من الشام، واحتفظوا بذكرياتهم عن حمص بهذا. ويشق المدينة نهر يعرف باسم نهر الوادي الكبير. والمعلم البارز في هذه المدينة الذي لا بد من مشاهدته لأنه يلتقي بأنظار الزوار من بعيد هو منارة الخيرالدة التي بنيت في زمن المسلمين. وكانت المئذنة لجامع إشبيلية الكبير غير أن الفرنجة حولوا ذلك الجامع إلى كاتدرائية واضافوا لتلك المنارة بعض الإضافات التي أفسدت- مثلما يقال - المشهد العام للمبني. وتصميم هذه المنارة مشابه جدا لصومعة حسان في الرباط، ولمنارة الكتبية في مراكش. ولا مناص من مشاهدة قصر دويناس الذي شيد زمن المرابطين. وثمة قصر آخر للمعتمد وهو ايضا على الطراز المعماري الأندلسي حيث البناء والماء والشجر والنباتات التي تغطي الجدران وتكسو الأسوار وحفافي البرك والمسابح. على كثب من ذلك كله ثمة متحفٌ تعرفنا فيه على الكثير من التماثيل التي صيغت بالمعادن الثمينة لكولولمبوس. ومن إشبيلية بعد تجاوز الجسر المستلقي مثل أفعوان على الوادي الكبير تأخذنا الطريق المعبدة إلى حاضرة الأندلس في أيام الأمويين وهي قرطبة التي كتب عنها لوركا أفضل شعره:

أواه
الموت يترصدني
قبل أن أبلغ قرطبة
قرطبة
نائية ووحيدة

تربط إشبيلية بقرطبة طريقان، إحداهما عادية تمر بغير قليل من القرى والبلدات وأخرى سريعة (اوتوستراد) ففضلنا هذه الطريق كسبًا للوقت، فقد أضعنا يومين في طريف وإشبيلية. وفي الطريق فوجئنا بحاجز، وفيه موظف يطل من النافذة، ويطلب بالإشارة ضريبة استخدام هذا الشارع. وبعد وقت استطعنا أن نفهم منه ما يريدهُ. ونقدناه ما طلب، ونحن نعجب أشد العجب. ومضينا في طريقنا، وقبيل دخول المدينة استقبلتنا أشجار النخيل الممتدة في السمت. ونظرنا في الخريطة فإذا في محيط المدينة أكثر من مخيم. واخترنا واحدا على وفق الإشارات الأيسر والأقرب. كان مخيما راقيا كذلك الذي غادرناه في إشبيلية. مدخل مرتب ومكان لاصطفاف السيارات. حراسة وسوبر ماركت يبيع ما يحتاج إليه المصطافون. مكتب.. مكان للأطفال للعب واللهو. في الصباح غادرنا المخيم متوجهين لرؤية جامع قرطبة الكبير.

في هذا المسجد مشهدان يأخذان باللب، الأول منهما صحن الجامع حيث الصلوات كانت تؤدى، وهو إلى جانب الاتساع الذي يضيق عن استيعابه الخيال ثمة أعداد هائلة من الأعمدة المصقولة من المرمر. وهي أعمدة فردية لا مزدوجة موزعة توزيعا هندسيا متناظرا. وفوق كل عمودين من تلك الأعمدة كثيرة العدد(800 عمود) قوسان أحدهما فوق الآخر، وأولهما على هيئة حذاء الفرس. وهو من الداخل متدرج بانتظام دقيق فحجر أبيض بجانبة آخر قرميدي فاتح، وفوق هذا القوس قوس آخر، ولكنه أصغر قليلا، وبالهيئة ذاتها. وما إن يدخل الزائر إلى الصحن حتى يظن نفسه في غابة من الأعمدة التي تذكره بغابات النخيل في العراق. ويقال: إن صقر قريش عبد الرحمن الملقب بالداخل هو الذي شرع في بنائه. وكانت الغاية من هذا البناء الواسع الكبير مضاهاة الجامع الأموي في دمشق، والأقصى في القدس. وقد بدئ ببنائه سنة 170هـ وتوفي الداخل بعيد ذلك بسنتين 172هـ ولذا أخذ خلفاؤه على عاتقهم تكملة ما بدأ به. فقد

أضاف عبد الرحمن الأوسط (176- 238هـ) توسعة تلتها توسعة أخرى على يدي الحكم المستنصر(302- 366هـ)، ومن إضافاته المحراب الذي يعرف باسمه (محراب المستنصر) وباب السيباط وهو المدخل المسقوف الذي يعد أعجوبة من أعاجيب الفن، وقام الحاجب المنصور(327- 392ه) بزيادة توسعة في عهده. أي أن بناءه على ذمة الرواة استغرق مدة غير قصيرة من الزمن.

بعد سقوط قرطبة بيد الإسبان في القرن السابع الهجري، قاموا بتحويل الجامع إلى كاتدرائية، وسموها كاتدرائية سيدة الانتقال اعتمادا على ما كان في موقع الجامع قبل الفتح الإسلامي. إذ تقول الروايات إن عبد الرحمن الداخل حين اختار هذا الموقع لبناء الجامع كانت فيه آثار كنيسة. وإلى هذا العهد يسمي الإسبان الموقع (موزكيتا) وهي كلمة محرفة عن العربية بمعنى مسجد. ويتألم الزائر المسلم لمرأى المنبر الذي أعد لوقوف الإمام ملقيا منه خطبة الجمعة، فقد تحول إلى مذبح وفقا للطقوس الكنسية المسيحية. وعلى الجدار ثمة لوحة كبيرة بالألوان تصور تسليم مفاتيح المدينة لقائد الفرنجة في ذلك الحين سنة 633هـ. ويبدو في مقدمة اللوحة عربيٌ بردائه الشرقي، وبشرته شبه الداكنة، وذقنه الشهباء، وعمامته التي تنم عن أنه مسلم، وقد انحنى قليلا، وفي يده طبق عليه ما يشبه المخدة، وفوقها مفتاح ضخم يقدمه للغازي في رمز لاستسلام المدينة، بينما ملك قشتالة فرناندو الثالث (1199- 1252) يشمخ بوجهه في غرور المنتصر، وهو فوق جواده الأبيض. تلك اللوحة التي تغطي جدارًا بأكملة من الحائط إلى الحائط تجعل الزائر إن كانت لديه ذرة من الإيمان يذوب ألما على ذلك الماضي وحسرة.

بعد أن أشبعنا فضولنا من المسجد وأفنائه وأعمدته، وما فيه من ضروب الزخرفة، والخطوط، والهندسة المعمارية، وفنون التعريق، والتوريق؛ لا بد من أن نتسلق الدرج الذي يفضي إلى رأس المئذنة الذي تحول للأسف إلى جرسية. عند وصولنا للذروة رأينا جرسًا معلقا لا نبالغ إذا قلنا إن وزنه يربو على الطن.

وثمة أجراس أخرى بالطبع قيل إن هذا هو أحد الأجراس التي كانت تقرع فيما مضى، لكنه الآن لا يعدو كونه أثرا يحافظ عليه في مكانه مثلما يحافظ على سائر الآثار. ومن قمة هذه المئذنة- الجرسية- رأينا فيما يشبه الرؤية البانورامية مدينة قرطبة بامتدادها المهيب، وبيوتها المقرمدة، وما فيها من البساتين والحدائق والجنائن، وما يحيط بها من أسوار قديمة تشهد على عراقة التاريخ العربي في هذه البقعة من القارة العجوز أوروبا. وراقبنا أيضا مسار الوادي الكبير الذي يتلوى مثل أفعى تمر من تحت القناطر التي تزري بالقناطر الخيرية التي أنشأها محمد علي باشا على النيل، فهي الأخرى أعجوبة من أعاجيب الهندسة في الأندلس. ومثلما قال الشاعر القديم:

تمام الحج أن تقف المطايا على عفراء حاسرة اللثام

كذلك من تمام الزيارة إلى قرطبة مشاهدة الكازار، وهو القصر الذي كانت تدار منه الخلافة قبل أن يحولها الحاجب المنصور بن أبي عامر إلى إمارة. وهذا القصر ما يزال يحتفظ بالكثير من معالمه القديمة التي لا تخلو كغيرها من الزخرفة العربية بأشكالها التي تمثل علامة فارقة لفنون الأندلس والمغرب. وأكثر ما يجذب الانتباه، ويسبي العقول، ما في القصر من حدائق وأمكنة للتنزه والتفسح بين الورود والرياحين وأشجار الياسمين والنارنج وغيرها من النباتات التي لا نعرف أسماءها ولكن نقع تحت سحرها مثلما قيل ليس كل ما يعجبك يمكن أن تعرف لم يثير الإعجاب، فأنت تعجب به وتقع تحت سحره الفاتن وكفى. فإذا وقع التأثير بطل التفسير.

وثمة بركة مستطيلة تحيط بها النوافير التي ينصبُّ ماؤها في شبه أقواس، وعلى وجه الماء الضارب للخضرة تطفو أوراق بعض النباتات التي تزرع وتنمو في الماء وقيل إن هذا هو النيلوفر الذي يتكرر ذكره في الموشحات والأشعار

الأندلسية عند هذا المنظر البهي، تذكرت ابن خفاجة الشاعر الذي صدق حين قال:

يا أهـــل أندلس للـــه دركمـــو ماءٌ وظلٌ وأشجـــارٌ وأنهارُ
ما جنة الخـــلد إلا في دياركمـــو ولو تخيرت هذا كنت أختارُ
لا تختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرًا فليس تُدخلُ بعد الجنة النارُ

وكان الأولى به لو ساعده الوزن، وطاوعته القافية، أن يضيف ومِعْمارُ.

ولا يفوتنا أن نقول: إن الإسبان على الرغم من أنهم دمروا الكثير من الآثار العربية والإسلامية في ديارهم بسبب التعصب الديني، إلا انهم تنبهوا في زمن متأخر إلى ما في ذلك من خطأ ترتب عليه أنهم خسروا الكثير. ولهذا شرعوا يرممون ما دُمّر، ويضيفون إليه ما يجعله كما كان، أو أكثر جمالا. وفيما نحن مقبلون على القصر استرعى انتباهنا ما في ربوع المدينة من تماثيل أحدها لابن رشد، وآخر لابن زيدون. وهو عبارة عن نصب وضعت في ذروته راحتان إحداهما له، والأخرى لولادة، وهما تتصافحان. وكتبت تحت هذا في مربع وضحت أضلاعه باللون الأسود،بالخط الديواني أبياتا من الشعر الغزلي. في إشارة من الصانع لحكاية العشق بين الاثنين قبل أن يترك أبو الوليد قرطبة، ويلجأ إلى إشبيلية، ويغدو من شعراء المعتمد بن عباد:

أغار عليك من عيني ومني ومنك ومن زمانك والمكانِ
ولو أني خبأتكَ في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني

وهذان لولادة. ولابن زيدون:

يا من غدوتُ بهِ في الناسِ مُشْتهرًا
قلبي عليكَ يقاسي الهمَّ والفِكَـــــرا
إن غبتَ لم ألــقَ إنسانا يؤانسني
وإنْ حضرتَ فكلُّ الناس قد حضروا

ألم يقل الشاعر معللتي بالوصل، ونحن ها هنا في زمن الوصل، وكيف يتم إذا لم نزر كلا من جيان وغرناطة.

لؤلؤة في محارة

على وفق الخريطة التي بحوزتي ما علي إلا الاتجاه جنوبا للمرور بمدينة جيان في الطريق إلى لؤلؤة الأندلس. وهي مدينة معروفة نبغ فيها الكثير من الفقهاء وعلماء الدين والأدباء والكتاب، وكل منهم ينسب إليها فيقال فلان الجياني. منهم أبن الفرج الجياني مؤلف كتاب الحدائق. وهو شاعرله ديوان مطبوع، وأديبٌ ومؤرخ اتصل بالمستنصر بن عبد الرحمن تاسع الأمراء وثاني خلفاء الأمويين في الأندلس، وتوفي سنة 366هـ. وابن مالك الجياني 672هـ وهو من أئمة النحو مؤلف الألفية المشهورة باسمه ألفية ابن مالك التي شرحها وعلق عليها كثيرون، منهم ابن هشام في أوضح المسالك ، ومنهم ابن عقيل وغيره. وهي التي يقول فيها:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم

وقد زعم - رحمه لله - في أولها أنها تفوق ألفية ابن معطي(الزواوي وهو من أهل بجاية في الجزائر توفي عام564هـ وله الدرر الألفية في علم العربية) بقوله:

وتقتضي رضا بغير سخطِ فائقـــةٌ ألفية ابن معطي

فرأى في منامه أن ابن معطي يعاتبه على هذا الغرور، فعدل عن رأيه، وأضاف بيتا يقول فيه:

وهو بسبقٍ حائزٌ تفضيلا مُستوجبٌ ثنـــائي الجميلا

وقد عرض لي في طريقي لجيان عارضٌ، وهو تقاطع لا توجد لديه لافتة تحدد أي الاتجاهات هو الذي يؤدي إلى جيان، إذ يمكن إذا اتجهت يمينا أن أجد نفسي في مدينة غير التي أريد. وانتظرت حتى مرت بالمكان مركبة، وسألت من فيها بعد توقفه إن كان يعرف الإنجليزية لأسئله، وكعادة الإسبان لا يحبون

التكلم بتلك اللغة، فرد علي قائلا: الإسبانية فقط only Spanish واضطررتُ أن أنشر الخريطة أمامه، وأن أشير إلى اسم جيان، فقال لي في لهجة من يتنبه للخطأ الذي أنا واقع فيه: أوه! خاين؟ أي أنها لا تلفظ جيان، وإنما خاين. وأشار للطريق الصحيح. عرفت من هذا أن اللغة الإسبانية فيها صوت الخاء، وهولا يوجد في لغات عدة من اللغات الأوروبية، باستثناء الألمانية. وها هو موجود في الإسبانية. وهو أصلا من الأصوات المعروفة في اللاتينية. فالصوت الذي يكتب j بالإنجليزية وغيرها حيثما وقع يلفظ إسبانيا مثلما تلفظ الخاء بالعربية، ولذلك جون بالإنجليزية هو خوان بالإسبانية.

ولأن الخريطة التي بحوزتي لا تشير لوجود مخيم في جيان، فقد واصلنا السير باتجاه غرناطة التي تبعد عن قرطبة نيفا و150 كيلو مترًا. وبما أنني مهتم بهذه المدينة، فقد تذكرت أنها آخر معقل للعرب والمسلمين سقط في أيدي الإسبان. وتذكرت أيضا أن فيها أكبر معلم سياحي قرأت عنه استطلاعا بالألوان في مجلة العربي التي تصدر في الكويت، وهو قصر الحمراء. ولا بد أنني اتذكر مما ثقفته طالبا في البكالوريوس من حيث أنها تقع على سفح السلسلة الجبلية المعروفة باسم سيرانيفادا. ويخترقها نهر شُنيل بل تلتقي فيها أنهر عدة كوادي آش، والوادي الكبير، ونهر حدارو، وتبعا لذلك تكثر فيها القناطر والجسور، منها ما بني في عهد المسلمين ومنها الحديث.

وثمة لافتاتٌ بالأحرف اللاتينية تشير إلى موقع قصر الحمراء، وهو موقع مرتفع يتطلب أن تتسلق بالسيارة هضبة عالية قبل أن تتحول الأرض إلى رحبة مستوية يمكنك أن تترك السيارة، أو الحافلة، أو أي وسيلة من وسائل النقل، ثم تترجل وتتجه إلى الحمراء الذي يتزاحم فيه الناس تزاحما لا يرى إلا في الأسواق حيث البضائع التي يتقاطر عليها المشترون والباعة. تلتقيك حيثما ذهبت عجرياتٌ يبعن الورود الحمر، وترى من وقت لآخر وجوها بملامح عربية بدوية، أو غير

بدوية، بعباءات أو جلابيب وبغيرها من أحدث الملابس الأوروبية، ووجوه بملامح وعيون زرق، وشعر أشقر، أملس، غير أجعد، والنساء منهم بخصور نحيلة، وأذرع عارية، وسيقان صقيلة ملتفة، وأدلة سياحيون يرافقون هذا التجمع أو ذاك، وطلبة مدارس يجلسون على بعض الحواف، وهم يرسمون بالألوان ما يشاهدونه من الأعمدة، والأقواس، كأنهم يتدربون على الفن في منارة الفن.

ما الذي أذهلني في هذا القصر؟ أولا بهو السباع. ففي هذا البهو بركة مستديرة، ونوافير ينطلق الماء فيها من أفواة السباع المنحوتة من البازلت بأشكال تبدو متماثلة غير أن الناظر إليها بدقة يكتشف فروقا بينها لا تكاد تلحظ. وقد حار العلماء في معرفة كيفية استقبال هذه السباع للمياه في جوفها، ودفعها من أفواهها، لتستقر في البركة. وقد حاول مهندسون اكتناه أسرار هذه الهندسة. وتقول البيانات إنهم أخفقوا في معرفة تلك التقنية، والسبع الذي أجروا عليه التجارب ما يزال متوقفا عن أداء العمل الذي تؤديه السباع الأخرى. وفي هذا القصر قاعة باسم قاعة الأختين غاية في الإبداع الزخرفي. وكذلك قاعة باسم بني سراج. وهي عائلة احتكرت مناصب الوزارة في مدة محددة من إمارة بني الأحمر في غرناطة التي امتدت نحو قرنين من الزمان.

وثانيا يمسك بتلابيب السائح مكان ملحق بالقصر يسمى جنة العريف. وفيه فضلا عن القصر ، حدائق ومسابح وبرك ونوافير وتماثيل لطيور وسباع تلفظ المياه من الأفواه، ونباتات متشابكة، وورود ورياحين.

وفي قصر الحمراء- ثالثا - برج باسم برج قمارش يصعد إليه الزائر بسلم قصير من درجات، وفيه مقعد إذا جلس عليه الزائر رأي أمامه ما يحيط بالقصر من حدائق ومياه.

لا ريب في أن قصر الحمراء يعد لؤلؤة من لآليء الحضارة الأندلسية في إسبانيا، ولا غرو في أن تهتم به الدولة، وتعلي من شأنه وتنظم الأوقات والزيارات والمواصلات والخدمات التي تتيح للملايين زيارته كل عام. ويقدر الدخل الذي يضاف لميزانية الدولة من السياحة الأندلسية بعشرات المليارات. ومن المفارقات العجيبة أن أحد ملوك إسبانيا ابتنى قصرا في جوار قصر الحمراء كي ينافس هذا الأثر البديع في اجتذاب الزائرين، وقد رأيناهم يتزاحمون على قصر الحمراء وينصرفون عن ذلك القصرلخلوه مما يجذب الانتباه.

واللافت للنظر أن الكثير من معالم هذا القصر، على الرغم من مرور نيف و500 عام على رحيل المسلمين من الأندلس، وربما 900 عام على الشروع في بنائه، تحتفظ بألقها، وبهجتها، وجدتها، كأن الباني نفض يديه منها للتو. هذا على الرغم من أن الدراسات تقول إن المواد التي استخدمت في بنائه مواد لا تقوى ولا تصمد كثيرًا في وجه عوامل التغيير. وشيء آخر يشبه السحر في قصر الحمراء وهو وجود سجن أسفله يحتوي في جدرانه على ما يشبه الأنابيب التي تتخلل الجدران وتتيح لمن هم في القصر سماع ما يقال في الجزء السفلي كما لو كانوا يصغون لهاتف. ولما كنت قد سمعت بهذا من قبل، ولم أصدقه، فما كان مني إلا أن حاولت التحقق، والتأكد، من صحة هذا النبأ، وبالفعل وجدتُ أن من يقف أمام تلك الفتحة في الجدار مصغيًا يسمع ما يقال في الأسفل على الرغم من بعد المسافة، ووجود جدران عازلة بين من يتكلمون ومن يسمعون. وتزعم الروايات أن هذا كان يستخدم للتنصُّت على المعارضين.

ولا أبالغ إذا قلت: إن من لديه ذرة واحدة من النخوة يتحسر على ضياع هذا المجد، ويتألم، لأن الذين أضاعوه كانوا فاسدين كفاسدي عصرنا هذا. وقد تفاعلتُ مع المشهد وكتبت قصيدة **الأبيض اللازوردي** التي نُشرت في أيامها قبل أن تصير إلى ديوان تداعيات ابن زريق البغدادي الأخيرة:

غرانادا.. غرانادا
وداعا
وداعا
لماذا نجيء إليك نغذ الخطى
من بلاد بعيدة
لنشرق بالدمع
أم نضرم الحزن في كلمات القصيدة

في طريق عودتنا إلى الجزيرة الخضراء مررنا بمدينة مالقة، وهي مدينة أندلسية قديمة يعود تاريخ بنائها لزمن الفنيقيين قبل أكثر من 2770 سنة. وكانت قد فُتحت على يدي طارق بن زياد سنة 92هـ وفيها قصبة تعرف باسم قصبة مالقة بنيت مداخلها على أساسات رومانية. وجددها بنو حمود ثم بنوا الحصن المعروف بحصن مالقة. وظلت هذه المدينة تابعة لمملكة غرناطة التي خضعت لبني الأحمر. وحوصرت في العام 1487 م. واشتهرت بالكثير من النوابغ في الشعر والنثر. وصنف ابن خميس المالقي(639هـ) كتابا في أعلامها سماه " مطلع الأنوار، ونزهة البصائر والأبصار، فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء الأخيار، وتقييد ما لهم من المناقب والآثار". وفيه سير لنيف و170 كاتبا وشاعرًا. وتزامن مرورنا فيها مع وقت الغداء، فاخترنا مقهى على شاطئ البحر المتوسط، بعض مقاعده مركوزة في الماء، وبعضها على الأرض في تعبير عن هامشية الفرق بين البر والبحر.

تركنا السيارة على رصيف الشارع ونزلنا واخترنا مائدة؛ اثنتان من قوائمها في الماء، واثنتان على الأرض، وسحبنا مقعدين آخرين للبنتين سنابل وسوسن، فيما كانت تجلس منال على المائدة، وجاءنا عامل المقهى(الجرسون) يحمل زجاجة ببسي كولا كبيرة وبعض الأكواب، فاستغربنا إذ المعتاد أن يقدم المشروب مع

الطعام، ولاحظنا أن هذا الأسلوب مطرد، فالعادة لديهم أن يتناولوا البسي، أوما يقوم مقامه قبل الطعام. وانتظرنا أن يأتينا بقائمة المأكولات التي يقدمونها، وبالفعل جاءنا بقائمة جل ما فيها تقريبا من الأسماك، فاخترنا بالصدفة، لا بالخبرة، طبقا كبيرا من السمك الذي عرفنا أنه مشوي. وهو سمك يشبه سمك السردين، وربما كان من سمك السردين، لكننا لم نتعرف عليه بسبب الشيّ الذي غير لونه، وشكله، وأحاله لنوع آخر. ولا أبالغ إذا قلت إنني مازلت أتذوق طعم ذلك الطبق في فمي حتى يومنا هذا على الرغم من مرور نحو 42 عامًا على ذلك. والمهم أننا بعد ذلك عدنا إلى السيارة، وقد توكلنا على الله لنتابع طريقنا للجزيرة الخضراء. وفي الطريق مررنا ببلدة باسم أستيفونا، وهي الأخرى على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وفيها أنصابٌ وتماثيل بتشكيلات تمثل مراكب، وصيادي أسماك، وبحارة. وعرجنا على أحد الأكشاك التي تبيع السجائر، والطوابع، وبطاقات المعايدة، وأغلفة الرسائل البريدية، وما شابه ذلك.

وقفنا أنا وهدى ويدي تمسك بيد واحدة من البنتين، والأخرى ممسكة بيد هدى، ومعنا عربة أطفال ندفعها أمامنا في العادة وفيها منال. كنا نتفاهم مع البائع بالإشارات، وفجأة اكتشفنا أنّ منال التي في العربة ليست موجودة. وطار عقلانا إذ كيف يمكننا العثور عليها، والحال أننا لا نعرف كيف نسأل مع جهلنا باللغة الإسبانية، ولا أدري كيف اندفعتُ إلى الأمام على الرصيف نفسه، ونظراتي تنمّ على البحث في لهفة وبقوة عن شيء مفقود، وإذا بسيدتين متقدمتين في العمر تشيران لي بأيديهما وهما تلفظان كلمة: نو. نو. نو..(يبدو أنها تعني طفلاbaby) وتشيران، فركضت إلى حيث تشيران، فإذا بها تمشي على غير هدىً. وفوجئتْ بي التقطها من يدها وأطوقها بين ذراعي. والذي حدث أنها غافلتنا، ونزلت من العربة، وأخذت تمشي، ولم نتنبه لها إلا بعد أن ابتعدت عنا قليلا. من تلك

اللحظة أبت أن تطاوعني نفسي على نرك أي منهن دون أن أمسك بها، أو تمسك بها هدى.

كنا قد وقعنا في هذا المأزق في سبتة. التي بتنا فيها ليلة واحدة، وأردنا في صباح اليوم التالي التسوق لعلمنا بأن الأسعار فيها أقل بكثير من أي مدينة أخرى. فهي مدينة حرة من حيث الديوانة والرسوم الجمركية، وتقل فيها الأثمان بمقدار النصف. وفيما كنا نمشي في الشارع الرئيسي الوحيد بسبتة انتبهنا وإذا نحن أربعة لا خمسة، أين سوسن؟ لا توجد سوسن! طار عقلاناحقيقة لا مجازا، فكيف سنعثر عليها في بلدة مزدحمة، وسكانها خليط، والمتحدث فيها يحتاج لترجمان، مثلما قال الشاعر:

تجمع فيه كل لَسْنٍ وأمةٍ فما يفهم الحدّاث إلا التراجمُ

واندفعتُ في الرصيف الذي كنا آتين منه، وبعد خطوات لا أذكر عددها وجدتها واقفة تحدق بواجهة زجاجية لمحلات تتاجر بالألعاب. وتخيلتُ ما يأتي: كانت تسير معنا فلفتت نظرها الألعاب، وركزت عليها تركيزا أنساها أنها تسير معنا، وظلت تنقّل نظرها من لعبة لأخرى. وفوجئت بي ألتقطها وأصرخ بها أمك تُصاب بالجنون.. وأنت ها هنا، هيا عجلي نلحق بها، وهي بين الثالثة والرابعة.

في طريق العودة مررنا بفاس، ومكناس، وفي الخنيفرة، وآزرو، وصفرو، وإفران التي استقبل فيها العاهل المغربي شمعون بيرس، وهي التي تحيط بها غابة من شجر الأرز. وأحسب أن تلك الغابة من حيث المساحة تزيد على مساحة لبنان التي تتخذ من شجرة الأرز سمة في العلم اللبناني تيها وفخرا وزهوا بأنها بلد الأرز، وإلى هذا يشير أحدهم قائلا:

(وأبعد شمس الأرز عن هذه الشمس ِ)

وأخيرا بني ملال، فالفقية بن صالح.

عودٌ على بدء

في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من العام 1981 رزقنا بأول طفل من الذكور بعد إناث ثلاث. في الحقيقة لا يهمني جنس الطفل ذكرا كان أم أنثى، وهذا ما طبعت عليه وجبلت. وكنت أستهين بأولئك الذين يفضلون الأبناء ذكورا. ويغضبون غضبا شديدا إذا وضعت الأم طفلة لا طفلا كأنهم يظنون أنها هي التي تختار جنس المولود. وقد سمعت أكثر من حكاية عن رجل طلق زوجته لأنها لم تأت بذكر، أو تزوج عليها زوجة أخرى لتضع له ذكورا، فأتته الأخرى بأنثى. ولكن من طبيعتنا أن نحب التنوع، ونعشق التغيير، وبسبب ذلك سررنا بهذا الطفل، وسميناه محمدا على اسم النبي الكريم لا تدينا فحسب، ولكن لأن هدى رأت في المنام من يخبرها بأنها ستضع صبيا، وأن عليها أن تسميه محمدا. هكذا قالت لي. ورددت عليها في ذلك الحين بأن هذا لا يعدو كونه أضغاثا، ولكن عندما حان الحين صرفت النظر عن فكرة الأضغاث.

ومن عادة المغاربة أن يقيموا مأدبة عند مجيء الطفل ذكرا أو أنثى، وفي الماضي، لم أتقيد بهذه العادة، بحجة أنني لست مغربيا، هذا مع العلم بأن كثيرا من الناس يلتزمون بتلك الوليمة على أساس حديث العقيقة. وكنتُ في هذا الوقت وحيدا إذ إن كل المعارين السابقين كانوا قد أنهوا الإعارة، وغادروا في صيف العام 1981 ولذلك أقمت (الزردة) واقتصرالحضور والمدعوون على بعض الجيران من الرجال والزملاء من المدرسين، وأما النساء فقد احتفلن على طريقتهن بالمولود وأمه. وكانت مناسبة شيقة، ومبهجة، والتقطنا فيها صورا تذكارية ما زلنا نحتفظ بها إلى اليوم.

وبما أنني أصبحت وحيدا، وأكملت مدة الإعارة، وهي خمس سنين، فقد كان علي أن أتهيأ للعودة. ومثلما ذكرت سابقا لا يأتي النكد والغم والهم إلا من الإسرائيليين، ففيما كنا نتهيأ لذلك انفجرت الأحداث في يونيو حزيران 1982 في

لبنان في الجنوب أولا، وفي الوسط حول بيروت، بل في بيروت. ونحن لا نستطيع أن نتجاهل ما يحدث كغيرنا فلنا أصدقاء ومعارف وأحباب لدى المقاومة، وفي لبنان، فكيف يهدأ لنا بال ونحن نسمع بأخبار الغارات على المواقع، وإلقاء قنابل تزن الواحدة منها طنا وتقتل نيفا ومائة شخص في ضربةٍ واحدة على رأي بهاء طاهر في روايته الحب في المنفى(1995) التي تناولتها في كتابي بهاء طاهر وآخرون (ص37-51). لا سيما وأن صالح شقيق - هدى الذي ذكرته سابقا مع المقاومة في الجنوب - عدا أولاده محمد ومحمود وعادل، ولنا أصدقاء، كعلي فودة الذي استشهد، وأمجد ناصر، وغسان زقطان، وزكريا محمد،ورشاد أبو شاور، ومحمد إبراهيم لافي، وآخرون كثر لا يستطيع المرء أن يذكرهم جميعا في موقع كهذا.

وظللنا بقية ما بقي لنا من أيام نعدها بالساعات. وتخلصنا مما كان لدينا من أثاث وتنازلت عن السيارة التي جبت بها الكثير من ربوع المغرب الأقصى بأبخس الأثمان لمدرس من رومانيا فرح بها فرحًا كبيرا.

الفصل الرابع
الجامعة مرة أخرى

بطيختان بيد واحدة

عدنا في الربع الأخير من شهر تموز- يوليو واخترنا الإقامة في الزرقاء في حي الحسين لنكون قريبين من أنسبائي (دار أبو صالح) ولم تمض إلا أيام حتى أعلن عن عودة صحيفة الشعب باسم جديد هو صوت الشعب، التي كانت قد منع صدورها وكنت أحد المحررين فيها قبل مغادرتي إلى المغرب. واستدعى المرحوم إبراهيم سكجها المحررين الذين كانوا فيها من قبل واهتبلت الفرصة وانتهزتها لأستأنف حضوري في الصحف إلى جانب وظيفتي.

حاول بعضهم وضع العراقيل في طريقي، إلا أنه، رحمه الله، رد عليهم ردا يقوم على تذكيرهم بكفاءتي. إلى جانب هذا العمل الإضافي، وبعد ما يقرب من سنة تقريبا اتصل بي أحد الفضلاء، واسمه عيد سرياني. وأخبرني أنه زود برقم هاتفي من الزميل الكاتب الروائي سالم النحاس، وأنه نصحه بالتعاون معي. فقد كان بعد عودته من الرياض، وعمله المتواصل لأكثر من 20 عاما في مؤسسة اليمامة، قد أنشأ وكالة للصحافة باسم الوطن العربي في عمان. وهي مستقلة لا صلة لها بمجلة الوطن العربي الأسبوعية التي تصدر في باريس ومن كتابها نزار قباني. وأضاف أن النحاس أشاد بي وبقدراتي على تغطية ما يجد من نشاط ثقافي وفني في عمان، وتزويد هذه الوكالة به مقابل مكافأة شهرية، وهو يقوم بنشر تلك المقالات والتقارير لدى مؤسسة اليمامة وجريدتها اليومية الرياض.

وعلى وفق العنوان في شارع وادي صقرة، وفي بناية كلبونة - الطابق الخامس التقيته. وبدأت التعاون معه. وبعض ما كتبته عن وفاة الشاعر الكبير عبد المنعم

الرفاعي مثلا اتخذته مجلة اليمامة موضوعا للغلاف. كذلك تقريري عن الانتفاضة الفلسطينية في شهر كانون الأول من العام 1987 هو الآخر اتخذ موضوعا للغلاف. وبعض هذه الموضوعات كانت تنشر باسم الوكالة لا باسمي، أما الموضوعات ذات الطابع الأدبي فكانت تنشر باسمي. فموضوع عبد المنعم الرفاعي ذكر اسمي إلى جانب عبارة عمان- من الوطن العربي. كذلك مقابلتي مع سعاد الصباح، ومع روكس العزيزي، وشوقي بزيع، ويوسف الصايغ، وحبيب الصايغ، وكنت إلى ذلك اتتبع في بعض هذه التقارير مهرجان جرش، ولا سيما الجانب الشعري منه.

وفي هذا الخضمّ من الأعمال قررت متابعة دراستي العليا، وتقدمت بطلب ونلت الماجستير في العام 1986. ومن كان على دراية بما أقوم به من أعباء يشبهني بمن يحمل بطيختين كبيرتين بيد واحدة. وقبل ذلك كنت قد نشرت في دمشق كتابا بعنوان " في الأدب والنقد " 1980 وهو دراسة. ثم نشرت مجموعة قصصية بعنوان " من يذكر البحر" 1982 وهي التي سبق ذكرها في غير هذا الموضع. وديوانا بعنوان " تداعيات ابن زريق البغدادي الأخيرة " 1984. ونشرت عددا من المقالات في مجلات الموقف الأدبي، وأفكار، وأقلام العراقية، والمعرفة السورية، ومجلة الثقافة العربية في طرابلس، ومجلة المنتدى الشهرية التي كانت تصدر عن النادي الثقافي بدبي، وغيرها من المجلات.

وكنت أيام وجودي في المغرب قد كتبت ونشرت عددا من المقالات عن قصص، وروايات فلسطينية، وأعدت فيها النظر، ودفعت بها إلى المرحوم علي حسين خلف الذي كان قد أنشأ دارا للنشر بعمان باسم دار ابن رشد للنشر والتوزيع.

والكتاب الذي كتبت مقدمته في 1/1/ 1980 في المغرب يقف بالقارئ على معالم الطريق في القصة الفلسطينية القصيرة. ففيه قراءة نقدية لمجموعة

المرحوم حنا إبراهيم أزهار برية. وقراءة أخرى في جسر على النهر الحزين لمحمد علي طه. وثالثة لمجموعة مقهى الباشورة لخليل السواحري، وهي المقدمة التي نشرت في الطبعة الثانية لها عن دار كاظمة في الكويت، وقبل ذلك نشرت بصفتها مقالا في أقلام العراقية. ودراسة لمجموعة محمود شقير الموسومة بعنوان الولد الفلسطيني، وكانت قد نشرت في مجلة الطليعة في بغداد. والرمز والنموذج الفلسطيني في المطر الرمادي لإبراهيم العبسي. وفي القسم الثاني منه دراسات في رواية إميل حبيبي الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، وهي منشورة سابقا في مجلة شؤون فلسطينية. ودراسة لرواية يحيى يخلف نجران تحت الصفر، وأربع مقالات في روايات غسان كنفاني على التوالي: رجال في الشمس، وما تبقى لكم، وأم سعد ، وعائد إلى حيفا.

وطرأت لدي فكرة جديدة. وهي: لم لا يكون لرابطة الكتاب فرع في الزرقاء؟ فثمة عدد من الكتاب فيها كمحمد المشايخ، وفخري قعوار، وشمس الدين عبد الرزاق، وأحمد عبد الحق، وشقيقه بدر، ويوسف ضمرة، وشقيقه محمد، وهند أبو الشعر، وحمودة زلوم، ومحمود أبو عواد، وعدنان علي خالد، وإبراهيم الخطيب، وزياد عودة، ومحمد الخطيب، وسعادة أبو عراق، ورياض سيف، ومأمون حسن، والياس خليل جريس، وعبدالله رضوان، وسميرة خوري، ومحمود الزيودي. وهذا عدد ينسجم مع مادة في النظام الداخلي تسمح بإنشاء فرع لها إذا توافر أقل من هذا العدد في المدينة. وبعد خلافات، ومناكفاتٍ، تقرر إنشاء هذا الفرع.

ولا ريب في أن من ذكروا يسلمون بدوري الحاسم في إنشاء هذا الفرع. ومن بين الأعمال التي قمنا بها عرض مسرحية(يا أنا يا هو) من بطولة ربيع شهاب وسهير الفهد في دار للسينما،وهي مسرحية عننوانها يذكرنابالفيلم الكوميدي المصري (يا أنا ياهو) بطولة نضال الشافعي ولطفي لبيب وليلى زاهر

ويوسف داود. و كان إعلانا لافتا عن وجود الفرع في المحافظة. ونظمنا أمسية شعرية تعدّ حدثا غير عادي في المحافظة لفدوى طوقان بعد فوزها بجائزة سلطان العويس للشعر العربي في قاعة الغرفة التجارية في شارع الجيش. ونظمنا معرضا للكتاب في الغرفة التجارية في المبنى القديم في السوق، إلا أن المعرض الذي افتتح برعاية السيدة ليلى شرف- الوزيرة السابقة- في يونيو – حزيران 87 وبحضور عدد غفير من الناس لم يستمر طويلا، بسبب قرار الحاكم العسكري العام بإغلاق الرابطة ومقراتها الفرعية، واعتبارها جمعية محظورة، في وقت كانت فيه تتهيأ لانتخاب هيئة إدارية جديدة برئاسة الشاعر الراحل عبد الرحيم عمر. كان ذلك في 17 يونيو – حزيران 1987 وقوبل القرار بالرفض من هيئتها الإدارية السابقة، ومن المرشحين للهيئة الجديدة، ورفضه الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، مثلما رفضه اتحاد الكتاب الأفرو آسيوي. وأنشئ بديل لها ما يزال قائما إلى اليوم على الرغم من عودة الرابطة، في 15 ديسمبر- كانون الأول من العام 1989 على إثر التغيير الذي أطاح بالأحكام العرفية. أي أن مدة الإغلاق تجاوزت العامين. كنا خلالها نلتقي ونجتمع في منزل الشاعر عبد الرحيم عمر في إسكان الجامعة الأردنية بضاحية الرشيد، ولم يتغيب عن هاتيك الاجتماعات إلا القليل.

بالطبع تداول المهتمون شائعات عن أسباب الإغلاق، فمنها ما تشير لعلاقة غير جيدة بين عبد الرحيم عمر ووزير الإعلام في حينه محمد الخطيب. ومن قائل إن الأمر يتعلق بصدور قرار بحظر مقالات عبد الرحيم عمر في الصحف وترؤسه للرابطة في الهيئة المزمع انتخابها على قاعدة الائتلاف محرج للرئيس زيد الرفاعي الذي أصدر القرار ولحكومته. وثمة رواية هي الأضعف تقول إن الرابطة أغلقت فيما يعد تصفية حساب بين حكومة معلنة وأخرى في الظل تتبع المرحوم مضر بدران. ولا يهمنا ما الذي أدى لهذا الخطأ بقدر ما تهمنا تبعاته.

ففي يوم من الأيام جاءني استدعاء للمحافظ، وعند المراجعة أبلغت بضرورة التوجه لمدير مخابرات الزرقاء. ولما راجعت تلك الدائرة سلموني استدعاءً آخر كتب فيه أيضا اسم عبدالله رضوان، وينصّ على ضرورة مراجعة دائرة عمان. واصطحبت الشاعر عبد الله رضوان وذهبنا وتركنا السيارة في موقع قريب وسرنا على الأقدام. ولما دخلنا الدائرة طلب منا الانتظار في قاعة مليئة بالمراجعين المطلوبين. وكان أحد رجال الأمن يدعو المنتظرين واحدا بعد الآخر بناءً على ترتيب معين. ولا أبالغ إذا قلت وصلنا في التاسعة صباحا، ولم يأت دورنا إلا بعد الواحدة.

استدعيت أولا ورافقني أحد الأمنيين، وصعدنا درجا بعد آخر، وممرات تلو الممرات، إلى أن وقف بي أمام باب في أعلاه ضوء مستدير كنصف كرة لونه أحمر قاني. وقال لي انتظر. وبعد دقائق نودي علي بالدخول لأجد أحد العسكريين جالسا أمام مكتبه وبين يديه إضبارة أظن فيها بعض الأوراق التي تتضمن بعض المعلومات الخاصة بي. وبدأ يطرح أسئلة جلها تتعلق بدراستي في الجامعة ما علاقتك بفلان. هل انتسبت لحزب ما. وهل حملت سلاحا.. إلى غير ذلك من الأسئلة. ثم قال نحن حللنا الرابطة، وها هو الاتحاد موجود، فإذا شئت الانضمام له فأهلا وسهلا، وغير ذلك ممنوع. وهذا تحذير. ثم فتح درجا في المكتب وأخرج رزمة ضخمة من جوازات السفر. وقال: إذا شئت أن يكون جواز سفرك بين هذه الجوازات المحجوزة، فنحن مستعدون. ثم أخلى سبيلي بعد هذا التهديد. وعاد الجندي الذي أحضرني لهذا المحقق، ثم قادني إلى باب الخروج. وعندما أصبحت خارج الدائرة تلفتّ فوجدت عبدالله رضوان ينتظرني بجانب السيارة. وتحدثنا في طريقنا للعودة، فإذا بالأسئلة التي ألقيت علي طرحت عليه، وإذا بالتهديد والوعيد هو هو.

لم تكن هذه هي المرة الأولى ففي العام 1975 انتخبت أمينا للشؤون المالية في الرابطة، وانتخب خليل السواحري أمينا للسر. وقد تلقينا نحن الاثنين خطابا لمراجعة الدائرة كتب فيه أن عضويتنا في الهيئة مجمدة ما لم تحظ بموافقة الدائرة. وهذا بالطبع يتطلب المراجعة. وقد راجعناهم، وعدنا بعد ساعات. أما الأسئلة التي وجهت لي فهي تتعلق بمسيرتي في الجامعة. ومن أعرف؟ وهل حملت سلاحا أم لم أحمل؟ وهل انتسبت لأحزاب؟ ولأي فصيل انضمَمْت؟ والغريب أن الذي طرح علي هذه التساؤلات ما كان ينبغي له أن يفعل وهو زميل سابق في قسم علم النفس لكنه من خريجي 1969.

دراستي العليا

في الأثناء كنتُ قد فرغت من الساعات المعتمدة للماجستير وعددها 27 ساعة. وأعددت رسالتي التي تناولتُ فيها رؤية العالم في الرواية العربية في المغرب الأقصى من 1956 – 1982 وفيها رصدتُ حصاد الرواية المغربية في الحقبة المذكورة، وعرضت لتلك الروايات في ضوء مفهوم رؤية العالم لدى لوسيان غولدمان. فمن الروائيين الذين تناولت الرسالة بعض رواياتهم عبدالله العروي وعبد الكريم غلاب و أحمد زياد ومحمد عزيز لحبابي والميلودي شغموم ومبارك ربيع في غير رواية، مع التوقف لدى الربح الشتوية. واشترك في مناقشتها كل من د. إحسان عباس وكان قادما من الجامعة الأميركية بعد تقاعده ليستقر في عمان، والدكتور نصرت عبد الرحمن. وقد تضمنت المناقشة الإشارة لبعض التعديلات، ومنحتُ درجة الماجستير التي جعلتني أبادر بعدها للتقدم للدكتوراه بدءًا من الفصل الأول من العام الجامعي 87 / 88 .

وعلى الرغم من الأعباء التي تراكمت علي، وعلى الرغم من أنني كنت أحمل بطيختين بيد واحدة، فقد واصلت الكتابة في الصحف، وفي وكالة الوطن العربي للصحافة. ونشاطي المستمر في رابطة الكتاب. فبعد عودتها وفي السنة الأولى

1988 /1989 أصبحت عضوا في الهيئة الأدارية. وفي هذه الفترة نشرت كتابا صغير الحجم عن **تجديد الشعر العربي** قام بإصداره الصديق الراحل خليل السواحري عن دار الكرمل للنشر والتوزيع. وبعده نشرت كتابا عن **الانتفاضة الفلسطينية في الأدب العربي**. وهو أول كتاب يتناول هذا الموضوع منبها على الكثير من الشعر والنثر المتصل بهذا الموضوع. فمنه ما يتنبأ بالانتفاضة كرواية وتشرق غربا لليلى الأطرش، ومنه ما يرصد مظاهرها قبل أن تبدأ في تصور واستشراف كرواية إسماعيل لأحمد حرب. وتناولت في الكتاب شعرا عن أطفال الحجارة لنزار قباني، وشعراء من الضفة، وغزة، في ديوان جماعي، وشعرا لعلي الفزاع، وخالد محادين، وإبراهيم نصرالله، ومحمد القيسي، وآخرين.

وفي السنة ذاتها عرضت على المرحوم الدكتور محمود السمرة، وكان في حينه رئيسا للجامعة، خطة لأطروحة الدكتوراه. وبعد ان سمع مني عرضا لفصول الدراسة المتوقعة وهي بعنوان **السياق وأثره في الدرس اللغوي في ضوء علم اللغة الحديث** قال لي: ألا ترى أنك اخترت موضوعا صعبا وفيه مشقة ومتاعب؟ خذ لك شاعرا ما واكتب عنه، وعن حياته، وشعره . تنتهي من ذلك في وقت قصير وبلا مشقة. فأجبته موضحا أنني تخيرت هذا الموضوع بهدف أراه يستحق المشقة والتعب، وهو مشروع معرفي أسدُّ به فراغا لدي يتمثل في حاجتي للتعمق في الدراسات اللغوية واللسانية. فقال لي: على بركة الله.

وفي أقل من فصلين كنت قد أنجزت الموضوع. ونوقشت الرسالة في مشهد أكاديمي بهيّ. ومنحتُ الدرجة التي أستحق. أما الذين شاركوا في المناقشة فهم د. إحسان عباس ود. ناصر الدين الأسد ود. نهاد الموسى. ومن المفارقات العجيبة التي لا تحدث إلا نادرا أن أخي ناصر الذي يقيم في ولاية فلوريدا منذ أعوام حضر إلى الأردن زائرا قبل المناقشة فكان من بين الحضور. ومن بين الحضور عبد الكريم خليفة، وآخرون كثر. وتضاف إلى تلك المفارقة أن المناقشة

جرت في 1 سبتمبر- أيلول من العام 1990 أي بعد مرور شهر على اجتياح العراق للكويت وكانت الظروف مضطربة وفيها توتر كبير، وتوشك أن تندلع حرائق عاصفة الصحراء، ولذا كنت أقوم بتدقيق النسخة النهائية وعيناي وأذناي على الأخبار. وفي نكتة أثارت الحضور قال الدكتور نهاد الموسى هذه مناقشة الفاتح من سبتمبر. في إشارة لثورة العقيد القذافي التي توصف عادة بتعبير الفاتح من سبتمبر. وهي نكتة جعلتني دائم التذكر لهذا الموعد، فهو من المواعيد التي لا تنسى.

ولا بد من مرور أشهر قبل التخرج، وفي الفصل الثاني من العام الجامعي نفسه جرى الاحتفال بتخريجنا في ستاد عمان. وشرعت بعدها أحاول البحث عن مكان للعمل يتناسب ومؤهلي الجديد. فتقدمت بطلب لجامعة فيلادلفيا قيد التأسيس. وطُلبت لمقابلة في مكتب ارتباط في شارع الملكة نور. وكان المكلفان بإجراء المقابلة د. محمد المقوسي نائب سابق لرئيس الجامعة االأردنية وهو أستاذ في كلية العلوم مجاز إجازة تفرغ. ود. محيي الدين توق. وقد خرجت من المقابلة مطمئنا لنتيجة إيجابية فالرجلان لا يعرفان الا القليل في تخصصي، وما قلته في اللقاء ربما هو أدعى للانبهار به أكثر من أي شيء آخر. جرت المقابلة فيما هم يتهيؤون لبدء التدريس. ولما بدأ التدريس فوجئت بأنهم عينوا عضو هيئة تدريس من اليرموك مجاز إجازة تفرغ. وقلت في نفسي لا بد من إبلاغ السيدة ليلى شرف فهي رئيسة مجلس الإدارة ومن كبار المساهمين. فوعدَتْ أن تبحث الأمر مع السرطاوي، وهوأيضا من مديري الجامعة ومن كبار المساهمين. انتظرت قليلا. وحين لم تراجعني سعيت لإعطاء محاضرات في الأردنية بصفة محاضر غير متفرغ. وأسند الدكتور نهاد الموسى إلي تدريس شعبة العروض. وأخرى في فن الكتابة والتعبير. وفي الفصل الثاني من العام الجامعي

91/ 92 نشرت الأردنية في الصحف إعلانا تطلب فيه تعيين أعضاء هيئة تدريس لكلية الآداب وتقدم كثيرون.

وبعد غربلة الطلبات، وتنخيلها، وقع الاختيار علي وعلى زميل آخر هو د. عبدالله عنبر (أبو عمر) وتقرر تعييننا في 8 / 9/ 1992. وللحق لا بد من إشارة، فبعد أن ردّ رئيس الجامعة التعيين، وكان رئيسها في حينه د. فوزي غرايبة، تدخل وسيط للزميل الآخر، وهذا الوسيط محامٍ شغل منصب وزير ثقافة 1988، وقبل ذلك عميدا لكلية الحقوق. ولا ريب في أن هذه الوساطة لم تشملني فهذا الوزير – أيا كان- لا يعرفني، ومن المؤكد أنه أيضا لا يعرف الزميل أبا عمر، إنما الوسائط فيها تداخلات متسلسلة، وحلقات متتابعة، ولما تراجع الرئيس عن رد تعيين الزميل عنبر على ذمة الراوي، ووفق التقديرات المحسوبة، شعر بالحرج الذي لا مخرج له منه إلا تعيين الاثنين. وللحق أيضا لا بد من التنويه للجهد الذي بذله عميد الكلية آنذاك د. أحمد ماضي لتوخي النزاهة في الاختيار. فقد كاد أحد أعضاء هيئة التدريس يعترض علينا لأنه يريد تعيين عفيف عبد الرحمن المجاز من اليرموك. فرد العميد مصرا على أن يكون التعيين لعضو هيئة تدريس ثابت لا لآخر مجاز يعمل لسنة ثم يغادر. وعلى نية التوفيق التحقنا بالدوام، ونشر اسمانا على جدول المواد في بداية الفصل الأول.

ورب سائل يسأل: هل من الطبيعي أن يتدخل المتوسطون في تعيين عضو هيئة التدريس في الجامعة التي يظن أنها حصن النزاهة، والقوانين التي تحترم وتصان. ردا على هذا نقول: من الناحية النظرية ينبغي أن تكون كذلك، ولكن في الأردن، وربما في بلدان أخرى، لا بد لك من وساطة لتنال ما تريده بصرف النظر عما لديك من أهلية أو كفاية. ففي إحدى الجامعات توسط الرئيس نفسه لتعيين أحد المتقدمين لوظيفة عضو هيئة التدريس، وتقدم كثيرون، وأجريت لهم مقابلات. وفي النهاية رشح مجلس القسم خمسة من المتقدمين رتبت أسماؤهم

وفق كفايتهم، فكان المحسوب على الرئيس هو الخامس. وهنا وجد نفسه لا يستطيع تجاوز الأربعة وتعيين الخامس. فما الحل؟ لم تطل حيرته، قرر تعيين الخمسة. مع أن الإعلان كان ينص على أن المطلوب واحد لا أكثر. وتكررت هذه النادرة لدى تعين ثلاثة من أعضاء هيئة التدريس في جامعة أخرى، إذ كان الرئيس وسيطا لواحد من الثلاثة، فكان ترتيبه الأخير. فقرر تعيين الثلاثة مع أن القسم ليس في حاجة إلا لواحد لا غير.

والتوسط في الجامعات الأردنية معروف، وهو القاعدة، وما لم يتم عن هذه الطريق هو النادر، والشاذ. ولذلك نرى التعليم الجامعي في تراجع، إن لم نقل في انحدار سريع. حتى إنك لتجد من حصل على درجة الدكتوراه يقعد به اقتداره عن كتابة الجملة سليمة من الأغلاط الأملائية، والنحوية، عاجزا عن ربط العبارات بعضها ببعض. وتداولت مجموعة من خريجي الماجستير ما يشبه الفضيحة. فقد طلبت إحدى الجامعات تعيين أعضاء هيئة تدريس من حملة الماجستير لمركز اللغات. وتقدم نحو 10 وأجريت لهم مقابلات. وانتظروا طويلا، وبما أنهم يعرفون بعضهم بعضا، فوجئوا بأن الذي عين لم يقدم طلبا، ولم يقابل. والترقيات هي الأخرى تجري على هذا النسق. فقد روى لي من لا أشك في روايته أن أحدهم تقدم للترقية لرتبة أستاذ في إحدى الجامعات. وقبل أن يمضي شهران على تقديمه كانت الحلويات توزع في القسم. أضاف: وُجِدتْ الأبحاث في درج أحدهم ولم ترسل لعرضها على محكمين. ولم يستبعد الراوي أن يغدو المعني بتلك الترقية رئيسًا لإحدى الجامعات فداعموه من العيار الثقيل.

وفي العام 1994 ضاعفت جهودي في الكتابة، وشاركت في عدد من الملتقيات التي تعقد حول موضوع أدبي معين. فتجمعت لدي فصول منسجمة بعضها مع بعضها الآخر، ودعمت وزارة الثقافة نشرها في كتاب بعنوان الرواية في الأردن في ربع قرن. وهو أول كتاب يصدر لي وأنا في الجامعة، وقد وقفت

فيه إزاء عدد من الروايات على وفق المراحل قيد الدراسة. فالقارئ يجد فيه تتبعا للبدايات لدى كل من الناعوري وحسني فريز وعبد الحليم عباس وتيسير ظبيان، وغيرهم. ثم ينتقل من البدايات إلى مرحلة لاحقة هي التجريب لدى كل من جمال ناجي ومؤنس الرزاز. وفي فصل آخر يقف القارئ إزاء الرواية والريف، وفي هذا يتناول الكتاب رواية وجه الزمان، ورواية حائط الصفصاف، وهما لطاهر العدوان، ورواية هاني أبو نعيم الموسومة بعنوان شطيو وهو اسم بطل الرواية. وفي فصل رابع يقف الكتاب وقفة متأنية لدى موضوع الرواية والسجن. وفيه وقفتان أولاهما عند رواية علي حسين خلف " حافة النهر " والأخرى عند رواية " الساحات "لسالم النحاس. وأخيرا يقفنا الكتاب إزاء المكان في الرواية لدى كل من مؤنس الرزاز، وجمال ناجي، وليلى الأطرش، وغالب هلسا. كل في رواية من رواياته.

إلى عُمان

ما إن مر شهر على التحاقي بقسم العربية في الأردنية حتى تواصل معي الصديق محمد ناجي عمايرة، وكان في حينه أمينا عاما لوزارة الثقافة، عارضا علي المشاركة في الأسبوع الثقافي الأردني في سلطنة عمان. وأبو لؤي كان قد عمل في صحيفة عُمان، وهي قيد التأسيس. ولهذا له محبون في السلطنة ولا يرفضون له طلبا. ويبدو أن الموضوع كان قيد الترتيب والتنسيق فوافقت على ذلك. وعندما أعد قائمة المشاركين، وهي طويلة، وبعث بها للدكتور محمود السمرة، وكان وزيرا للثقافة، توقف إزاء اسمي وسأل قائلا: وهل يستطيع الحصول على إجازة وهو لم يمض على تعيينه إلا شهر. فأجابه أبو لؤي عرضت على الدكتور فوافق. وقد لان د. أحمد ماضي عميد الكلية، ووقع على نموذج المشاركة فيما يُعد مؤثرا على أن لا تتكلف الجامعة بأي دعم مادي.

وفي ذلك الأسبوع رافقتُ فضلا عن عمايرة والسمرة عددا من الكتاب والشعراء والفنانين منهم محمود الريماوي ومحمود الشلبي وعلي الفزاع ونايف أبو عبيد وزياد بركات وعامر الصمادي وأفراد الفرقة القومية للفنون الشعبية ومصور من آل الرمحي. ونزلنا في فندق الهوليدي إن. فوجدنا مديرا أردنيا لذلك الفندق، وهو شقيق الدكتور صالح حمارنة أستاذ التاريخ في كلية الآداب. فكانت ضيافتنا جيدة فيها شيء من المراعاة. وألقيتُ في نادي القرم محاضرة عن الشعر في الأردن نشرت لاحقا في كتابي مقدمات لدراسة الحياة الأدبية في الأردن (2003) مع إضافات. واستمعنا لقراءات شعرية وأخرى قصصية، وشهدنا فعاليات فنية قدمت فيها الفرقة عددا من الأغاني، وعروضا تمثل فنونا وألوانا من الدبكة.

وفي الليلة الأخيرة قبل مغادرتنا أكرمنا مدير الفندق بدعوتنا إلى حفل غنائي يحيه لبنانيان يقلدان أغاني وديع الصافي ونصري شمس الدين وفيروز.

تغييرات جمة تعرضنا لها بين العام 1992 وما تلاه فقد تنقلنا من حي الحسين للزرقاء الجديدة ثم لعمان واتخذنا مسكنا مأجورا في ضاحية الأمير حسن على كثب من حديقة الأميرة راية وفي 1995 رزقنا طفلا هو آخر العنقود مثلما يقال وهو أحمد الذي درس الهندسة المدنية في الأردنية. وسبقه كل من محمود ومحار. وفي تلك السنة 1995 ابتعنا شقة في حي طارق(طبربور سابقا) من المرحوم عبد الناصر أبو الكاس.

في صيف 1996 تلقيت تصريحا يسمح لي بزيارة الضفة مع اثنين من الأبناء وهما منال وكانت في السادسة عشرة من عمرها، ومحمد ولما يبلغ الخامسة عشرة. وكانت هذه الزيارة فرصة ليتعرفا على البلد، وعلى الأهل، وعلى الأماكن التي درج فيها أبوهما وهو صغير . وقد رافق هذه الزيارة وتزامن معها التحضير لعرس ابنة شقيقتي أم عامر(سامية) وخطيبها وهو من أم الفحم. وتطلب الأمر الذهاب

مرارا وتكرار لهذه المدينة، وهي من أكبر المدن العربية في فلسطين المحتلة بعد الناصرة. فسكانها جلهم من العرب، ولا تخالطهم أقلية من أي نوع، خلافا لمدن أخرى مثل يافا وحيفا وعكا واللد والرملة، فالعرب فيها قلة. وفي نكتة جرت على لسان محمد قيل له: كيف رأيت أم الفحم؟ فقال فورا: ما فيها ولا فحمة.

بعد أسبوعين انفجرت الحوادث في الأردن، وانتشرت المظاهرات التي اجتاحت الطفيلة ومعان والكرك وغيرها.. لأن عبد الكريم الكباريتي رئيس الوزراء إذ ذاك(18/ 8/ 1996) اتخذ قرارا بإلغاء الدعم عن مادة الدقيق مما أسفر عن ارتفاع كبير في أسعار الخبز الذي يعد مادة أساسية في غذاء الأردنيين، الأغنياء منهم والميسورين، والفقراء المعوزين. وحُظر التجوال، وتدخل الأمن، والجيش، وتقرر تأجيل الدراسة فبدلا من أن تستأنف في 25 /8 أجلت لـ 15 /9 وتبعا لذا أصبح بمقدورنا أن نمدد البقاء في الضفة أياما أخرى. وفي أثناء العودة توقفنا على الجسر، وتأخرنا في التفتيش كثيرًا. ولكن الأمور مرت بصعوبة. وغادرناه بعد تسليمي إشعارا بضرورة مراجعة الدائرة. بعد المغادرة بقليل تذكرتُ وسألت نفسي: أي دائرة تلك التي ينبغي علي أنْ أراجعها، وعندما لم أعرف، قررت ألا أعرف وأن أنسى الموضوع.

وفي السنة 1998 أصبحت أستاذا مشاركا ومن حقي وفقا للتعليمات والأنظمة الحصول على سنة تفرغ. وفي الأثناء واصلت الكتابة في المجلات والصحف والدوريات المحكمة كدراسات والمجلة الفلسفية ومجلة مؤتة للأبحاث ومجلة عالم الفكر في الكويت ومجلة العلوم الإنسانية. ووضعت كتبا من بينها كتاب **فصول في الأدب الأردني ونقده**. وكتابا عن القاص فخري قعوار. وكتابا بعنوان **تحولات النص**. وشاركت في مؤتمر الحضارة الأندلسية في القاهرة الذي أقيم إحياءً لذكرى المستشرق الإسباني غارثيا غومس. وفي مؤتمر آخر في جامعة بير زيت وهو مؤتمرٌ سأذكره في الموقع الملائم.

عُمان مرة أخرى

في العام 1999 تقدمت بطلب عمل لدى وزارة التعليم العالي في سلطنة عمان. وكان الزميل محمود حسني قد سبقني لهذا وشجعني على المضي في الطلب. وبما أن إدارة الجامعة ووفقا للأنظمة والتعليمات تسمح لي بقضاء إجازة التفرغ حيث أريد شريطة أن أنجز بحثا على وفق المخطط المقدم للمجلس، فقد توكلت على الله وتابعت الإجراءات. وبالفعل غادرت عمان في شهر سبتمبر - أيلول وكان المركز الذي اختاروه لي كلية عبري للبنات. وهي كلية جامعية مدة الدراسة فيها 4 سنوات يمنح الدارس أو الدارسة فيها درجة البكالوريوس في التربية في التخصص الذي يشاؤه. ففي اللغة العربية يمنح بكالوريوس مختلف عن الذي يدرس العلوم وهكذا . في هذه المدينة التي تقع على بعد150 كيلو مترا من مدينة العين التي هي جزء من الإمارات طقسها حار جدا في الصيف ودافئ في الشتاء وليلها بارد قليلا. وفيها سوق أسبوعي والخدمات من مواصلات وهواتف ومياه وكهرباء متوافرة والعمل في الكلية مريح لكن الصفوف خصصت لها قاعات تشبه (الكارفانات) التي تجرّ جرا، وليست مباني اسمنتية كتلك التي للإدارة. وفيها أجهزة تكييف غالبا ما تشعر الطالبات بالانتعاش والمحاضر بالإزعاج للصوت الذي يصدر عنها. وقد تعرفت في هذه الرحلة على غير قليل من الأصدقاء من مصريين وسودانيين وعراقيين وسوريين وأردنيين وحتى تونسيين. ومثلما قال أحدهم مازحا: في هذه الكلية تتحقق وحدة الصف العربي.

كنت في هذه السنة عازبا. وسكنت وحيدا في شقة طابق أرضي، وفوق الشقة شقة أخرى يسكن فيها الزميل خليل وشاح وهو من كلية العلوم في الأردنية.

في العطلة الفصلية التي تقع بين منتهى الفصل الأول وبدء الثاني حضرت هدى من عمان بصحبة أحمد الذي كان في الرابعة وبضعة شهور، ونزلت في

مطار مسقط. وكان أخي الذي يصغرني (عيسى) مقيما في الخوير بمسقط مع عائلته، ويعمل منذ سنوات في إحدى الشركات. وذهبنا واستقبلناهما في المطار، وبتنا تلك الليلة في مسقط. وغادرنا إلى عبري صباح اليوم التالي. وكانت لدي سيارة تويتا. عدنا لعبري وبعد أيام من وصولها قمنا بزيارة العين، وتسوقنا منها، ثم تواصلنا مع أسرة المهندس محمد عبد الهادي، زوج ثريا ابنة عمة هدى (أبو زيدون) وحين علموا بوجودونا في العين ألحوا على ضرورة زيارتهم في أبوظبي. وهذا ما كنا نعتزم القيام به، فقد شجعونا بهذه الدعوة. وأقمنا لديهم، لا أتذكر ليلة أو أكثر، نعمنا فيها بأجواء أبو ظبي في الليل خاصة على شاطئ الخليج، علاوة على كرم الضيافة. بعد أن أخذنا حقوقنا من التنقل بين الشارقة ودبي وأبو ظبي، عدنا إلى عبري، وفي الأثناء طرأت لدينا فكرة، وهي تسديد ما تبقى علينا من أقساط لبنك الإسكان. وذلك يقلل من الفوائد المترتبة على القرض الذي كنا قد استلفناه عندما ابتعنا الشقة. وبالفعل كتبت شيكا بالمبلغ باسم هدى، وعند عودتها راجعت البنك وتم تبييض الدين.

وإقامتي في عُمان لم تزد على 10 أشهر، أو أقل قليلا. فقد وصلتها في شهر سبتمبر- أيلول ، وغادرتها في شهر يوليو - تموز من العام 2000. عندما اقتربت نهاية الفصل الثاني نبه هلال عميد الكلية الراغبين في تجديد العقود، وأعربت له ولسكرتيرة الكلية عن عدم رغبتي في تجديد العقد. ودهشت السكرتيرة لهذا الموقف، فكأنها ظنت أنني لم أعجب بعمان وبالعمانيين، فاعتذرت لها نافيا عني هذه الشبهة. وقلت لها بالعكس، لم أر منكم إلا كل جميل وحسن ومشجع على البقاء، لكن الحنين إلى الأهل يحول دون البقاء. والرغبة في المال أقل من أن تدعوني للتخلي عن أحبتي.

وفي الحقيقة لم تكن إقامتي في عُمان، حين أقارن بينها وبين إقامتي في المغرب، بالشيء الذي يثلج الصدر، وينعش القلب، ويذكرنا بقول الشاعر:

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

والعمانيون طيبون، ويتسمون بالهدوء، واحترام الغير، كما يحترمون أنفسهم، فقلما تجد عمانيين يتشاجران أو يتناكفان حتى في الحديث. ولديهم من الخلق ما يربو على الخلق الحميد، والحسن. بيد أن الأجواء لا تشجع على الاستمتاع بالوقت قطعًا، فلا علاقات اجتماعية بينهم وبين الوافدين، ففي المدة التي أقمتها لم أدخل بيتا من بيوت العمانيين، ولم يقم أحد منهم بزيارة، أو حتى التعرف على أي منا نحن الوافدين. حسبت أننا من طينة تختلف عنهم اختلافا كبيرا، لا تكبرًا ولكن هي طباعهم هكذا. في المدة التي قاربت الأشهر العشرة لم أعرف مكانا يحسن بالمرء أن يتنزه فيه. واقع الأمر أن مسقط مدينة نظيفة جدًا، وتحتوي على أمكنة كالجوامع، والمقاهي، وفي القرم توجد أشجار ومها عربية، وفي نزوى ثمة آثار، وقلعة مشهورة، وكذلك في صحار، وصور، وغيرها، إلا أن هذا كله لا يغري المرء بالقدر الذي رأيناه في المغرب وفي الأندلس. وربما كان هذا هو السبب الذي لم يرحني, كثرة المقارنة- الظالمة - بين البلدين.

ذات يوم جاءتني موظفة في إدارة الكلية، وأخبرتني أنها تتابع دراسة الماجستير في جامعة السلطان قابوس في مسقط. وأن الدكتور الصديق خليل الشيخ هو المشرف على رسالتها التي نسيتُ موضوعها، وأنه طلب منها الاستعانة بي. وتلقيت منها رقمه واتصلت به، ووعدته إن قمت بزيارة مسقط في أي وقت كان، سأتصل به، وأخبره بقدومي، لنلتقي. وبالفعل بعد سفر (أم محمد) إلى عمان حان موعد ذهابي لمسقط، فاتصلت به والتقينا في إحدى المقاهي، وتناولنا عصيرا. وكانت المقهى تضم خليطا من الرجال والنساء، ولفت نظري ما في ذلك من غرابة، إذ كنت أعتقد أن الاختلاط في المقاهي في عُمان ممنوع كغيرها من دول الخليج لا سيما السعودية. وتذاكرنا شيئا من الشعر، ومن

أخبار الآخرين، وسبب الدهشة ملاحظتي السابقة عن تغييب المرأة في عُمان تغييبًا تامًا.

ولكن هذا تغير في أيامنا هذه، فما ذكرته مضى عليه نيف وثلاثون عامًا. والناس قد يتغيرون على رأي عمر بن أبي ربيعة:

لئن كان إياه، فقد حال بعدنا عن العهد، والإنسان قـدْ يتغيَّرُ

وفي جامعة السلطان ثمة مدرس مصري أظنه أحمد درويش، وهو كعادة بعض الوافدين يكتبون أشياء لا قيمة لها، إلا من حيث أنهم يريدون النفاق لمن يخدمونهم بمقابل أو بغيره. فقد نشر فصلا يزعم فيه أن الشاعر العماني أبو مسلم البهلاني نظير أحمد شوقي في مصر. وهذا يتكرر في كتابين نشرهما؛ الأول مدخل إلى دراسة الأدب في عمان. والثاني تطور الأدب في عمان. ويذكرني هذا بزميل التقيته في جامعة الملك سعود، فوجدته معنيا ببحث عن العنوان في الشعر السعودي، وأخبرني أنه اطلع في استقصائه لهذا البحث على مائة ديوان. فسألته مازحا وهل هذه الدواوين المائة شعر حقيقي أم أي كلام؟ فقال ضاحكا: هي كما قلت، لكن نريد أن نُطْعم خبزا. لم تمض إلا سنة بعد هذا الحديث حتى أنهيَ عقده، وعاد إلى الأردن ملومًا محسورًا. والحق أن ثمة أساتذة كبارًا يفعلون هذا منهم من كتب كتبا عن رواية الخليج، أو الشعر الإماراتي، أو القصة، أو السيرة، وهذا شيءٌ لا اعتراض عليه إذا كان فيه ما فيه من نقد يتوخى الحقيقة لا تشويه الأدب لغرض لا علاقة له بالأدب.

على رأي فريد الأطرش

في أثناء حديثي السابق عن طفولتي ذكرتُ فيما ذكرت الناشط السياسي حكم بلعاوي، وأنني التقيته في تونس. وأن الظرف الذي التقينا فيه لم يكن موضوعا للحديث، وإنما وردت الإشارة إليه عرضا إذ كان الموضوع متعلقا بأبيه الشيخ عمر بلعاوي (أبو حكم) وفضله علي. ولكني زرت تونس في العام 1990

وتحديدا في شهر ديسمبر كانون الأول للمشاركة في مؤتمر الكتاب والأدباء العرب التاسع عشر ومهرجان الشعر الذي يقام عادة على الهامش. وممن شاركونا السفر في ذلك الحين سالم النحاس و عمر شبانة وعلي الفزاع وإبراهيم الخطيب وفخري صالح وهاشم غرايبة وعز الدين المناصرة الذي انضم إلينا قادما من الجزائر. وآخرون لا أتذكرهم جميعا. ونزلنا في فندق الشرق، وهو فندق راق، وفيه مرافق لعقد المؤتمرات، فضلا عن المطاعم المتعددة، والمقاهي. وفي ذلك المؤتمر تعرفنا على تونس.

نظم لنا الاتحاد التونسي رحلة إلى الحمامات، وفيها فندق من فئة 5 نجوم لمستثمر من هواة الأدب، أتذكر الجزء الأخير من اسمه (بوذنيبة). وقد أكرمنا غاية الكرم، وزرنا المنتجعات في الحمامات، وفيلا عاش فيها أحد الكتاب الأمريكيين معجبا بالطبيعة التونسية التي ما إن وقع بصره عليها حتى هام بها عشقا وشغفا، وباع ممتلكاته في أمريكا، وعاد لتونس كي يقضي بقية حياته وعمره في تلك الربوع التي هي في رأيه جنة الخلد، ولعله طرب لأغنية المرحوم فريد الأطرش:

تونس أيا خضرة يا حرقـــة الأكباد
غزلانك البيـضا تصعب على الصياد

وفي أثناء الطريق تبادلنا الطرائف، والأشعار، والنوادر، وعيون الأخبار، والمساخر، وكان بيننا أحد الجزائريين الذي لا ينضب معينه من النكت. فما إن بدأت الحافلة بالمسير حتى وصلنا وهو لا يفتأ يروي النادرة أو النكتة تلو الأخرى، دون أن يقع في التكرار مرة واحدة. وهات ياضحك!!. وساعده بعضهم في التنكيت.

وفي وقت آخر زرنا القيروان، وهي تاريخية تشبه في تصاميمها فاس ومكناس ومراكش، لكن الجو فيها رائق لا يشكو المرء فيها حرا ولا بردا. ولفت

نظري في إحدى مكتباتها كتاب مائة ليلة وليلة، وهو كتاب يكاد يكون مجهولا في الشرق العربي. فالكل يتحدث عن ألف ليلة وليلة. وابتعته فورا. واستعاره مني سليم الأنصاري، وللأسف لم يعده على عادة الكثيرين. وفي ذلك المؤتمر الذي عقد فيما كانت أساطيل أميركا والغرب الأوروبي تتهيأ للانقضاض على العراق، فيما سمي لاحقا بعاصفة الصحراء، انتخب محمد العروسي المطوي أمينا عاما لاتحاد الكتاب العرب، وأصبحت تونس هي مقره بعد طرابلس.

والعروسي المطوي(1920- 2005) فيما أظنّ منشئ مجلة (قصص) في تونس، وصاحب مجموعات قصصية عدة، وهو مؤلف رواية التوت المر، ورواية: من الضحايا، وحليمة، وطريق المعصرة، وهي مجموعة قصص. وله ديوان من الدهليز، وحقق كتبا كثيرة منها أنموذج الزمان في شعراء القيروان. ومن كتبه سيرة القيروان.

وفي العام 1995 تلقى قسمنا دعوة للمشاركة في مؤتمر بعنوان مجادلة السائد في الأدب واللغة والفكر. على أن يعقد المؤتمر في شعر فبراير من العام 1996 وعُرضت الدعوة على المجلس، ولم يبادر أي من الزملاء للمشاركة. وحثني فيما أذكر الدكتور إبراهيم السعافين على انتهاز الفرصة، وزيارة تونس. ووضعت خطة بحث في موضوع من نحو الجملة إلى نحو النص؛ نظرٌ وتطبيق. وكتبت البحث وبعثت به لتوفيق بن عامر رئيس اللجنة التحضيرية في المؤتمر. وجاءتني الموافقة على قبول البحث، والمشاركة، على أن تتحمل الجامعة التونسية في منوبة شارع 9 إفريل نفقات الإقامة حسب.

وقابلت العميد، الراحل عبد الرحمن شاهين عليه رحمة الله وساومني، ثم قرر دعمي بتوفير جزء من ثمن التذكرة. ولم يكن ثمة خط جوي مباشر من عمان إلى تونس، وأظن هذا لم يتغير إلى الآن. فدلني الكاتب فخري فعوار على قريب له يدير مكتبا سياحيا قريبا من فندق الكومودور. فوفر لي تذكرة: عمان – أثينا

– تونس؛ ذهابا وإيابا. وسافرت في 2 شباط – فيفري 1996 وبلغنا تونس مساءً وكانت الأمطار غزيرة جدا. وبعد الإجراءات والخروج من الأبواب طلبت سيارة تاكسي واشرت له أن يأخذني إلى نزل ابن خلدون. وهو النزل الذي سبق أن قيل لي في مراسلاتهم إن الضيوف سيقيمون فيه، وهو يتوفر على قاعة لعقد الفعاليات بالإضافة لبعضها في الجامعة.

الأدب الفلسطيني

وجدت في طريقي القليل ممن أعرفهم. وتعرفت على كثيرين؛ منهم المرحوم أحمد مختار عمر صاحب الدراسات اللسانية والصوتية وكتاب عن اللغة والجنسين، وحسن حمزة، من جامعة ليون، فيما أظن، وشكري المبخوت، وعبد السلام المسدي، ورجاء بن سلامة، ورشيد يحياوي، وآخرين كثر من مختلف البلاد العربية، وبعض البلاد الأوروبية، وأمريكيا اللاتينية كرئيف خوري. ونشر البحث في جامع الأعمال التي قدمت في المؤتمر، ونشرته أيضا في كتابي الموسوم بعنوان الأسلوبية ونظرية النص بيروت 1997. هذا المؤتمر سبق مؤتمرا آخر في نيسان- إبريل من العام 1996 في جامعة بير زيت وقد أتاح لي فرصة زيارة الوطن المحتل، وزيارة قريتي عانين، وإحياء ذكرياتي في كل من جنين ونابلس مع التطواف في جنائن رام الله، والبيرة .

كان المؤتمر حول الأدب الفلسطيني بين المنفى وصدمة الاحتلال. رافقني في تلك الرحلة المرحوم حسني محمود صاحب الكتاب أدب المقاومة في ظل الانتداب البريطاني، وكتاب إميل حبيبي والقصة القصيرة، وغيرهما من كتب. وفي ذلك المؤتمر الذي حللنا فيه ضيوفا على فندق (الحجل) في أكثر شوارع رام ا لله بهاءً، وآنق أحيائها بيوتا، وأنضرها حدائق وزروعا، سنحت لنا فيه الفرصة للقاء ببعض الكتاب كمحمود شقير، وأحمد حرب، ويحيى يخلف، و زكريا محمد، والمتوكل طه، ومحمد حلمي الريشة، وفاروق مواسي، ومحمد علي طه، ومحمد

القيسي، الذي جاء للمشاركة في الفعاليات الشعرية المرافقة للمؤتمر، وعدد آخر من مدرسي قسم اللغة العربية، وأتيحت لنا الفرصة للتعرف على هذه الجامعة التي كانت قبيل الاحتلال كلية فحسب.

تواصلتُ مع أهلي بعد انفضاض جلسات المؤتمر الرئيسية، فجاء اثنان من إخوتي ،وهما عاصم وياسر، بسيارة هي أقرب إلى النوع المعروف (بمكرو باص) وكان الطقس ماطرا. وبسبب غزارة الأمطار تدفقت السيول عند بلدة بيت ريما، وكدنا نتوقف عن متابعة المسير خشية على السيارة من أن تجرفها السيول فنذهب جميعا في خبر كان. ووصلنا البلدة ليلا، واقمت في البلدة أياما قمت فيها بزيارة جنين، ونابلس، والتجول فيها للتعرف على التغيير السكاني والعمراني، وإذا بها تغيرت كثيرا. وأصر أبو علاء ابن عمتي صفية - رحمها الله - على مرافقتي لمطعم خميس. ولم يكن الهدف من ذلك تناول الفطور فحسب، بل كان الهدف الحقيقي إحياء الذكريات. الشارع الفرعي المؤدي إليه على ما كان، لكن المعلم خميس لم يكن موجودا، والذي يجيب الطلبات شخص آخر. وسألت أباعلاء عنه، فقال لي: الدايم هو الله، توفي من زمان. وهذا أحد أولاده. قلت: لا جرم أن الفول هو الآخر تغير، ولم يبق على ماكان، فكل من عليها فان.

اقترحت عليه العودة للبلد فأصرّ إصرارا كبيرا على تناول الحلوى التي تشتهر بها المدينة (الكنافة) ومن أين؟ من عند الشنتير. قيل هو أفضل من يعد الكنافة النابلسية على أصولها. لكني فوجئت، إذ لم تكن مثلما كانت في زمن المصري والعكر اللذين ذكرتهما من قبل. فقد كانت النكهة باهتة، والطعم ليس كالطعم الذي كان، وسألت المعلم الشنتير، فقال لي: ساقا الله على تلك الأيام. وقلت ذاهلا: أي أيام يا رجل؟ فقال أيام السمن البلدي، والجبن البلدي، وأخذ يعدد. ثم قلت: وأين ذهب هذا كله؟ هل انقطع؟ فقال: لا، لم ينقطع، لكنه غال. وإذا اعتمدناه في هذه الكنافة فسيكون الثمن غاليا كغلائه، ولا

يستطيع الناس تناولها وتذوقها، لذا نضطر لتقليل الكلفة بما تيسر ليبقى السعر في حدود قدرة الناس.

في شباط من العام 1997 توفي والدي رحمه الله عن عمر يناهز التسعين عاما ولم استطع السفر لحضور الدفن وتقبل العزاء لكن أخي الأكبر فؤاد غادر إلى البلد بفيزا. وتقبل العزاء لثلاثة أيام. كان رحمه الله قد أصيب أول الأمر بجلطة قيل لنا إنها خفيفة. ونقل إلى المستشفى. وأعيد إلى المنزل وفقا لما قيل لي. وبقي متعبا لا يستطيع الكلام، ولا تناول الطعام بطريقة طبيعية، وظل جسمه يهزل وينحف، وقد استخرجوا لي تصريحا. وفي العطلة النصفية غادرت عمان عن طريق الجسر وزرته واطمأننت عليه. وعندما عدت إلى منزلي في طارق كنت أخشى عليه من الفراق.

ولم يكن في العام التالي من أشياء تستحق الذكر عدا أنني في العام 1999 نشرت كتابا عن وزارة الثقافة بعنوان تحولات النص. وأجزت إجازة تفرغ قضيتها في سلطنة عمان، مثلما مرّ، وذكر، على سبيل التفصيل، لا الإيجاز. وعدت من تلك الإجازة في صيف العام 2000 وهو العام الذي هيأتُ فيه كتابي عن جبرا إبراهيم جبرا الأديب الناقد للنشر. وهذا الكتاب(2001) هو الكتاب الذي على أساسه منحت إجازة التفرغ التي قضيتها في عُمان. تناولت فيه المكان في رواياته، وتناولت قصصه القصيرة وتناولت إسهامه في كتابة السيرة متوقفا لدى البئر الأولى، ثم شارع الأميرات. وتناولت جبرا شاعرا، وهذا الجانب قل دارسوه. فوقفت إزاء الأسطورة في شعره، وإزاء الوطن، وبنية القصيدة النثرية، وما فيها من التماسك النصي. وفي الفصل الخامس والأخير وقفت عند جبرا ناقدا. فعرضت لتكوينه المعرفي، ورصيده المصطلحي، وما في خطابه النقدي من تنوع منهجي. فهو أقرب ما يكون للتكاملي، وتضافر المعارف منه إلى منهج محدد يلتزم به التزاما صارما. ولا يخلو هذا الخطاب من بعض الانطباعات التي تفتقر للمنهج.

11 سبتمبر

قبل سفري إلى عمان كنت قد أرسلت مخطوط كتاب مع الصديق يوسف جاد الحق، وهو روائي فلسطيني(توفي الأحد 30 يونيو – حزيران 2024) من مواليد قرية يبنا قرب يافا سنة 1930 ومقيم بدمشق. وله بضع روايات. منها رواية " قبل الرحيل" التي يروي فيها تجربته، وتجربة عائلته مع التهجير القسري في العام 1948 ورواية " المصير". و" لقاء مع ملك الموت" و" محرقة غزة "، ليسلمه لاتحاد الكتاب العرب بهدف نشره. وعند عودتي من عُمان، وبعد وقت طويل جاءتني رسالة لم أعد أتذكر ممن، ولعلها من حسن حميد أو أي صديق آخر، يخبرني فيها بصدور الكتاب. وهو بعنوان" ظلال وأصداء أندلسية في الأدب المعاصر " وفي ذيل الخبر ما يفيدني برصد مكافأة عن الكتاب و100 نسخة مجانية على سبيل الإهداء.

والكتاب المذكور من بابين، أولهما للشعر، وفيه أربعة فصول: الأول منها عن الرموزالأندلسية والإسبانية في شعر محمود درويش. وهو بحث سبق لي أن قدمته في مؤتمر الحضارة لأندلسية المنعقد في القاهرة سنة 1996 تخليدا لذكرى المستشرق غارثيا غومث. ونشر في عدد خاص من مجلة كلية آداب القاهرة. والفصل الثاني عن مصرع لوركا وأثره في الشعر العربي. والثالث عن تأثر محمد القيسي الشاعر الفلسطيني بشعر فريدريكو غارثيا لوركا وهذا أيضا نشر في مجلة علامات في النقد في ع 40، والرابع عن استدعاء النموذج الأندلسي في قصيدة النثر، وهو دراسة لقصيدة " مرتقى الأنفاس " لأمجد ناصر الصادرة عن دار النهار ببيروت في العام 1997 . اما الباب الثاني، ففيه ثلاثة فصول عن النثر: الأول منها عن قصص الحمراء لواشنطن آرفنج. والثاني عن ثلاث روايات هي: المخطوط القرمزي لأنطونيو غالا، وظلال الرمان لطارق علي

(باكستاني) وليون الأفريقي لأمين معلوف. والثالث عن " ثلاثية غرناطة " لرضوى عاشور، وقد وصف الكتاب باعتباره مساهمة في الأدب المقارن.

وتراءى لي أن الذهاب لدمشق هو السبيل الوحيد للحصول على النسخ، والمكافأة. وانتظرت نهاية الفصل الصيفي الذي يوشك على الانتهاء في 25 /8 من العام الجامعي 2000/ 2001 وأعددنا نفسينا أنا وهدى للسفر إلى دمشق. واخترنا الذهاب عن طريق المواصلات لا بالسيارة إذ كنا نسمع عن سرقات تعرض لها مسافرون فقدوا سياراتهم في سوريا. وعندما حان الوقت قام ابننا محمد بإيصالنا إلى سفريات الشام في العبدلي. وغادرنا على نية التوفيق. وفي الشام نزلنا بفندق متوسط التكلفة، وتنقلنا في سوق الحمدية تارة، والصالحية تارة، أبو رمانة، والمرجة، والمتحف الحربي، وتكية السلطان سليم، وفي هذا الموقع شاهدنا الممثل السوري غسان مسعود الذي عرفناه من الأدوار الجيدة التي أداها على الشاشة الصغيرة.

وفي اليوم الرابع لوصولنا تركتُ هدى في الفندق، وطلبت من سائق سيارة أجرة أن يذهب بي لأوتستراد المزة الذي يقع فيه الاتحاد. قبل أن أترك السيارة أشار السائق للمبني موضحا أن الإدارة في جزء، بينما بقية الأبنية هي مطابع للاتحاد، ومرافق، وبعض البنايات السكنية التي وزعت على الراغبين بالتملك. حمدت الله أن في البلاد العربية من يقدرون الكاتب، وعندما دخلت المبني سلمت على الأديب علي عقلة عرسان. وكنت قد عرفته سابقا في المؤتمر العام الذي عقد بعمان سنة 1994 – فيما أحسب أو قبل ذلك بسنة- ودعاني لتناول الشاي إلا أنني اعتذرت. واستدعى موظفا شابا مؤدبا وكلفه بتلبية طلبي المتضمن النسخ والمكافأة. خرجت من المبني أحمل رزمتين، كل منهما 50 نسخة. وأما المكافأة فلا تقل عن 25 ألف ليرة سورية.

ولفتت نظري على الغلاف الأخير للكتاب بقعة مستطيلة طمست بلون مباين للون الغلاف. وموقعها يثير الاشتباه، إذ المعتاد أن توضع صورة المؤلف في ذلك الموقع. وسألتُ الشاب، فقال لي: إن في الرقة كاتبا سوريا باسم إبراهيم الخليل- وهو روائي له "حارة البدو"، و" الدهس" وهما روايتان. وقد تعرفت عليه لاحقا 2006 في المؤتمر الذي عقد تكريما للروائي الراحل عبد السلام العجيلي- ومصمم الغلاف وقع في خطأ، ووضع صورة الكاتب السوري بدلا من صورتي وطبع الكتاب والغلاف بنسخه كاملة. وقبل التوزيع تمكن أحد معارفي من الانتباه لهذا، فأوعز إليهم بتلافي الخطأ، ولم يكن ثمة طريقة للتصحيح سوى طمس صورة (الخليل) بهذا اللون.

وفيما نحن نتسوق في أحد شوارع دمشق العامرة، وفي دكان لبيع الأحذية، إذا بالشاشة الصغيرة تبث خبرا عاجلا وهو النبأ الخاص بمهاجمة الطائرات لمركز التجارة العالمي في نيويورك والبرج الآخر المجاور له، والتلفزيون يبث صورا للهجوم، والبائع يضحك من أعماق قلبه، قائلا: إن الله يمهل ولا يهمل، مشتفيا بالأمريكيين، معتقدا أن قادة الطائرات المهاجمة أمريكيون. وأنهم ينسحب عليهم المثل: فخار يكسر بعضه. قلت في نفسي: الله يستر ما يعقب هذا الهجوم شيء خطير يحرق الأخضر واليابس.

في صباح اليوم التالي غادرنا دمشق، وظل المذياع في سيارة الأجرة طوال الطريق يبث أخبارا ورسائل وتقارير عن الحادث، وسمعت أن الصديق فخري قعوار نشر مقالا في زاويته اليومية في الرأي(شيء ما) يؤكد فيها أن المهاجمين ينتسبون للجيش الأحمر الياباني. وقد كثرت التأويلات والاجتهادات والروايات عن هذا الحدث. ولم تتضح الحقيقة إلا بعد أسابيع عندما كشف تنظيم القاعدة الذي يرأسه أسامة بن لادن عن مسؤوليته، وابن لادن هذا أحد مجاهدي افغانستان المدعوم هو والمجاهدون من الولايات المتحدة لسنوات

طويلة، حتى قيل إن ما أنفقته على أولئك المجاهدين يربو على عشرين تريليون دولار صرفت لتحقيق هدف ثبت ألا قيمة له، وهو دحر السوفيات من أفغانسان. وكأن الأمريكيين كانوا يظنون أنهم بطرد السوفيت منها يحلون هم مكانهم، ولكن السحر انقلب على الساحر، فقد طردوا هم أيضا وكان انسحابهم منها هروباو(فضيحة بجلاجل).

وفيات الأعيان

في العام 2002 اختيرت عمان عاصمة للثقافة العربية. وألفت لجان، ووضعت خطط لهذه الاحتفالية. وبعضهم وجد فيها فرصة سانحة ليكتب وينشر ما يشاء. وصدرت كتب كثيرة مختارات شعرية من فلسطين، ومن العراق، ومن سورية، ومن مصر. ومختارات قصصية وقد غلب على واضعي تلك المختارت إما أنهم من أصحاب العلاقة الجيدة بمقرري اللجان، أو لأنهم بالفعل قادرون على القيام بما عهد إليهم به. وتقرر إصدار ما يسمى مختارات أردنية. ووقع الاختيار على عدد من الدراسين منهم خالد الكركي وأنا إذ طلب مني كتابٌ نقديٌ. وقضيت شهورا في تصنيف الكتاب الموسوم بعنوان في النقد والنقد الألسني. وبعد أن طبع على الحاسوب قدمته للجنة التي اتخذت من بيت الفن في شارع الأمير محمد بعمان مقابل محطة وفا الدجاني للوقود مقرا، وعلمت بدفعه للنشر عن دارالكندي في إربد. وهذا الكتاب الذي يحمل إصداره تاريخ 2002 من الكتب التي أثارت الاهتمام كثيرا ولعله أول كتاب في موضوعه يصدر في الأردن. وقابلت لاحقا طلابا في جامعة اليرموك وجدارا وغيرها يسألون عنه ويريدون الاطلاع عليه، فمن قرؤوه أفادوا منه فائدة جلى. وهو يتألف من فصول أولها عن النقد الرومانسي والثاني عن النقد السوسيو تاريخي والثالث عن النقد الشكلي أي نظرية النقد الأنجلو أميركي، والرابع والأخير عن النقد اللساني. وفي الكتاب تطبيقات إذ لا يكتفي بالتنظير بل يجعل التطبيق جزءا من التنظير.

هذا عدا الأنشطة الأخرى كالندوات، والمؤتمرات.

وفي العام 2002 فقدنا المرحوم مؤنس الرزاز الصحفي والقاص الروائي.

ربطتني بمؤنس علاقة ليست حميمة كعلاقته بآخرين من مثل الياس فركوح، أو ناهض حتر، أو خالد الكركي، أو عبدالله رضوان. كانت علاقتنا ثقافية لا أكثر. فأول ما بدأ المودة بيننا استضافتي له في العام 1993 وكنت قد قطعت شوطا في تدريس مادة فنون أدبية حديثة للحوار مع الطلبة عن روايته " الذاكرة المستباحة " الصادرة ببيروت 1991. كنت قد شجعتهم على قراءتها وعرضت لبعض القضايا فيها من مثل المكان، واللغة ،والحوار، وموضوع الرواية، وهو ترهل الحركة الحزبية والسياسية في البلاد. وذلك الترهل رمز له بالأب الاستاذ عبد الرحيم، وكذلك الابن، الذي لم يكن كأبيه بل كان شبه معاق إلخ.. وتحدث إلى الطلبة ثم سئل سؤالا عن المرأة في الرواية، فهي مغيبة تماما إلا من شخصية الخادمة السيرلانكية آريا. فأجاب قائلا المرأة في عالمنا العربي مغيبة مثلما هي في هذه الرواية. وضربَ تركيا مثلا على من لا تغَيَّبُ المرأة لديهم ، فذكر تانسو تشيلر التي كانت في حينه رئيسة وزراء تركيا. وقال إذا وصلنا هذا المستوى، فسيكون موقع المرأة في الأدب العربي، وفي الرواية خاصة، موقعا أكثر حضورا.

ولعلي ها هنا أتذكر يوما كنت قادما لوزارة الثقافة لأمر لا أتذكره، فلقيني عند المدخل، وتوقف معي ودار بيننا حوار عن مجلة أفكار التي كان رئيس تحرير لها. وشكى من أن اعضاء هيئة التحرير غير فعالين، وتقاريرهم عن المواد التي يُسألون عن صلاحيتها للنشر تشبه الألغاز والأحاجي. ثم سأل: لم لا تنشر مقالات في المجلة؟ فاعترضت قائلا لي مقال في العدد الأخير الذي تسلمتموه من المطبعة، فقال لم أره، لكن ينبغي لك أن تكتب في كل عدد، فأنت ناقد مهم.

وتناولتُ الرواية في الكتاب الذي ذكرته آنفا " الرواية في الأردن في ربع قرن " وتناولت له رواية أخرى، وهي متاهة الأعراب في ناطحات السراب. وكذلك

زرقاءاليمامة وسلطان النوم. ومجموعته القصصية النمرود، واعترافات كاتم صوت وليلة عسل وعندما عرض له العارض الصحي المفاجئ ونقل إلى المستشفى، تألمت كثيرا فهو لم يبلغ الخمسين بعد. وتذاكرتُ الأمر مع الصديق القاص رشاد أبو شاور، وقررنا أن نزورة في المستشفى وهو في العناية الحثيثة. وتوجهنا إلى مستشفى لوزميلا في اللويبدة. ووجدنا في طريقنا محمد عبد الله قواسمة، وسألناه عن الرزاز، فذكر لنا أن وضعه مستقر وغير مُطمئن. ودلفنا، وسمحوا لنا بزيارته، وكان مشهدا مروعا لا يحتمله المرء، فقد وضع له الأطباء أنبوبا في موقع الحنجرة للتنفس. وهو في غيبوبة. وسألنا الطبيب الذي نسيت اسمه فأخبرنا أنهم فعلوا كل ما يمكن والباقي على رب العالمين. وهذه العبارة يقولها الطبيب في العادة عندما يدرك أن الحالة الصحية للمريض ميئوس منها.

عندما توفاه الله شاركنا في التشييع، وكان مهيبا رأيت بين الناس أكاديميين وطلابا جامعيين وكتابا من مختلف الأعمار وصحفيين وجمهورا غفيرا يصعب تصنيفه. وزرنا أنا والصديق أبو شاور بيت العزاء. وحضر أخوه عمر الرزاز الذي كان فيما أظن وأحسب قادمًا من أميركا حيث يتابع دراسته.

بعد عامين نظمت ندوة تذكارا له في المركز الثقافي الملكي قُدمتْ فيها أوراق، وتناولت فيها بعض رواياته، ونشرت الأوراق جميعا في كتاب عن وزارة الثقافة بعنوان مؤنس الرزاز عامان على الرحيل.

كان رحمه الله، على كثرة تبرمه من الأوضاع، حاضر البديهة، وسريع النكتة. كنا مرة نحضّر لانتخابات رابطة الكتاب، ونستعرض أسماء الأعضاء، ونتساءل عند ذكر كل اسم من تراه يستطيع التأثير عليه. فعرض اسم المرحوم مصطفى الفار، وسأل أحدهم: مين بمون عليه؟ فصاح مؤنس: فتحي البس. وأفرطنا في الضحك. وذات يوم رأيته، وقد أطلق لحيته، وعلمي به حليق الذقن. فسألته بالعامية:

شايفك مربي لحية.

قال: أقل منها؟ مش عارفين نربي بهاي البلد ثور يحرُث. فبنربي لحية، اسمنا ربينا شي.

وفي إحدى الندوات، وكان من المشاركين، قرأ قصة منشورة في مجلة اللوتس- اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا أثارت الكثير من النقاش. كنت مديرا للندوة. وكان المرحوم ناهض حتر يرفع يده طالبا أن أسمح له بالتعقيب، ولأنني كنت أخشى أن يتطرف في تعليقاته كعادته فيفسد الندوة، ظللتُ أغض النظر عنه، فلاحظ مؤنس ذلك. فمال علي، وهمس: إعط دروا لناهض أحسن ينجلط.

بعد أشهر انتقل إلى رحمة الله الدكتور إحسان عباس الذي رأيته للمرة الأولى في مكتب الدكتور محمود السمرة عندما كان يشغل منصب نائب رئيس الجامعة لشؤون الكليات الإنسانية. وعندما حضر إلى الأردن منهيا صلته بالأمريكية ببيروت استقر في شقة في بناية على كثب من مستشفى الخالدي في الشارع المعروف باسم شارع ابن خلدون. مقابل فندق هلا إن. وقبل معرفتي به كنت قرأت له في أثناء دراستي كتابا عن شعر عبد الوهاب البياتي بعنوان : عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث. واستمعت ذات ندوة من البياتي نفسه حكاية هذا الكتاب الذي صدر في بيروت في وقت مبكر(1955). قال البياتي إن الدكتور إحسان عباس، وهو في الخرطوم، كتب مقالا عن ديوان " أباريق مهشمة " وبعث به لسهيل إدريس صاحب مجلة الآداب ورئيس تحريرها، فوجده طويلا، ومن الصعب نشره. ومضى البياتي قائلا لكنني كنت في تلك الأيام أعمل في المطبعة التي تقوم بطبع أعداد الآداب، واطلعت على التجربة الطباعية للمقال (البروفة) وشعرت بالخسارة الكبيرة إذا لم ينشر. فاقترحت على رئيس تحرير المجلة نشره في كتاب. قال: وتواصلنا مع إحسان عباس بالبريد، ولم

يبد أي اعتراض، وهكذا صدر الكتاب بالعنوان الذي جرى تعديلة بموافقة الناقد عباس.

وقبل تعرفي عليه قرأت له كتابا بعنوان " اتجاهات الشعر العربي المعاصر " الذي صدر في سلسلة عالم المعرفة الكويتية. وقد قرأته وأنا في المغرب. إذ كان من أوائل الكتب التي نشرت في تلك السلسلة وأظنه في العام 1977. ولم تفتني فرصة للتعرف على كتاباته إلا وانتهزتها. ففي كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب وجدت ضالتي المنشودة، وبغيتي المفقودة، وزوادتي المعقودة على أمل التعرف على النقد القديم بطريقة منهجية وموثقة. وفي هذا الكتاب اعتمد المرحوم على الكثير من نوادر المخطوطات. وفي سنة 1993 أو 1994 دعيت مع آخرين لندوة في المركز الثقافي الملكي عقدت تكريما له بمبادرة من الصديقين د. محمد عواد وإياد قطان. وشارك في تلك الندوة أناس كثيرون منهم نصرة عبد الرحمن وإبراهيم السعافين ويوسف بكار وأنا ولا أتذكر الآخرين إلا أن ما أذكره هو إدارة المرحوم د. ناصر الدين الأسد للندوة. وأخطأ مرارا في اسم السعافين فكان يكرره إبراهيم سعفان. وهذا اسم ممثل كوميدي مصري(توفي 1982).. فكان الجمهور يتفاعل في هذه الحال ظنا منه أن هذا الخطأ من فلتات اللسان التي تقع بنوايا حسنة لكني اكتشفت لاحقا أن المرحوم الأسد لم يكن يروق له الأستاذ السعافين، بل كان يتهمه – والله أعلم- بالأخذ من كتابه المنشور عن القاص خليل بيدس رائد القصة القصيرة في فلسطين في الكتاب الذي صدر للسعافين بعنوان نشأة المسرحية والقصة القصيرة في فلسطين الذي صدر بعمان(دار الفكر: 1985) دون عزو.

في تلك الندوة قدمت ورقة بعنوان إحسان عباس والنقد النصي. وقد أثارت نقاشا أغنى الندوة. ونشرت في مجلة دراسات التي تصدرها عمادة البحث العلمي في الجامعة الأردنية في ع 3 مج 22 سنة 1995. وجعلت منها فصلا

في كتابي الذي ذكرته سابقا بعنوان تحولات النص وقد صدر عن وزارة الثقافة 1999.

وازدادت علاقتي به قوة، وترددت إلى منزله صحبة الصديق الروائي رشاد أبو شاور طوال الأيام التي امتدت به حتى توفي. وكان بيته ملتقى لعدد من الكتاب والشعراء والأكاديميين اذكر منه: إبراهيم السعافين وحسين عطوان وعبد الجليل عبد المهدي، ومحمد شاهين وصدقي حطاب،ود. ياسين عايش. وفايز صياغ والروائية ليلى الأطرش. ومن الشعراء مريد البرغوثي وخيري منصور وإبراهيم نصرالله. وقد التقيت في واحدة من زياراتي المتكررة بالشاعرة الناقدة المترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، وبأحد الناشرين اللبنانيين، وعلمت أنه صاحب دار صادر للنشر والتوزيع. وقد زرته مع الصديق أبو شاور في المستشفى في مرضه الأخير. وكان ابنه البكر إياس قد حضر من كندا فيما أظن. وعندما توفاه الله شيعناه، ودفن في مقبرة الشركس في وادي السير.

كان المرحوم أحد أعضاء لجنة مناقشتي في الرسالتين: الماجستير والدكتوراه. ومن طريف ما سمعته في المناقشة قوله أن لو قدر لي أن أكون مكان أي منهم- أي المناقشين- لقلت فيهم ما يقولونه برسالتي – تواضع في غاية الأدب، والذوق، والخلق.

وفي الأول من آب – أغسطس توفي الشاعر محمد القيسي(1944-2003). وهو صديق حميم عرفته منذ عام 1968 عندما حضر ليشارك في ندوة عن الشهيد فايز حمدان في الأردنية، وألقى قصيدة ذكرت جزءا منها في السابق. وكتبت عن ديوانه راية في الريح، وعن خماسية الموت والحياة، وعن رياح عز الدين القسام، وهو ديوان صدر ببغداد يتصف بالبناء الدرامي 1974. ولم يصدر ديوانا إلا وكان حريصا على تقديم نسخة منه لي. وعندما جمع أعماله في ثلاثة مجلدات نشر أحد مقالاتي في الجزء الثالث منه.

وكانت وفاته مفاجئة. إذ علمت أن نوبة شديدة أصابته دخل على إثرها لمستشفى جيش التحرير بجبل الحسين. وهذا المستشفى يفتقر للمعدات والأجهزة الطبية الحديثة، ولإنقاذه كان ينبغي أن ينقل في أسرع وقت لمستشفى الأردن، بيد أن إدخاله لهذا المستشفى، مع إعفائه من التكاليف، يتطلب موافقة من ياسر عرفات. وتقول بعض الروايات إن الرئيس تأخر في توقيع الموافقة ففقدنا الشاعر الكبير بسبب البيروقراطية المطلقة التي كان عرفات حريصا عليها مثلما جاء في بعض الكتابات التي تؤكد أن لا أحد يستطيع أن يبتَّ في أمر مهما هان غيره.

عندما توفي شيع جثمانه، ودفن في الرصيفة في المقبرة التي دفنت فيها أمه حمدة. وحضر الجنازة جمع غفير من الكتاب والشعراء والأصدقاء. وزرنا أنا ورشاد أبوشاور وعدد من الأصدقاء بيت العزاء الذي أقيم في مدخل شقته التي أبتاعها قبل أشهر قليلة من وفاته عليه رحمة الله في حي المدينة الرياضية مقابل صرح الشهيد. بعد وفاته بعام أقامت رابطة الكتاب الأردنيين ندوة إحياء لذكراه، أدارها رئيس الرابطة د. أحمد ماضي. وفيها قدمت ورقة عن روايته الحديقة السرية. والورقة كانت بعنوان لغز الأنا في شعر القيسي ونثره. ونشرت الأوراق التي قدمت في عدد من مجلة الرابطة. وأعدت نشر ورقتي في كتابي الضرورة والاحتمال2008 . وكنت قبل وفاته في العام 1997 قد جمعت ما كتبته عنه وما أجري معه من حوارات في كتاب صدر ببيروت بعنوان محمد القيسي الشاعر والنص. وقلما تمر مناسبة يستذكر فيها إلا ولي مشاركة. فهو شاعر كبير وإن كان أعداؤه كثيرين. في العام 2017 جمعت ما كتبته عنه بعد الذي نشر عام 1997 في كتاب آخر ونشرته بعنوان محمد القيسي قيثارة المنفى وتباريح الشجن. ولا تفوتنا الإشارة إلى ما كتبه محمود الريماوي عنه في قصة قصيرة بعنوان خطأ طبي في مجموعته **رجوع الطائر** الصادرة بدعم من وزارة الثقافة عن

دار فضاءات للطباعة والنشر والتوزيع. وعلى الرغم من أنه لم يذكر القيسي تحديدا إلا أن من يعرف القيسي يدرك أنه هو المعني. وقد سألني حسين نشوان مرة قائلا هل قرأت ما كتبه الريماوي عن القيسي؟ فعلمت أنه يشير لهذه القصة. وهذا دليل يؤكد ما أتوقع.

كانت سنة 2002 التي اختيرت فيها عمان عاصمة للثقافة العربية مصحوبة بمفاجآت مأساوية للأسف.إذ فقدنا فيها ثلاثة من كبار الأدباء الروائي مؤنس الرزاز والشاعر محمد القيسي والدكتور إحسان عباس. صحيح أن القيسي وعباس توفيا في 2003 إلا أن وفاتهما تحسب من ذيوبل تلك السنة.

بعد ثلاث من السنين، وفي شهر نوفمبر تشرين الثاني من العام 2006 وفي أثناء الحرب الطاحنة التي شب أوارها بين حزب الله اللبناني من جهة، وعصابات صهيون في تل ابيب، شاع الخبر عن أن الصديق أبو عروة خليل السواحري في المستشفى. وهببنا أنا وهدى لزيارته فوجدناه قد تحسن قليلا وهو بكامل وعيه. وقالت لنا أم عروة إن معنوياته ارتفعت كثيرا عندما سمع بخبر مقاتلي حزب الله وما فعلوه بالإسرائيليين. وغادرناه على أمل أن يخرج من المشفى بعيد أيام .كنت على علم بأن المرحوم أصيب بالسرطان سابقا وأجريت له عملية جراحية استؤصل فيها شيء من أمعائه. ثم عاد لوضعه الطبيعي. ويزاول أعماله كأن شيئا لم يكن. وفي هذه المرة كنا نتوقع أن يقوم أطباء مستشفى الأردن بما قاموا به في السابق. ويبدو أن الأمر لم يكن في المستطاع، وفوجئنا يوم العاشر من الشهر المذكور بخبر نعيه .

والصحيح أن وفاته كانت صدمة لي، ولغيري، من محبيه وأصدقائه ومن المهتمين بالكتابة وبالأدب.

تعود علاقتي به إلى عام 1969 وقد أشرت لهذا في موضع آخر من هذا الكتاب. ثم توطدت تلك العلاقة بصفة خاصة بعيد ظهور رابطة الكتاب

الأردنيين عام 1974 فاعتدنا على اللقاء شبه اليومي بعد أن انتدبت للمكتب التنفيذي لشؤون الأرض المحتلة الذي ذكر في السابق. وتوافقنا مع بعض الكتاب على أن يكون لنا موقعنا وحضورنا في الرابطة، وانضم إلينا ابراهيم العبسي ومحمد إبراهيم لافي وآخرون كثر. وكنا نلتقي مع المرحوم ابراهيم قبعة وراكان المجالي وسالم النحاس ومفيد نحلة وأحمد المصلح ونتدارس شؤون الرابطة والانتخابات. وندعو بعضنا بعضا للعشاء والسهر بالتناوب. وفي العام 1975 نشر مجموعته مقهى الباشورة، ولفتت النظر بما فيها من أسلوب واقعي. وما فتئ أن نشر مجموعة أخرى زائرالمساء، وثالثة مطر آخر الليل، وأنشأ دارا للنشر والتوزيع باسم دارالكرمل. ونشر الكثير من المؤلفات التي تختص بالوضع الفلسطيني وبالشؤون الإسرائيلية، وبالاحتلال، والاستيطان. ولا أنكر أنه في بداياتي أخذ بيدي، وفتح لي ثقافة الدستور على المصراعين. وعرفني بالكثير من الكتاب والمثقفين ومنهم جاك خزمو وحنا إبراهيم وإميل توما و محمد البطراوي وعلي الخليلي ويحيى يخلف وعدد آخر ممن كانوا يزورنه. وعرفني أيضا ببعض الأدباء العرب الذين يفدون إلى عمان، فعن طريقه عرفت عبد الرحمن مجيد الربيعي ومحمد خضير العراقي وعبد الستار ناصر وممدوح عدوان، وعلي عقلة عرسان، وأمين مازن رئيس رابطة الكتاب الليبيين.

وشيع جثمانه في جنازة مهيبة، ودفن عليه رحمة الله في مقبرة برجم الشوك، على الطريق من عمان إلى بيرين.

وترددنا إلى بيت العزاء الذي أقيم له في صيوان كبير حضره ابنه البكر عروة، من هولندا، أو بولندا، لا أذكر بالضبط. وابناه يسار ويزن، وأخوه إبراهيم من الزرقاء، وأمّ العزاء جمع غفير من الكتاب والأدباء والصحفيين الإعلاميين. وتناول كثير منهم الراحل بالرثاء في الصحف، بخواطر مختصرة أو

بمقالات مطولة بعض الأحيان وقد جمعنا ذلك ونشرناه في كتاب بعنوان خليل السواحري في ذكراه صدر بعد سنة من رحيله في 2007.

العُجيلي

في عام 2006 تلقيت دعوة بتوقيع رياض نعسان آغا وزير الثقافة السوري، وهو باحثٌ، وكاتب له اهتمامات بالمسرح، عرفت مؤخرا انه لاجئ في دبي- دعوة للمشاركة في مهرجان ثقافي لمناسبة ذكرى الروائي السوري القاص د. عبد السلام العجيلي(1918- 2006)في شهر كانون الأول- ديسمبر. على أن يكون المهرجان في الرقة. وهي المدينة التي ولد وعاش فيها العجيلي، وكتب قصصه القصيرة: الخيل والنساء، وحكاية مجانين 1972 والحب الحزين 1979 ومجهولة على الطريق 1997 وروايات منها: باسمة بين الدموع 1958 وقلوب على الأسلاك 1974، وألوان الحب الثلاثة 1975 وأزاهير تشرين المدماة1977 ، وأجملهن 2001 وأرض السياد 1998 وغيرها من الكتب التي تراوح بين التاريخ والرحلات والسيرة. وكان قد مضى على وفاته ما يقارب الأشهر الستة. ولا أشك في أن للكاتب نبيل سليمان يدا في اختياري لهذا النشاط الثقافي المختلف.

ونُشر خبر في الصحف، فعلمت شهلا العجيلي، وهي روائية مقيمة بعمان، وقد سبق لنا أن التقينا في ندوات، وقدمت لي بعض أعمالها الروائية التي تناولتها في مقالات صحفية نقدية موجزة. ومن ذلك روايتها" عين الهر ". التي صدرت في 2005 وزوجها هو مصلح النجار الذي يعمل مدرسا في الجامعة الهاشمية. فتواصلا معي للتنسيق كي نذهب معا بسيارة واحدة. ولكن لم تكن لدي أعمال لعبد السلام العجيلي باستثناء مجموعتين هما "الخيل والنساء " و" مجهولة على الطريق ". ورأيت أن كتابة ورقة عن إحداهما أو عنهما معا سيكون أمرًا غير لائق سيما وأن المهرجان تحت اسم الرواية لا القصة. فبحثت طويلا حتى عثرت على نسخة من روايته " أرض السياد "، وهي رواية تعالج موضوع

الفساد الإداري والوظيفي، واستخدام النفوذ لامتلاك الأراضي بوجه تنقصه النزاهة، وتغيب عنه العدالة بالمعنى الذي تكفله وتضمنه أبسط حقوق الإنسان. ووقفت عند المكان في تلك الرواية. وسافرنا معا واجتزنا الحدود، وواصلنا الطريق مرورا بدمشق، وحماة، واقتربنا من حدود محافظة حلب، لنتجه إلى الشمال الشرقي.

وشهلا هي ابنة أخ المرحوم عبد السلام العجيلي، ولها منزل في الرقة مع أسرتها بالطبع، وعلمت أن أباها مهندس، ونزلنا ضيوفا في بيت آل العجيلي، وتناولنا طعام الغداء وكان غداءً فاخرًا. واسترحنا قليلا قبل أن نتوجه لفندق التاج حيث الفعاليات. وفيه التقينا بنخبة من الكتاب والروائيين والنقاد، من بينهم يوسف أبو رية، وواسيني الأعرج، وعبدالله إبراهيم، وأسماء معيكل، ومحمد صابر عبيد، وآسيا موساي مديرة دار االإئتلاف في الجزائر، و نقاد كثر من ليبيا ومصر ومن العراق حتى من تركيا حضر وفد يمثل اتحاد الكتاب الأتراك في إحدى المدن القريبة من الحدود السورية وأظنها آتاي. وما من شك في أن هذا النشاط تظاهرة ثقافية تليق بالدكتور عبد السلام العجيلي الذي أقيم معرض لكتبه، ومنها كتاب يروي الكثير عن مشاركته في حرب الإنقاذ عام 1948 مع فوزي القاوقجي.

من المشاركين في تنظيم المؤتمر موظف في وزارة الثاقفة كنيته أبو عبادة، إضافة للأديب نبيل سليمان الذي يقال إنه قضى الكثير من السنين في الرقة قبل أن يغادرها للاذقية. وقد نظمت وزارة الثقافة، أو بكلمة أدق، مديرية الثقافة، رحلة لسد الفرات والبحيرة الشاسعة جدا التي تقع وراءه. وهي التي تسمى بحيرة الأسد. وشاهدنا طيورا جمة ترقد فوق ماء البحيرة، وهي تسبح كأنها طيور البجع. وقيل إن هذا السد استغرق بناؤه سنوات كثيرة. وكلف الملايين. ورحلة أخرى إلى بلدة الرصافة على نهر الفرات، وهي على بعد30

كيلومترا من الرقة، و70 كيلومترا من قصر الحير الشرقي. ويقال إنها من أقدم المدن. خضعت لليونان والرومان وقبلهم للآشوريين والفرس الذين شيدوا فيها القلاع، وفي القرن الرابع قبل الميلاد أصبحت تابعة لمملكة تدمر. وفي العصرالأموي جعلها الخليفة هشام بن عبد الملك جنة خضراء في بادية الشام، وسميت برصافة هشام، وفيها بقايا أبراج، وقصور، وحمامات، وقلاع للحراسة، وسجون، ولوحات رخامية.

والغريبُ، الذي لفت نظري، أن الحجارة التي شيدت منها المباني، وهي الآن متداعية، وبعضها متناثرة على الأرض، فيها شيء من اللمعان يشبه ذلك اللمعان الذي يرى في شظايا الزجاج المتكسر إذ تعرضت للضوء. وهذا النوع من الحجارة قليل الشيوع فيما أظن. وقد رأيت مثله قطعا يبحث عنها الفلاحون، ويجمعونها بصعوبة، لاستخدامها في ألواح الدراسة في زمن البيادر قبل اختراع آلة الدرس. وفي نهاية هذا الملتقى أقيم لنا حفل عشاء بوفيه في فندق التاج. ووزعت فيه الدروع تكريما للمشاركين. ولا بد من الإشارة إلى دعوة غداء أقامها أحد أعيان الرقة في منزله، وقدم لنا غداءً حافلا فاخرًا حضره نحو 80 شخصا اتسع لهم بيته دون ضيق، أوتبرم من الكثرة. وعندما سلمنا عليه بعد الغداء على نية المغادرة لم يفتأ يعتذر عن التقصير، مع أنه لم يقُصر، وإنما هي مبالغة في الإكرام، وبأن ما قدمه قليل غير كثير.

ومما لاحظته في ذلك الغداء، ويجدُرُ بي ذكره، أن مفهوم (المنسف) لديهم مختلف عنه في الأردن. فهم ينضجون اللحم، ويقدمونه في الأوعية مع الخبز، ولا يضيفون إليه اللبن، وإنما يوزعون اللبن الرائب في أكواب، وهو نيئ غير مطبوخ، ويأكلون اللحم بالخبز المشرب بمرقة اللحم، ويشربون اللبن معه بالأكواب. بعد ذلك بسنة أقيم مهرجان آخر، لمدعووين آخرين، ووزع فيه

الكتاب الذي يضم بين دفتيه الأوراق التي جرى تقديمها ومناقشتها في العام 2006.

لكن قبل هذا كنت قد استقبلت في مكتبي سيدة قدمت نفسها على أنها قريبة د. جاسر أبو صفية، زميلنا في القسم ومدرس الأدب الأموي، وعرضت علي اقتراحا بنشر أي كتاب متوافر لدي ذي صلة بالموضوعات قيد التدريس. وكنت قد أعددت كتابا بعنوان " مقدمات لدراسة الحياة الأدبية في الأردن " أشرت إليه في موضع متقدم من هذه السيرة. وبدلا من أن أقدمه لوزارة الثقافة لنشره، قلت لنفسي أنتهز هذه الفرصة التي سنحت على غير توقع، وأقدمه لهذه الدار الجديدة التي قالت لي إنها باسم دار الجوهرة. وموقع المكاتب في جبل الحسين. وممن بادر للتعاون المرحوم د. إسماعيل عمايرة. ودة. فوز نزال. والدكتور جاسر أبو صفية نفسه. وزرنا المكتب في الحسين أنا والمرحوم اسماعيل عمايرة، ووقعنا عقدين. وفعلا صدر الكتابان في العام 2003 وبعد ذلك بسنين علمنا بوفاة(أبو بشار) صاحب دار الجوهرة. واختفت الدار بعده.

وفي سياق مشابه زارني مصباح جبر الحيف من دار المسيرة، وطلب الطلب نفسه، وكنت قد درَّست لسنوات مساق الشعر العربي الحديث لطلبة البكالوريوس. فأعدت النظر في المحاضرات، وأضفت إليها ما ينبغي أن يضاف ليتألف منها سفر جامع لما تفرق من شؤون الشعر العربي الحديث والمعاصر. وقدمته للدار، وأعادوه لي للتدقيق، وبعد المراجعة الثانية قاموا بنشره، وهو بعنوان مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث وقد طبعت منه سبع طبعات. وعلى قراءته وتدريسه إقبال غير يسير في دول الخليج. وللأسف قام د. سامي أبو زيد - لاحقا - بإعادة نشر الكتاب مع بعض التشويه. وانتحله وسماه الأدب العربي الحديث(الشعر). وقد اكتشف هذا د.سالم الأقطش، ولفت نظري لذلك. ود. أحمد البزور الذي نشر مقالا أوضح فيه أبعاد السرقة، وخطورتها من

جهة، وبين معالم التشويه التي تعرض لها كتابنا بعد انتحال أبو زيد له، مستغربا، مندهشا، لأن الكتابين صدرا عن دار المسيرة، و كان ينبغي لها أن تنتبه لذلك السطو، وتلك السرقة، إلا أن جل الناشرين قلما يقرؤون ما ينشرون.

القدس عاصمة الثقافة

ذات يوم من شهر أيلول – سبتمبر من العام 2009 اتصل حسن حميد وهو كاتب فلسطيني من مواليد كراد البقار من أعمال صفد مقيم بدمشق وأبلغه بقرار من وزيرالثقافة السوري رياض نعسان آغا بعقد مؤتمر حول القدس في الرواية العربية لمناسبةاختيارها عاصمة للثقافة العربية وأنه – أي أبو شاور- وجمال ناجي وأنا وفيصل دراج مدعوون للمشاركة وسنتلقى كتابا بذلك من الوزير وبالفعل جاء لكل منا كتاب بالدعوة وكانت لدي نسخة من رواية حسن حميد الأخيرة مدينة الله الصادرة في بيروت 2008 وأعددت ورقة عن تلك الرواية لتقديمها في ذلك المؤتمر الذي عقدت فعالياته في مكتبة الأسد بينما كان نُزُل الضيوف المدعووين في فندق برج الفردوس.

في ذلك المؤتمر التقينا بعدد غير قليل من الأساتذة بعضهم من العراق كعبدالله إبراهيم وبعضهم من فلسطين كتوفيق فياض وبعضهم من تونس ومن الجزائر ومن السعودية د.سلطان القحطاني وقدمت أوراق نقدية عن غسان كنفاني وعن يحيى يخلف ورشاد أبو شاور و جبرا إبراهيم جبرا. وقدمت شهادات كتبها روائيون فكان المؤتمر بهذا التنوع مثمرا ومفيدا. بعيد انقضاء أعماله استرحنا لبعض الوقت ثم غادرنا دمشق عائدين إلى عمان.

وعلى هذا النحو أقيمت ندوات أيضا بالمناسبة في عمان وفي الجامعات واستضافت إحدى الهيئات الشاعر سميح القاسم الذي أحيا عددا من الأمسيات الشعرية إحداها في المركز الثقافي الملكي وألقى فيها قصيدة أسميك القدس ونشرت في الدستور الثقافي عدد 3 إبريل – نيسان 2009 وفيها يقول:

اسمك القدس في الحرب والسلم
في الشعر والرقص في النثر
في السر والجهر
في القمح والورد والعشب
والقدس في الحقد والحب
في الحلم والرسم
والقدس في العسر واليسر
في الشر والخير ، في البرد والحر
في وشم أبنائك الراحلين
في خلايا الجنين
أنت لي واسمك القدس لي.

مع ابن خلدون

في العام 2009 قبل لي بحث في النقد الحديث بين النظرية والتطبيق من الهيئة المنظمة في مؤتمر دعيت للمشاركة فيه في جامعة عبد الرحمن ميرة في بجاية بجمهورية الجزائر. وتقدمت بطلب عن طريق القسم فأجابني نائب رئيس الجامعة بالموافقة شريطة ألا تتحمل الجامعة أي نفقة مادية. وهذا الاشتراط يفتقر لأي معيار أخلاقي، وذوقي، إذ إن الكثيرين ممن يشاركون يمنحون على الأقل ما يعادل قيمة تذكرة السفر. وبعضهم يتلقى علاوة على تذكرة السفر ما يسمى مياومات. هذا إذا كان بالطبع من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. مع ذلك قررت تحمل الكلفة مهما بلغت وسافرت. وكان موعد انعقاد المؤتمر في2 نوفمبر وهو اليوم التالي للعيد الوطني. وفي مطار الملكة علياء الدولي التقيت على غير موعد مسبق بالشاعر الأديب محمد عز الدين المناصرة الذي أفادني بنيته الذهاب إلى الجزائر تلبية لدعوة من معرض الكتاب الذي يفتتح في بداية

نوفمبر. أي أنه متزامن مع وقائع هذا المؤتمر دون تنسيق بين النشاطين. تناولنا معا شيئا من القهوة والعصير في المطار، وعندما حان الإقلاع التحقنا بمقاعدنا في الطائرة وفي الجزائر افترقنا، فقد حُجز له في فندق الأوراس.

أما أنا فاضطررت للمبيت في فندق جرجرة – على اسم سلسلة جبال- ليلة ثم غادرت صباح اليوم التالي إلى بجاية، وهي بعيدة جدا. إذ تقدر المسافة بنحو 500 كيلومتر. وكنت قد أبلغت باسم الفندق(الفندق الملكيRoyale) الذي سينزل فيه الضيوف سواء منهم الوافدون من الدول العربية، أو من أقاليم الجزائر البعيدة. ومن المفارقات الغريبة في ذلك المؤتمر أن رئيس الجامعة الذي رعى الافتتاح بعد أن استمع لكلمة عميد الكلية طلب منه أن يعيدها باللغة الفرنسية. مع أن المؤتمر مثلما جاء في مطويته ناطق بالعربية. ولم يحضر المؤتمر من غيرالجزائريين إلا أنا، ولهذا شكروني كثيرا لأن حضوري أضفى عليه صفة دولي لا محلي. وتكريما لي اختاروني رئيس جلسة لأقدم المشاركين، وأنظم الحوار، وشيء آخر، وهو تلاوة التوصيات في الجلسة الختامية.

بعد الانتهاء أقاموا لنا مأدبة تكريمية في الفندق. وفي اليوم التالي قمنا بنزهة في غابات تحيط بالمدينة أثارني فيها مشهد القرود وهي تتقافز هنا وهناك، ولا تخشى الناس . وقيل لي إن في المدينة كهوفا لجأ إليها عبد الرحمن بن خلدون أيام مقامه، وفيها كتب مقدمته المعروفة، وحرصت على رؤية هاتيك الكهوف. وبالفعل اصطحبني عدد من المشاركين إليها وعجبت كيف أقام ابن خلدون المؤرخ الكبير، وعالم الاجتماع، والسياسي المحنك، في منزل كذاك يكتب مقدمته التي تشهد له بعبقرية التفكير، والتحليل، والرؤية البصيرة للتاريخ. أما سكان بجاية، فمعظمهم من قبائل الأمازيغ، ولهذا نراهم متحيزين للفرنسية ولا يؤثرون العربية عليها. فلا يقرأ المتجول فيها من اللافتات إلا قليلها بالعربية ويكاد يحس بصدق المتنبي الذي قال عن شعب بوان :

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسانِ

ولبجاية أسماء عدة لكن هذا هو المشهور، ويقال أن كلمة بوجيه الفرنسية Puget التي هي جزء كهربائي في محرك السيارة، مأخوذ من اسم هذه المدينة التي تعاقبت عليها حضارات شتى، فكانت تشتهر بصناعة الشموع، وأطلق الفرنسيون على الشمعة بوجيه، وانتقلت عن طريق المجاز لتلك الأداة المستخدمة في محرك السيارة. وقيل لي إن بجاية دون غيرها من المدن اشتهرت في الماضي بالعلوم والمخترعات.

الفصل الخامس
عامان في الرياض

في العام 2009/ 2010 سمحت لي التعليمات بالحصول على إجازة تفرغ علمي، وقضائها في أي مكان. فتقدمت بالطلب، وتكلل طلبي بالموافقة. وكنت أنوي البقاء في المنزل، إلا أن الفرصة سنحت للتعاقد مع جامعة الملك سعود فرع الرياض، فانتهزتها وقابلت الدكتور صالح معيض الغامدي في فندق القدس، وملأت نموذج العقد، واتفقنا على المضي قدما في الإجرءات .

وكان الفصل الأول من العام الجامعي قد أوشك على الانتهاء، مما أخر سفري لما بعد انتهائه، وبدْءِ الفصل الثاني. ظهرت في تلك الأثناء عقبة يسيرة، وهي أنني كنت في تلك السنة قد تجاوزت الستين ببضعة أشهر، وعلى وفق النظام في تلك الجامعة تنتهي خدمة عضو هيئة التدريس عند بلوغه الستين، ولكنْ ثمة مادة في النظام نفسه تسمح باستمرار، أو تعيين، عضو هيئة تدريس الذي تجاوز الستين فيما يسمى الانتخاب. أي أن الجامعة تستطيع التعاقد مع من تجاوز هذا على سبيل الانتخاب. ونجح الدكتور صالح - جزاه الله خيرا - في جعل العقد من هذا الباب. وأبلغني الدكتور حسين المناصرة بالموافقة النهائية من رئاسة الجامعة على هذا الترتيب، وطلب مني أن أهيئ نفسي للسفر.

وفي شهر كانون الثاني يناير 2010 غادرت عمان للرياض جوا، ووجدت في المطار سائقا ينتظرني وهو يسأل إدارة الجوازات عني، وفوجئت بصائح يردّد اسمي فأجبته، وأقلني السائق إلى فندق، وأخذت حقيبتي، وتقدمت للاستقبال، فوجدت غرفة محجوزة لي.

في اليوم التالي اكتشفت أن زميلين سابقين في تلك الجامعة كانا بانتظاري دون علم مني، أو من السائق، وهما: د.خالد بسندي ود. عماد الخطيب. شكرتهما على هذه الأريحيّة.

والتحقت بالعمل، ولكن لم يكن لي مكتب كغيري من الزملاء فمنحني د. حسين المناصرة نسخة من مفتاح مكتبه. وفي الأيام التي أقمتها في الفندق واظب على المرور بي صباحًا، ودعوتي للركوب إلى جانبه، وبعد بضعة أيام وجدتُ سكنا في موقع خاصّ بالعزاب في حي التعاون واسمه ليلاس، وفيه موظف مصري أنيق لا يمل مشاهدة المسلسلات المصرية على قناة الحياة.

شرعتُ في التدريس. وكان عدد الطلبة في الشعب التي عهد بتدريسها لي قليلا. فالعمل مريح جدًا. والسكن إلى حد ما مريح هو الآخر، والتنقل بواسطة سيارات الخدمة الداخلية يسير، وإن كان في أجورها بعض الارتفاع إذا تذكرنا الانخفاض في أسعار الوقود في الرياض. وقد فسّر لي أحدهم هذا الارتفاع في أجور السيارات قائلا: إن أميرا من الأمراء يحتكر التنقل الداخلي في العاصمة، ولذا يفرض التعرفة التي يريدها على مستخدمي السيارات، أما سائقوها فلا ينالون من هذا الدخل إلا القليل جدا، فأكثرهم باكستانيون، أو أفغان، وقليل جدا منهم مصريون، والأقل إلى درجة الصفر مواطنون سعوديون.

عرفتُ في هذه الجامعة عددًا من الأصدقاء، منهم عدا من ذكرت: المرحوم محمد الهدلق، ومنهم عبد العزيز المانع، ومعجب الزهراني، ومعجب العَدواني، والتونسي حسين الواد. ومنهم منذر كفافي، وسهيل ياسين، وحافظ المغربي، ومحيي الدين محسّب، وأحمد صبرة، ومحمد خير البقاعي، ومحمد زليطني، ومحمد ثابت، ود. هاني الطباع، وصالح العجلوني، ومحمد عبيدات، وأبو نويرة، وأبو المعطي الرمادي، ونادي شحادة، وسليمان أبو صعيليك.

وذكرتني هذه الجامعة بكلية عبري للبنات، فالقاعات التي يتلقى الطلبة فيها محاضراتهم كرفانات، ولها نوافذ وأبواب وفيها مكيفات، وليست أبنية إسمنتية. ويبدو أن للطبيعة دورها في أنهم جعلوا هذه الكرافانات محاطة ببناء اسمنتي فعندما تدخل المبني، وتمشي قليلا متجها للقاعة، ترى الوضع وإذا هي واحدة في صف متصل من الكرافانات. وتوجد في الجامعة بالطبع إدارة عامة، وقاعات للمحاضرات على هيئة المدرجات مجهزة بأفضل أنواع الأثاث. وقد استمعنا في إحداها لغير محاضر دعي من دمشق، أو من القاهرة يوسف زيدان مثلا، وأقيمتْ ندوات تكريمية لغير واحد من الأساتذة المتقاعدين المتقدمين في السن.

ذاتَ يوم، وكنت قد انتهيت من محاضرتي الأخيرة، وعلى وشك المغادرة، والسماء كانت صافية، ومشمسة، فوجئت بأنها غائمة كليا لا جزئيا، وغيومها متراكمة، وكأنها على وشك أن تمطر. ونحن تقريبا في نهاية شهر أيار مايو. ولم أكد أفكر بهذا مستغربا حتى بدأت الأمطار بالنزول، وهي تشتد غزارة، واختفت السيارات، ورايت عددا من الطلبة يفرون متسائلين أين ذهبت التكاسي؟ وانتظرت قليلا تحت مظلة ليتوقف المطر. وعندما شعرت باليأس من توقفه سرتُ والماء يقطر من ملابسي. وفجأة لاحت لي سيارة، فاشرت لها، وكان فيها عددٌ من الأشخاص حشرني السائق إلى جانبهم، وقد كان هذا السائق من الوافدين الباكستانيين، ويبدو أن لديه خبرة بالرياض؛ فتحاشى السير في الشوارع الرئيسية التي تؤدي إلى الجسور، والأنفاق، التي تمر السيارات فوقها أو تحتها؛ لعلمه بأن تلك الأنفاق تمتلئ بمياه الأمطار امتلاءً يعيق السير، فتجد الباصات والشاحنات وقد غرقت في النفق. وأعاقت الحركة. ولكن سعيه لتجنب الشوارع الرئيسية ضلَّلني، فلم أعد أعرف الحي الذي أسكن فيه. فطلبت منه أن يتركني في مكان، وأنا كالتائه. وتصوّر عزيزي القارئ كيف لي

أن أهتدي في الظلمة، والأمطار تنصبّ مدرارة، على حي في مدينة كبيرة كالرياض.

وإلى الآن لا أعرف كيف اهتديت لمكان سكني في ليلاس. لعلي رأيت مَعْلمًا من المعالم فسرت باتجاهه. على أي حال حمدتُ الله حمدًا كثيرا إذ نجوت من هذه الورطة، وظننت أن قدومي للرياض غلطة، وأيّ غلطة. وندمت ندامة الكسعي الذي حطم قوسه بعد ارتيابه في كفايتها على صيد الفرائس، ثم اكتشف بعد ذلك أن السهام التي رمى بها كانت قد أصابت الأهداف جميعها، فكل سهم منها أصاب ظبية. وهذا ما أشار إليه الفرزدق قائلا:

ندمت ندامة الكسعيّ لمـــا غدت مني مطلقـةً نَوار
وكانتْ جنّتي فخرجْتُ منها كآدمَ حين لجّ به الضرارُ

وقد بثت القنوات الفضائية أخبارا عن هذه الأمطار، وعما حدث في الجسور والأنفاق من أضرار، وعما غمرته المياه من مواقع، وما أحاط بالأحياء من وقائع، مما جعل أبنائي وأمهم في غاية التوتر والقلق. وكنت أحتفظ بهاتف محمول، وإذا به بعد وصولي للسكن يُصدر رنينا زاعقا فاجأني، وإذا بأحد ابنائي على الطرف الآخر يسأل عني، وطمأنتهم قائلا إنني في السكن، والحمد لله، ولم أتعرَّض لأي شيء مما تخشون. وفي اليوم التالي كانت الأخبار المتداولة عما حدث مروعة لكثرة الضحايا، واندفاع المياه في بعض المدارس، وتعطل الكثير من الشاحنات، والباصات في الطرق، وعلى الجسور. وبثت الشاشة الصغيرة مشاهد مرعبة لانقلاب آليات، ولشبان يسبحون في المياه لإنقاذ بعض العالقين. والعجب العجاب أن السماء عادت لما كانت عليه صافية، ومشمسة، كأنّ شيئا لم يكن.

وبما أنني في الرياض وفي السعودية، وهي بلد الحج، قلت في نفسي لم لا تؤدي العمرة يا إبراهيم؟ وشجعني على ما نويت أمران، أولهما أن الجامعة تمنح

المدرسين والطلاب عطلة أسبوع في منتصف الفصل الثاني يسمونها عطلة الربيع. والأمر الثاني أن ابنتي منال وزوجها رأفت وأولادهما سفيان وقصي وأوس يقيمون في مكة، فهي وزوجها يعملان في مدينة الملك عبد العزيز الطبية، ويسكنون في مكان العمل في سكن خاص بالموظفين. واتصلت بهم وأخبرتهم بما عزمت عليه، فرحبوا فرحين بذلك. وعندما آن أوان السفر، حجزت تذكرة من الرياض لجدة ذهابا وإيابا وأخبرتهما بموعد وصولي. وبالفعل وجدتهما بانتظاري في سيارتهم. ووصلنا المدينة الطبية التي تقع خارج الحدود التي تعرف بحرم مكة. وبعد ثلاثة أيام قمنا أنا ومنال بأداء مناسك العمرة. وقد لاحظت في العمرة مشاهد أثارت دهشتي منها أن بعضهم يحمل كتيبات ويقرأ الأدعية منها وهذا شيء غريب، إذ الدعاء ينبغي أن يكون نابعا من القلب وليس من الكتب. وشيء آخر وهو مشاهدة بعض المعتمرين يسلكون مسلكا شاذا فيندفعون بين الناس اندفاع الثقلاء والزعران. فإذا كان سلوكهم هذا لا يتخلون عنه بين يدي الرحمن فكيف يكون وهم بعيدون عنه؟!

وأزعجني أن بعض المعتمرين يختارون لهم رئيسًا قويّ الصوت، جمهوريه، فيدعو له، ولهم، بنبرة مزعجة تلفت نظر المعتمرين، فيبدلهم من الخشوع انزعاجا. وبعد أداء المناسك عدنا للسيارة، وغادرنا الحرم الذي أبصرت فيه مشاهد مزعجة إذ تربعت بعض العائلات على الأرض، واختلط حابلهم بالنابل، والبائع بالمشتري، والحلاق بالحجام، والغادي بالرائح.

وتذكرت قول الشاعر ابن الطثرية:

ولما قضينا من منى كل حاجـــة ومسـح بالأركان من هو مـاسحُ
وَشُدتْ على حُدب المطابا رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هُو رائحُ
أخذنا بأطـــراف الأحاديثِ بيْننا وسالت بأعناق المطيّ الأباطحُ

ومكة مدينة شديدة الحر، فعلى الرغم من أن عمرتي كانت في شهر آذار، وهو شهر الربيع، فقد كان الحر شديدا. وهي أشبه بوادٍ محاط بجبال شاهقة، أو شبه شاهقة، تسد عنها دروب الريح. وهذا يؤدي لارتفاع الحرارة كثيرا. وفيها الكثير من الفنادق، والبنايات السكنية العالية ذات الطوابق المتعددة، فيزيدها اختناقا، وزحمة، ويؤدي لغير قليل من الضيق النفسي بسب الكثرة، وضيق الطرق، وندرة الشوارع الفسيحة.

وما إن يغادر الحاج، أو المعتمر قصبة مكة للخارج، حتى يتنفس الصعداء. وقد سمعنا مؤخرًا عن تنفيذ مشاريع توسعة للحرم المكي، وعن قطار المناسك، وأنفاق أعدت لهذا الغرض، وجسور بكلفة تجاوزت المليارات. ولعل في ذلك الكثير مما يهوّن على الحجاج، والمعتمرين، أداءهم لهذه الفريضة التي من نعم الله- سبحانه، ولطفه بعباده - أن جعل وجوبها مرةً في العمر، ولمن استطاع إليها سبيلا فحسب.

من تأليفي

باقتراب نهاية الفصل قمتُ بإعداد تأشيرة خروج وعودة لمغادرة الرياض إلى عمان. وتجديد العقد لمدة سنة أخرى بعد تلقي موافقة الجامعة في عمان على تمديد إجازتي عاما إضافيا بلا راتب. وفي عمان تابعت نشاطي الأدبي والثقافي. وزرت دار فضاءات للطباعة والنشر والتوزيع لأطمئن على كتابي الذي وعدوا بنشره، وأعني كتاب محمود درويش قيثارة فلسطين. وعلمت من الصديق الشاعر الروائي جمعاد أبو حشيش أنه في المطبعة. وزرت دار مجدلاوي للنشر، وهي ليست دار فاروق مجدلاوي، وإنما هي الدار التي يقع مقرها في المبنى الاستثماري في الجامعة الأردنية بعد البوابة الشمالية، وصاحبها هو إبراهيم مجدلاوي (أبو خليل) عليه رحمة الله. وكان قد نشر لي عددًا من الكتب،

ووجدته قد أصدر كتابي الأخير، وهو بعنوان (**المثاقفة والمنهج في النقد الأدبي مساهمة في نقد النقد**).

في هذا الكتاب يجد القارئ النص الكامل للبحث الذي قُدم ملخص عنه في المؤتمر المنعقد في جامعة عبد الرحمن ميرة في بجاية. وهو الذي سبق ذكره. وتابعت الكتابة في الصحف. ونشرت مقالات في الدستور منها مقالة عن رواية عبده خال فسوق. وآخرى عن رواية معجب الزهراني الموسومة بعنوان (رقص) الصادرة عن دار طوى في بيروت. وكتبت مقالا عن الهوية المرتبكة في روايتين إحداهما لقماشة العليان، والأخرى لزينب حفني. ثم وقفت عند المكان وأثره في رواية الوارفة لأميمة خميس في المجلة الشهرية أفكار. وكان الزميل عماد الخطيب قد كلفني بمراجعة وزارة الثقافة لتسلم شيك باسمه مكافأة عن مقال منشور في تلك المجلة، وأن أضعه في حسابه ببنك الإسكان. راجعت محاسب الوزارة، ومعي تفويض منه باستلام الشيك، ولم يتردد الرجل وسلمني الشيك، ووقعت بدلا منه. وعندما قمت بمراجعة البنك لوضعه في حسابه تبين أن الاسم الذي في الشيك مختلف عن اسمه في البنك. ففي حسابه البنكي لا يوجد (الخطيب) فاسمه الرباعي يخلو من هذا. وأبى الموظف إدخاله في الحساب. وها هنا تساءلتُ: لم يدعي أنه من عائلة الخطيب إذا لم يكن منها؟ إلى الآن لم أجد إجابة عن هذا.

وهذه المقالات عدتُ ونشرتها في كتب لاحقا عن الرواية، والروائيين. وشاركت في ندوة عقدت في رابطة الكتاب عن النقد الثقافي، قدمتُ فيها ورقة عن رواية المتشائل لإميل حبيبي في ضوء النقد الثقافي. وتواصلت مع الدائرة الثقافية بأمانة مان الكبرى، فألفيتهم قد نشروا كتابي الذي كنت قد تقدمت به في العام 2009 وهو بعنوان (من أدب البلدان في القدس وعمان) وقد نشر في العام 2010 عن دار أمواج للطباعة والنشر. واخبرني سامر خرينو الذي

خلف المرحوم عبدالله رضوان على إدارة بيت الثقافة والفن بأن لي 100 نسخة هدية لدى الناشر فاتصلت به واسمه أبو حمزة، وأحضرها إلى البيت. وهو كتاب في 140ص من القطع المتوسط يقف لدى الشعر والنثر الذي كتب في المدينتين وعنهما. وقد لفت الكتاب نظر إحدى المذيعات في إذاعة أمانة عمانF.M وأجرت لقاءً معي حوله وحول ما فيه من دراسات. وعرفت هذه المذيعة للمرة الأولى، وهي إيمان عبد الهادي. وعلمت لاحقا أنها تتابع دراستها العليا في اليرموك، وأصبحت من حملة الدكتوراه. ولها من الشعر دواوين.

وكان الصديق القاص محمود الريماوي (ابو فادي) قد أنشأ صحيفة ثقافية إلكترونية باسم قاب قوسين. ودعاني للكتابة فيها. وحاولت ألا أقصر في الاستجابة لطلبه، وانتظمت المقالات التي أرسلها له في النشر. ولا أحسب أن عددا فيها خلا من شيء أدبي لي. والمقال الذي يُنشر فيها يستمر ظهوره إلى أن يقوم المحرر بتغيير العدد كله. وإلى الآن كلما أردت مقالا نشر فيها، ولم أحتفظ به، أو فقد بسبب تبديلات الأجهزة، أرجع إليها، فأستخرجه من قاب قوسين. وكانت قبل أن تتوقف قد عقدت للمحرر، ولكتابها، شبكة من العلاقات التي تصل الكتاب العرب ببعض من شرق الوطن العربي إلى مغاربه. ولم يتوقف تزويدها بنتاجي لا وأنا في الرياض ولا بعد عودتي.

وبانتهاء العطلة عدت للرياض، فوجدت في هذه المرة مكتبا في الطابق الأرضي. وهو قريب من قاعات التدريس، كان قد شغله في السابق الدكتور أبو المعطي الرمادي (من مصر) وقد اتخذوا له مكتبا جديدا لكونه قد عهد إليه بمتابعة النشاط الثقافي. وفي مكتبي هذا ثمة جهاز حاسوب خاص بيد أنه غير متصل بالطابعة كغيره من الحواسيب الموجودة في الطابق الثاني الذي يضم مكاتب الأساتذة. فكان علي إذا أردت طباعة أي شيء أن أبعثه لي بالبريد

الإلكتروني، وأقوم باستخراجه من الحاسوب المركوز في الغرفة الخاصة بالطباعة ثم أطبع.

أولويات

في أثناء إقامتي في الرياض كنت أتابع صحيفة الحياة: النسخة التي تطبع وتوزع في الخليج. وعنّ لي أن أتراسل مع أحمد زين المحرر الثقافي. وقد لاحظتُ من تكرار المنشورات أنه أحد محبي فيصل الدراج وفخري صالح. فهو حريص على النشر لهما مرة كل أسبوع. ولاحقا عرفت أن الحياة تدفع لكل منهما مقابلا ماديا عن كل مقال ينشر. واطلعت في إحدى المجلات على قصيدة جيدة لعلي جعفر العلاق بعنوان عاشقان. وبدا لي أنه كتب تلك القصيدة عندما كان يتابع دراسته العليا في جامعة أكستر بالمملكة المتحدة. ولأن القصيدة أثارتني بما فيها من شفافية، وصور رائقة، ولغة رفيعة النغم، وفخامة النبرة، قمت بكتابة مقالة عنها، وبعثت بها لأحمد زين الذي رد علي برسالة يسألني فيها عن رقم الياس فركوح، من جهة، ومن جهة أخرى يبدي إعجابه بالمقال، معتذرًا عن نشره لكون الأولوية للأدب السعودي.

أحزنني أن يصنف الأدب هذا التصنيف، فهو يقوم على أساس إقليمي لا على أساس الجودة. فلو أن صاحب القصيدة من السعودية لما اعتذر عن النشر، ولبادر لنشره فورًا. أجبته أن هذاالمعيار كمن يبني بيته على أساس منهار، وسألته إن كان في رأيه شاعرٌ من الخليج كله في مستوى العلاق فلم يجب، وبعد أيام شاهدتُه في برنامجه روافد يجري حوارا مع الياس فركوح. فعلمت، ووقر في ذهني أنه يبحث لا عن الجودة بل عن أي كلام. خلاصة القول أنني بعد مدة رأيت المقال منشورا في الحياة، ولا أعرف ما الذي دعاه للعدول عن أولوية الأدب السعودي.

في السنة التالية عرض علي د. صالح تجديد العقد فاعتذرت.

ولا يفوتني أن اذكر ها هنا أن مما خفف من عبء الغربة عني في الرياض علاوة على وجود ابنتي منال وزوجها رأفت المشني وأولادهما في السعودية قريبي المهندس عبد الله ياسين(ابو هشام) المقيم في الرياض منذ سنوات طويلة حيث أعماله في المقاولات. فكنا نلتقي كل أيام الجمعة تقريبا في منزله، ونتناول الغداء مما يحضره بنفسه. وقد اكتشفت شيئا جديدا فيه وهو مهارته في الطهي، إذ يعد المقلوبة إعداد أمهر الطهاة. وفي بعض الأحيان ينضم إلينا في منزله بعض أصدقائه وشركائه في العمل، أو معارفه، وكلهم أردنيون وفلسطينيون. ولطالما طغت على أحاديثنا الذكريات، وهموم السياسة الراهنة، وأخبار البلد التي نتواصل معها إما عن طريق الهواتف المحمولة، أو الإنتر نت، أو قنوات التلفزيون المتعددة.

وعدت في شهر يوليو – تموز إلى بيتي. لأتابع الحياة الأدبية بعد تغيب قصير قضيته في الرياض، لأجد كتابي محمود درويش قيثارة فلسطين قد صدر عن دار فضاءات بغلاف أنيق أعده نضال جمهور. واحتفلنا به في المركز الثافي العربي في جبل اللويبدة، ووقعنا نسخا منه للحضور على سبيل الإهداء. وكان قد شارك في تلك الندوة الاحتفالية الشاعر محمد إبراهيم لافي، ود. شفيق النوباني ود. أحمد ماضي، والروائي المرحوم جمال ناجي الذي كان في حينه رئيس الهيئة الإدارية للمركز. وفي المدارس العصرية دعيت لتوقيع نسخ منه في حفل توقيع لعدد من الكتاب برعاية رئيس المديرين الدكتور أسعد عبد الرحمن. ونشر عنه مقال في جريدة القدس العربي بلندن. والكتاب نفسه الذي حمل تاريخ صدوره عام 2011 أعيد نشره مرة أخرى بعد نفاده في العام 2022 .

في العام 2012 تعرَّضت لضغوط من العائلة لاستبدال السيارة الهوندا سيفيك بأخرى فابتعت واحدة هوندا ريكورد. وبعت تلك لمعتز ابن الزميل في القسم حمدي منصور. واستأنفت التدريس في بدء العام الجامعي 2012 /2013

وكان قد عين خليف الطراونة رئيسًا للجامعة. وفي هذا الطور من أطوارها بدا له أن يطبق إحدى مواد النظام الأساسي لأعضاء هيئة التدريس فقرر طبقا لها إنهاء خدمة الزميل محمود حسني مغالسة أستاذ النحو منذ سنوات كثيرة لبلوغه السبعين. وهذا الإجراء كان بمثابة صدمة للزميل الذي كان يقضي إجازة تفرغ في جامعة جرش. وقد أفاده المستشار القانوني أن الجامعة ممثلة برئيسها لا تستطيع إنهاء خدمة عضو هيئة التدريس وهو في إجازة تفرغ؛ إذ ينبغي ألا يجري ذلك إلا وهو على رأس عمله، فأعيد إلى الخدمة. بعدها استقعد. وهذه الحكاية تكررت فالدكتور كايد أبو صبحة قارب السبعين، ومنح إجازة، ثم أنهيت خدمته وهو مجاز على رأي الطراونة: إذا هبت رياحك فاغتنمها. وأفاده المستشار القانوني بأن رئاسة الجامعة، ومجلس العمداء، عدلا المادة التي تمنع إنهاء خدمة عضو هيئة التدريس في أثناء الإجازة، ويسمح التعديل الجديد بهذا. فأسقط في يده، واستخلص العبرة وهي أن الوقوع في الفخ ليس صعبا إلا على من كانت نواياهم شريرة.

عام الحزن

وفي شهر مارس آذار من العام وفي 20 منه جاءني الخبر المفجع بوفاة الوالدة الحاجة آمنة علي حسين عن عمر قارب التسعين أو أدنى. وكانت عليها رحمة الله قد اعتادت زيارتنا في عمان مرة على الأقل في السنة تحضر بصحبة أحد إخوتي عاصم، أو عباس، أو ياسر، وتقيم بيننا شهرا أو أكثر. وقد حافظت على هذا الترتيب بعد وفاة والدي عليه رحمة الله في العام 1997 وفي أيامها الأخيرة ونظرا لبلوغها الشيخوخة الظالمة، واجهت متاعب صحية كثيرة جدا. وقد سمعتها مرار تتعجل الموت، إذ إنها بدأت تضيق بالحياة، وتجد نفسها عاجزة عن الكثير مما يقوم به الأحياء فهي تؤدي الصلاة جالسة، ولا تستطيع سماع الأخبار على كثرة اهتمامها بالسياسة، فتطلب ممن يجالسونها أن يترجموا لها عن قرب ما يقال

أو يشاهد على شاشة التلفزيون، ومع ذلك ظلت تحتفظ بذاكرة جيدة. ولاح عليها شيء من ضعف البصر، والسمع، ولا تجد ما يجده الآخرون في الطعام من مذاق.

وقع علينا الخبر وقوع الصاعقة، مع أنه لم يكن مفاجئا، فعلى رأي أبي الطيب المتنبي:

نحن بنو الموت فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه

أقمنا عزاءً لها في منزل شقيقي الأكبر على كثب من المدارس العصرية في خلدة لمدة أيام ثلاثة. وقد أمه كثيرون من أبناء البلدة، والأقارب، والأصدقاء والمعارف. رحمها الله رحمة موصولة، وغفر لها وعفا عنها، إنه على كل شيء قدير، وبالاستجابة جدير.

الفصل السادس
تراكمات

في السنوات التي أعقبت العام 2013 أصبحت أستاذا بعد أن تكلل طلب ترقيتي بموافقة المحكمين أولا، ومجلس العمداء ثانيا، وبُلّغت بذلك بصفة رسمية. وإذا كان لي من ملاحظة على أجراءات الترقيات في الجامعة فإن ما أقوله أنها تجري بطرق عشوائية، وتتحكم بها الأهواء، والعلاقات الشخصية. فإن لم تكن علاقة عضو هيئة التدريس بمن لهم تأثير على تلك الإجراءات متينة بحيث يصدق عليها وصف العامة " مسح جوخ "كادوا له، وادعوا أن تقارير المحكمين هي التي أعاقت الترقية، فيطلب من المتقدم لها بحثان إضافيان، يقدمها خلال عام من الاعتذار، ولكن إذا كانت علاقته بذوي النفوذ من النوع الذي يتصف بالنفاق، أو الشللية، أو العشائرية، حظي طلبه بالموافقة، حتى لو كانت التقارير تعرب عن عدم لياقته بالرتبة الأقل، أي أستاذ مساعد، فما دون.

على أيّ حال قلّ عدد الساعات ولكن زاد العبء من حيث الإشراف والتأليف. وقد ظل عبئي في الإشراف يتزايد عاما بعد آخر، وبلغ عدد الطلبة الذين أشرفت على رسائلهم في الماجستير والدكتوراه عددا كبيرا. لا أستطيع تذكر الكثيرين ممن أشرفت عليهم، ونشروا رسائلهم في كتب. وبعضهم أصبح أستاذا.

ومن الخير للطالب أن يشرف عليه مشرف معروف في مواقع شتى من أن يكون أستاذا مجهولا لا يسمع به أحد خارج الجامعة التي هو عضو هيئة تدريس فيها. كنت قد أشرفت على طالب من السعودية، وعندما تقدم للتعيين في

إحدى الجامعات، طُلب للمقابلة، وسئل عن رسالته ومن مشرفه، فلما ذكر لهم اسمي، وأراد أن يعرفهم بي، قال له أحدهم: ومن منا لا يعرف من هو؟

روى لي هذه الحكاية عندما جاء للقسم زائرا ليستخرج بعض الأوراق. وقد تكون في هذا مجاملة، أو رياء، لكن الكثير من طلابي يعرفون أنني لا أتهاون في تحري الحقيقة، ولا أغض نظرا عن الأخطاء لا سيما الشائع منها، لأن الخطأ الفاحش شيء طبيعي ألا يغض النظر عنه. وقد يقع الطالب في سهو فيقتبس شيئا دون أن يحيل إلى المرجع، وهذا بالطبع قد لا يتنبه له المشرف، وقد مرّ علي واحد من الطلبة كتب عن المكان في الرواية السعودية النسوية. وتبين أنه اقتبس من كتاب لعبد الحميد محادين بعنوان جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، ولم يُحل إليه، فاقترحتُ ألا يمنح الماجستير، إلا أن اللجنة اكتفت منه بإعادة النظر في التوثيق.

وذات يوم اكتشفت أن واحدة من طالبات الماجستير التي أرادت الكتابة عن روايات عبد الله تاية، قد سرقت جهود بعض الدارسين فاقترحتُ حرمانها من الدرجة. وبالفعل حُرمت. أما الباحث الذي كتب عن النظرية اللسانية في التراث العربي في ضوء وجوه التخريج النحوي بإشراف أستاذ الأساتذة المرحوم ناصر الدين الأسد، فقد مُنح الدكتوراه، وعين بقرار استثنائي في القسم، ليتضح بعد ذلك بعامين، أن رسالته سطو حرفي على أخرى لباحث سوري من جامعة تشرين بالموضوع ذاته، وبالعنوان نفسه. وسحبت منه الدرجة.

اكتشفتُ سرقة لطالبة ماجستير أرادت الكتابة عن محمود رويش، وبعد انتظار طويل جاءتني بالفصل الأول منها، ووجدتها قد استنسخت بحثا منشورا عن الشاعر في مجلة جامعة دمشق، لناصر يعقوب. وواجهتها فاعترفت، ولكن رئيس القسم في ذلك الوقت اتصل بي، وطلب أن أغض النظر لأن الطالبة ستفصل إن لم تناقش في ذلك الفصل، ففوجئ بردي قائلا: شو؟ حاميها

حراميها؟ لا يعقل هذا. فاقترح تغيير المشرف، وهو بالطبع يتوقع ألا أوافق، فأجبته إنني موافق على هذا التغيير من البارحة، لا من اليوم. وبعد أسابيع قليلة علمتُ أنه ألف لها لجنة منه هو، ومن ثلاثة أعضاء في هيئة التدريس، ومنحت الدرجة التي لا تستحق.

ثقافة عمان

وفي السنة 2013 عرض عليّ موقع في الهيئة الاستشارية لمجلة عمان الثقافية، وهي المجلة التي صدرت عن دائرة العلاقات العامة في أمانة عمان عندما كان ممدوح العبادي أمينا لها، واستمرت في الصدور في زمن عمر المعاني، ونضال الحديد، قبل أن يُتوفى عبدالله حمدان(أبو مروان) عليه الرحمة. وكنت دائم الكتابة فيها أنشر مقالا أو دراسة بين عدد وآخر. لكن وجودي في الهيئةالاستشارية لم يكن مستمرًا. وقد أسهمت هذه المجلة مساهمة جيدة في الحياة الأدبية، والفنية، فكان من كتابها عراقيون وسوريون ومصريون وفلسطينيون عدا الأردنيين. واهتماماتها تطال القصة والرواية والشعر والموسيقى والرسم بأنواعه والسينما والتحقيقات التي ترصد النشاط المسرحي والفني ومعارض الكتب والمهرجانات ومنها مهرجان جرش.

مشروع منزلي

في العام 2014 شعرنا بشيء من الضيق في منزلنا في حي طارق. وهو منزل بدأ من شقة واحدة مشتركة مع شقة أخرى للمالك الأصلي الذي باعنا إياها. أي أن البناية من قسمين. ثم بعد عودتي من عُمان شيدنا طابقا فوق الطابق الأرضي، وجعلناهُ مشتركا مع الأرضي متبعين بذلك النظام المعروف باسم دوبلكس. ثم تلقيت قرضا من صندوق الإسكان التابع للجامعة بشرط استخدامه في توسيع المبنى. فبنينا طابقين جديدين. واكتشفنا في العام 2014 أن هذا التوسع لا يكفي، ولا يغني عن البحث عن خيار آخر، فالأبناء محمد،

ومحمود، تزوجا، وأصبح لديهما أبناء. والمبنى الذي نسكن فيه (الدوبلكس) ضاق بالأثاث، والمرافق، ومكتبي ضاق هو الأخر بالرفوف الخشبية التي تصطف فوقها الكتب في شيء يشبه الفوضى.

وذات يوم كنا فيه في زيارة لرائدة شقيقة هدى (ام عبدالله) وأعجبتنا قطعة أرض على شارع عريض يسمى شارع أحمد الحوراني في عين الباشا. مدخله من حيث تبدأ المشاتل التي تبيع أشتالا للراغبين في تزيين البيوت بالنباتات الداخلية، أو زراعة الغراس في الحدائق. والقطعة التي أعجبتنا كتب عل طرفها للبيع، ورقم هاتف للاتصال. ومختصر القول أننا ابتعنا تلك القطعة، ومساحتها تزيد قليلا عن الـ 500 متر. وكنا ننوي بناء منزل جديد عليها ننتقل نحن إليه، وينفرد الأولاد في المنزل القائم في حي طارق.

بعد تسجيل الأرض واستخراج المخططات دفعنا بها للمهندس مدحت أبو الرب. فهو الذي استعنا به سابقا عند بناء الطابقين في حي طارق. وأعد لنا التصاميم واتفقنا على أن يكون مهندسا مشرفا للمشروع. وأيا ما كان الأمر، ففي شهر تموز- يوليو من العام 2015 انتقلنا من المنزل السابق إلى المنزل الجديد الذي يتألف من تسوية جعلناها في شقتين إحداهما مكتب لي. وطابق أرضي. وبانتقالنا لهذا المنزل استقل محمد بطابق من المنزل الذي في طارق ومحمود بطابق آخر، وعرضنا الأرضي للإيجار. وفي العام 2015 بدأت مسيرة التنقل بين المسكن الجديد والجامعة مرورا بصافوط وصويلح والجبيهة وهي مسيرة يومية تستغرق في أكثر الأحيان 30 دقيقة.

شعرنا بشيء من الارتياح في المسكن الجديد، وأحطناه بما يشبه الحديقة، وغرسنا فيها أشجارا منها الليمون، والمندلينا، والبرتقال، والدراق، والنكترين، والمشمش، وغيرها. إلا أن هذا الشجر في الحقيقة يظل من باب التزيين إذ لا فائدة تجنى منه.

فقدان

وفي العام 2015 فقدنا واحدا من أدباء الساحة، وشيوخ العربية، وهو الدكتور ناصر الدين الأسد عليه رحمة الله. وقد تأثرنا لرحيله كثيرا وصلينا عليه في مسجد الجامعة صلاة أمها محمود الحديد أحد اعضاء هيئة التدريس، وأحد طلابه سابقا. وشاركنا في التشييع فقد دفن في مقبرة العائلة في أم الحيران. وشاركني في ذلك د. إسماعيل القيام أحد طلابه. وقد كتبت مقالا عن آثاره تذكيرا به، وأقامت الجامعة حفلا تأبينيا له بعد مرور 40 يوما على رحيله برعاية رئيس الجامعة خليف الطراونة، ومشاركة عدد من الأكاديميين، فضلا عن ابنه بشر الذي قدم إلى عمان من مركز عمله لهذا الغرض، وألقى فيه كلمة.

ومن المعروف أن الأسد من أوائل الحاصلين على الدكتوراه في الأردن. وقد درس في المملكة الليبية بعد تخرجه من جامعة القاهرة، وعين في العام 1962 رئيسا للجامعة الأردنية قيد التأسيس، فعميدا لكلية الآداب. وشغل الكثير من المناصب في الدولة. فمن منصب سفير الأردن في المملكة العربية السعودية، وممثلها في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أليسكو. فرئيس للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، فوزير للتعليم العالي. وله مؤلفات عدة. وفاز بعدد غير قليل من الجوائز، وبعد وفاته أصدرتُ عنه كتابا جمعت فيه ما نشرته عنه في مواقع عدة، ومناسبات متباعدة، واخترت عنوانه ناصرالدين الأسد وآثاره في اللغة والأدب وصدر في العام 2017.

وفي العام 2018 توفي الأستاذ محمود السمرة (1923- 2018) وكانت وفاته بعد مرض طويل تغير فيه كثيرا. وهو من رواد الحياة الأدبية والصحفية والأكاديمية. فقد عُدّ أحد مؤسسي مجلة العربي في الكويت، وعرف بمقاله الشهري على مدار سنوات كثيرة بعنوان" كتاب الشهر". وهو من مؤسسي الجامعة الأردنية برفقة المرحوم الأسد. ومن أوائل العمداء لكلية الآداب، فنائب رئيس

للجامعة لسنوات غير قليلة، فرئيس للجامعة من العام 1990- 1991 فوزير للثقافة، فمؤسس لجامعة البنات التي جرى تعديل اسمها لجامعة البترا. وهوعضو مجامع لغوية عدة. وفاز بجائزة الدولة التقديرية للآداب. وفي أربعينيته أقمنا ندوة عنه في مدرج الكندي شارك فيها عدد من المتحدثين منهم إبراهيم السعافين، ومحمد حور، وأنا، وأنشد سعيد يعقوب قصيدة في رثائه.

صندوق أسود

ذات يوم من العام 2019 جاءني طالب كويتي يتابع دراسة الماجستير برواية لإسماعيل فهد إسماعيل، و كان هذا الكاتب قد غادر الدنيا الفانية إلى الأخرى الباقية عن عمر يناهز الثامنة والسبعين. فقد ولد 1940 وتوفي 2018. وعنوان الرواية صندوق أسود آخر. كنت قد قرأت له روايات أخرى منها الشياح وهو اسم حي ببيروت، ورواية في حضرة العنقاء والخل الوفي. وأقبلت على قراءة الرواية، وفي ذهني أنها كرواياته الأخرى، لكنها شدتني بحبكتها المحكمة. فبطلة الرواية تحاول التعرف على الأسباب التي أوصلت والدها المتوفى لتلك النهاية التعسة. وتعالج الرواية موضوعا ذا حساسية بالغة، وهو موضوع الكويتيين الذي يطلق عليهم صفة بدون، أي: لا جنسية لهم.

فالكويتيون، على وفق الرواية، إما أنهم أقحاح، أو طارئون، لا يعترف بهم قانون التجنيس في الدولة. ولهذا هم هامشيون يحرم عليهم ما يحل للآخرين، شدتني شدا مثلما قلت. وفي الليلة التي سبقت 2 أذار من العام 2019 أصابني أرقٌ ولم أستطع النوم، فنهضت من فراشي وارتديت ما يقيني البرد، وجلست إلى مكتبي وشرعت في كتابة المقال عن رواية الكاتب. وعندما انتهيت عدت إلى فراشي، وحاولت النوم، إلا أن ذلك ظل بعيدا عن عيني، وفي نحو السادسة شعرت بضرورة التوجه إلى الحمام، وإذا بي أعاني من إسهال شديد. عدت بعد ذلك للفراش مرة أخرى، ولم استطع النوم. ثم شعرت مرة أخرى

بحاجة للذهاب للحمام، ولاحت مني نظرة للمرحاض فتبين لي سواد ما أخرجت. وتجاهلتُ الأمر، ثم عدت إلى فراشي.

وبعيد ذلك بساعة تقريبا تكرر الشعور نفسه، بضرورة التوجه للحمام، فأيقظت هدى. وقد شعرتُ بعد إيقاظها بوقت أنني لا أملك السيطرة على نفسي، وأنني قد أسقط على الأرض. فدعوتها لتقيس لي ضغطي. وفوجئت به إذ كان في نزوله ينذر بالخطر على حياتني. سارعنا إلى مستشفى الجامعة بسيارة ابني أحمد وأدخلت للطوارئ. وبعد الفحص والتحليل المخبري تبين أنني اعاني من نزيف داخلي، وأن الدم لدي انخفض إلى 8 بدلا من 14 وتقرر بقائي في العناية المركزة والامتناع عن الأكل، والاكتفاء بالتغذية عن طريق الأوردة. وجاءَ الأطباء وبعد النظر في نتائج التحاليل تقرر إجراء عملية تنظير لي عن طريق الحلق. وهي عملية كنت سابقا قد مررت بها مرتين أولاهما في مستشفى البشير، والثانية في مستشفى الجامعة أجراها لي الدكتور مصطفى الشناق.

وهي عملية صعبة إذ يدخلون أنبوبا ينتهي بكاميرا من الفم عبر الحلق بعد تخديره، ثم يطلب منك الممرض أو الطبيب أن تبلع ليدخل الأنبوب ويصل إلى نهاية المعدة حيث الإثنا عشر. ويحس المريض في هذه العملية مرارا بالاختناق. وبعد التنظير كتبت لي وصفة من الأدوية التي صرفت من الصيدلية. وتقرر أيضا ضرورة إعطائي وحدتي دم.

ونقلت بعد 4 أيام من العناية المركزة إلى غرف المرضي. وفي اليوم الخامس كتب لي الخروج وقد طمأنني الطبيب، ونصحني بمتابعة تناول الأدوية. وكنت منذ صباي أشكو من حين لآخر ألما يشبه التشنج في المعدة أو الأمعاء لا أستطيع التحديد بالضبط. وأحيانا أعاني من حموضة يسميها عامة الناس (الحرقة) وقد اعتدت على أخذ بعض الأدوية منها أقراص ريني. وفي أثناء وجودي بالمغرب شكوت من هذه الأعراض لطبيب فنصحني بدواء ثم نهاني

عن تناول الأطعمة (المقلية) والأطعمة التي تحتوي على الفلفل الحار والأسود وغيره من البهارات. وفي أثناء وجودنا بالزرقاء راجعت طبيبا مختصا بالأمراض الباطنية (أبو شرار) فنصحني هو الآخر بما نصحني به طبيب الفقية بن صالح. وفي أواخر العام 1992 اعترتني تلك الأعراض بحدة. وأصابني الإسهال مرارا وكذلك القيء. وراجعت طبيبا باطني الاختصاص فنصحني بعملية التنظير. وقد توجهت، لمستشفى البشير، وخضعت لتلك االعملية التي أشرف عليها طبيب خليلي من آل المحتسب. وأخبرني أنني بحاجة لعملية لأن نتائج التنظير أظهرت وجود تليُّف في الإثني عشر. وحدد لي موعدا على نية التوفيق.

وعندما حان الموعد، وهيأت نفسي لذلك، قابلت الطبيب نفسه في العيادة فاعتذر، طالبا تأجيل الموعد لوجود حالات مستعجلة كثيرة اضطرت إدارة القسم الجراحي لاستقبالها.

ربما كان هذا التأجيل من حظي. لأنني بعده بأيام التحقت بالجامعة وتبعا لوظيفتي الجديدة امتلكت حقا بالتامين. ولا جَرَم أن الخدمة والأجهزة في مستشفى الجامعة أفضل حالا من البشير، ونصحني المرحوم عسكر المراسل في القسم أن أختار الدكتور مصطفى الشناق إذا راجعت العيادات. ولا ضرورة لإعادة ذكر ما جرى. فهو بعد التنظير كتب لي دواءً يستمر تناوله يوميا لعدة اشهر وفي كل شهر مراجعة، وحذرني من تناول الأسبرين. ولم أتعرض لما يذكرني بتلك المعاناة إلا بعد كتابتي لمقال عن رواية صندوق أسود آخر لإسماعيل فهد إسماعيل رحمه الله.

طارئ من الصين

بعد ذلك بعام، وفيما كنت في مكتبي، اقتحم عليَّ خلوتي شاب عشريني قدرت أنه في أواخر العشرينات من عمره. دخل مسلما، وقال إنه كان أحد

طلابي قبل سنين. رحبت به، ولما أظهرت له أنني لا أعرفه، وسألت عن اسمه، قال: أكيد تغيرت كثيرا من تلك الأيام.

دعوته للجلوس، فاستجاب لي. وسألته إن كان يرغب في قهوة أو أي شيء مما يقدمه أبو طه فاعتذر. وسألته ما هي أخبارك، وما آخر شأنك؟ فقال: إنه يتابع دراسته العليا في الصين. تذكرت الحديث الشريف اطلبوا العلم ولو في الصين. انتفض شيء في صدري، وهو يذكر الصين. فقد كانت الأخبار تروي أن طائرة أردنية غادرت لإعادة الطلاب الأردنيين من الصين بسبب تفشي فيروس كورونا هناك، وأن الطائرة وصلت قبل يوم أو يومين. وبادرته قائلا: في بكين؟ أجاب لا، في أوهان.

وكنت قد قرأت وسمعت في الأخبار أن هذا الفيروس اللعين ظهر أول أمره في تلك المدينة، بل سمعت ما هو أكثر وأخطر. فهي المختبر الذي ظهر فيه وتم تعميمه ونشره في العالم. فازددت خوفا من أن يكون حاملا للفيروس المعدي الذي ينتقل بطرائق شتى. وحدثني بإيجاز عن موضوع فيه شيء من المقابلة بين ألفاظ عامية في العربية ومقابلاتها بالصينية. حمدت الله عندما غادر المكتب. ولكنني ظللت أتوجس من زيارته هذه التي لم تكن في البال، ولا عنَّت لي بخاطر. عندما غادرت المكتب متجها لقاعة المحاضرة، فوجئت به جالسًا في مكتب الزميلة دة. فاطمة العليمات. وقلت في نفسي لعله يصر إصرارا كبيرا على نشر العدوى بيننا. الله وحده يعلم من هو الذي سلطه علينا.

البعد عن التعليم

بعده بأيام اتخذت الحكومة، كما الجامعة، إجراءات احترازية لمنع العدوى، ونفشي الكورونا. وتحولت المحاضرات إلى وقائع تقدم عن طريق الـ teem تارة وزوم zoom وغيرها من مواقع إليكترونية. وقد رأى بعضهم في ذلك بعدا عن التعليم وليس تعليما عن بعد. وحُظر التنقل واستعمال السيارات ومنعت صلاة

الجمعة، وأغلقت جوامع، ومحلات، ومقاهٍ، ومطاعم، ومولات، وأسواق، وفرض التطعيم، وارتداء الكمامة إلخ... وظلوا على دأبهم هذا حوالي السنتين. ضقنا فيها ذرعا، وفضل بعض الناس الموت على حياة كهذه.

قبل شيوع الاحترازات المذكورة وتدابير السلامة من كورونا، كنت قد استخرجت مخططات وتصاميم لإضافة طابقين على المنزل الذي انتقلنا إليه في العام 2015 . واتفقنا مع المقاول محمد المشني، وهو شقيق رأفت نسيبنا الذي سبق ذكره في موقع آخر، أي في (عامان في الرياض) وبعد أن بدأ بالتنفيذ فاجأتنا تلك الإجراءات على عهد رئيس الوزراء عمر الرزاز الذي اعترف في آخر عهده برئاسة الوزارة أن كل الإجراءات التي فرضها اعتمادا على مادة من مواد الأحكام العرفية كانت فاشلة، ولم تحل دون انتشار الفيروس، وقد سمعته بنفسي يقول في خبر متلفز لقد اتضح أن الحظر والإغلاق لا يجديان.

وفي الوقت ذاته لم تحل تلك الإجراءات دون تدمير الحياة الاقتصادية، بل زادت الطين بلة دعاياته العنيدة للضمان الاجتماعي الذي ساعد على إفلاس كثير من الشركات، والمشروعات الاستثمارية الصغيرة، مما دعا الحكومة التي جاءت بعده للقيام بإلغاء جل الإجراءات التي تمسك بها إلى العظم بعد فوات الأوان، ووقوع الفاس في الراس، فلقد قدم براهين كثيرة على فشله، وإخفاقاته الكثيرة، مؤكدًا ألا علاقة له لا من حيث الفكر، والرؤية، بأبيه المناضل القومي المرحوم منيف الرزاز.

وهذه الإجراءت أعاقت إلى حد ما السرعة في الإنجاز مع أن المقاول المذكور ظل يحاول عن طريق التهرب من تلك الإجراءات للإسراع. وفي العام 2021 انتهى من بنائها ودخلنا في مرحلة التشطيب الذي أشرف على الانتهاء أواخر العام. وقد انتقل ابننا محمود بعائلته إلى الطابق الثالث وهو الذي يقع فوقنا مباشرة وتركنا الرابع فارغا لأحمد الذي بقي بلا عمل مدة تقرب من السنوات الثلاث.

ثم أدار مشروعا مع رأفت المشني زوج ابنتنا منال، لكنه بسبب الإجراءات التي ذكرتها آنفا لم يكن مردوده كافيا. وزادت الطين بلة تدخلات الضمان الاجتماعي الذي فرض على المشروع مبالغ تربو على الدخل كاملا مما اضطره للتخلي عن المشروع. وفي الأثناء تقدم لخطبة فتاة سورية تتابع دراستها في جامعة الزيتونة، وغادر بعدها للعربية السعودية، فقد توفر له عقد عمل في مشروع المدينة الجديدة نيوم.

وفي العامين اللذين عشنا فيهما تحت وطأة الفيروس اللعين فقدنا عددا من الأصدقاء والأحبة منهم الشاعر الكبير مريد البرغوثي الذي غادرنا في 14 فبراير شباط 2021 . وهو شاعر ولد في قرية دير غسانة، ودرس اللغة الإنجليزية في القاهرة، وتخرج عام 1967 وهو العام الذي احتلت فيه أجزاء كبيرة من فلسطين. وهو حائز على جائزة نجيب محفوظ عن كتابه **رأيت رام الله.** وله دواوين عدة وقد كتبت عنه بعد وفاته سلسلة من المقالات. كما فقدنا شاعرا آخر هو المرحوم عزالدين المناصرة الذي توفي في 15 إبريل- نيسان من العام نفسه 2021 وهو من بلدة بني نعيم في الخليل. وكان قد ولد عام 1946 وله مؤلفات كثيرة، شعرا ونثرا. وهو أكاديمي درس في جامعة فيلادلفيا. وقد كتبت عنه إثر وفاته عددا من المقالات في الدستور، وفي القدس العربي. وتناقلتها مواقع إلكترونية، ونُظم مؤتمر في بني نعيم عن شعره. وقد جمعت ما كتبته عن الشاعرين، من قبل ومن بعد، في كتاب بعنوان **شاعران من فلسطين: البرغوثي وعز الدين.**

وفقدنا في العام نفسه ولأسباب لها علاقة بكورونا الشاعر والمترجم البارع د. فايز صياغ. وهو من مواليد الكرك 1942 ودرس في الجامعة الأميركية ببيروت. شاعر من جيل الأفق الجديد، وأول رئيس تحرير لمجلة أفكار التي صدرت عن دائرة الثقافة والفنون في العام 1966 وقد غادر إلى قطر في العام

1967 وتابع دراسته في كندا. وأصدر ديوان شعر ببيروت بعنوان" **الحب مثلا** " وأضاع ديوانا آخر في أثناء الحرب الأهلية في لبنان. فاز بجائزة حمد عن الترجمة والتفاهم الدولي. وكذلك فاز بجائزة الملك عبدالله بن عبد العزيز في الترجمة. كتبتُ عنه مقالا في القدس العربي تناقلته صحف ومواقع إلكترونية جمة. وجعلت من ذلك المقال فصلا في كتابي **نوافذ مضاءة : عن الشعر ونقده**. بعده بأقل من سنة توفيت زوجته الإعلامية الروائية ليلى الأطرش في 17 تشرين الأول 2021 عن عمر 73 سنة. وبعض الناس يخلطون بينها وبين الممثلة الفلسطينية ليليا الأطرش. وقد كتبت عنها أيضا مقالا في القدس العربي نشر على كثير من المواقع. ولي كتاب عنها بعنوان **جولات حرة في مرويات ليلى الأطرش** صدر عام 2016. ولها تسع روايات الأولى بعنوان وتشرق غربا والأخيرة كانت بعنوان **ترانيم الغواية**.

وتوفي في الحقبة المشؤومة بكورونا الشاعر الكبير خالد أبو خالد، الذي ورد ذكره في هذه السيرة عند الإشارة لسيلة الظهر. وكانت وفاته في 31 ديسمبر من العام 2021 وهو من مواليد تلك المدينة سنة 1937. عرف عنه أنه من ابناء فتح، ولكنه انشق عنها بعد مغادرة المقاومة لبيروت عام 1982 وابتعد عنها ابتعادا أكبر بعد اتفاق أوسلو المشؤوم. وقضى أطول سني عمره في دمشق بعد الكويت. اشهر كتبه **العودسا الفلسطينية** وقد كتبت عنه بعيد وفاته مقالات نشر بعضها في كتابي النافذة المضاءة.

وممن توفوا في هذه الحقبة د. نهاد الموسى أحد اساتذتي في قسم اللغة العربية في الجامعة الأردنية. وهو من العباسية وقد درس في القاهرة ودمشق ومن مؤلفاته **نظرية النحو العربي**.

منتهى القول

شجعني غير واحد على كتابة هذه السيرة، فلعل فيها ما ينفع الشداة الذين يجدون في مؤلفها قدوة يأملون السير على دربه، والاقتداء به. لا سيما وأنني أقوم بكتابتها بعد أن بلغت الخامسة والسبعين من العمر، وآن الأوان لكي أنظر إلى الوراء- لا في غضب على رأي جون أوزبورن- بل في شيء من التأمل والرضا عما كان، وما يكون.

قلت: إن دراستي أتاحت لي التعرف على أشياء كثيرة، وغربتي زادتني معرفةً بأشياء أخرى، وتنقلي بين عواصم عدة، ووظاائف عدة، أغنى تجربتي في الحياة، علاوة على أن تنقلي من مقام لآخر أضاف لهذه التجربة مزيدا من التجارب. فقد اعتدتُ منذ البدء على السير في طرق مستقيمة لا أوثر كبعض الناس المناورة، أو التهرب من الواجب بحجج وذرائع مختلفة، أو أحاول كسب ما ليس من حقي كسبُه بطرق ملتوية تنم عن أنانية بغيضة، وسوء تدبير.

ففي السنوات الأخيرة لاحظتُ أن بعض المدرسين العاملين في الجامعات يتغاضون عن الكثير، ويمنحون الطلبة درجات مفرطة في العلو ليكسبوا من ذلك شعبوية تظهر آثارها في التدريس الإضافي تارة، وفي الصيفي تارة أخرى، وفي الإقبال على المناقشات، والإشراف تارة ثالثة. ولا أبالغ أو أتجنى على الحقيقة إذا قلت إن بعض المسؤولين في الجامعات يشجعون هذا تشجيعا غريبا فينسحب عليهم الزعم المتوارث عن العامة "إن حاميها هو الحرامي ".

ذات يوم قام رئيس القسم بتنظيم جدول بنسب العلامات، فاتضح أن أحدهم مثلا نسبة الحاصلين على درجة (أ) عالية جدا لدرجة لا تصدق، إلا إذا كانوا طلاب شعبته عباقرة. وقد لفت النظر لهذا، وتبين أن المعني بهذا لا

يكترث، ولم يبالِ، بدليل أن الفصول التالية كانت نتائجه كنتائج ذلك الفصل.أما لم لا يكترث، ولا يبالي، فذلك لأنه مدعوم من الهيئة الإدارية.

وبعضهم يتهاون في الرسائل، وكم اشتركتُ في مناقشات، فوجدت في الرسائل نفايات لا تستحق أن تلقى بسلال المهملات. علاوة على أن بعضهم يشرف على رسائل لا تستقيم، لا من حيث اختيار الموضوع، ولا العنوان، ولا تحديدهُ في الزمان والمكان.

وفي جل حياتي العملية كنت حريصا ألا أقع تحت تأثير أي غرض من أغراض الدنيا، فأميل عن الحق، والعدل، وعن النزاهة .

وهذا ينسحبُ على سلوكي الثقافي، والأدبي. فقد وضعت لنفسي قاعدة حاولتُ ألا أحيد عنها، وهي ألا أكتب عن عمل أدبي أو أديب إلا إذا كان جيدًا وفيه الحد الأدني من البراعة المنشودة سواءٌ أكان النص شعرا أم نثرا متخطيا بل متجاوزا معايير الجوائز من كتارا أو بوكر. لذا يجدُ الناظر في آثاري أنها تقتصر على من يجمع الناس على تقديمهم في القصة أو الرواية أو الشعر. فقد كتبت كتابا عن جبرا إبراهيم جبرا وهو من هو. وعن محمود الريماوي وهو من هو. وعن تيسير سبول وهو في الرواية من هو. وعن محمود درويش وهو في الشعر من هو، وعن ليلى الأطرش وجمال أبو حمدان ومحمد القيسي وناصر الدين الأسد ومحمود السمرة، وحميد سعيد، وليس فيهم واحدٌ ممن لا يجمع المهتمون والمختصون على أنهم من كبار الشعراء والكتاب في تخصصهم الذي به عرفوا.

وكتبتُ عن النقد الأدبي كتابا تناولت فيه مائة عام من النشاط النقدي العربي، وليس في ظني أن ثمة من ألف كتابا في هذا الموضوع مستقصيا النقد الأدبي في هذه المسافة الزمنية والمكانية وبالنهج المتبع. فقد عرضتُ تقريبا لكل ما كتب ونشر مبينا قيمته، وما أضافه من جديد، ولا يعيبني القول: لو أن مؤلفا آخر سعى لتتبع المصادر، والمراجع، في الكتاب المذكور، وإعادة النظر فيها بشيء

من التفصيل الذي يتجاوز ما عمدت إليه من تكثيف، لأمكنه أن يؤلف كتابا في عدة أجزاء على النحو الذي قدره المرحوم ناصر الدين الأسد في رسالة قصيرة بعث بها إلي بعد اطلاعه عليه.

وهذا نهجي الذي أتقيد به في جل ما كتبته، وما أكتبه، ينسحبُ هذا على كتاب بنية النص الروائي، وكتاب في نظرية الأدب ونحو النص.

وكم من كاتبٍ أراد مني تناول رواية له، أو ديوانا، فأشترط عليه، وعلى نفسي أن يكون في تلك الرواية متفوقا، وفي الديوان شاعرا مفلقا، وفي ذلك الكتاب باحثا جهبذا. وإلا فإنني لا أعرض له، ولا أذكره، ولا أتناوله، لا في مقال، ولا في غيره. ولديّ لهذا السبب خصوم كثيرون، لا أقيم لهم وزنا، ولا اعتبارًا، لأنني أضع في حسابي أنَّ العلاقات الإنسانية شيء والكتابة الأدبية شيءٌ آخر. فإذا وقعت بين يدي رواية لصديق، أو شعرٌ لمقرَّب مني، ولم يكن في المستوى، فالأولى بي ألا اقترب منه. والشواهد على هذا كثيرة جداً، وأنا اعتقد أن هذا هو المذهب الصحيح، وهو الحقّ الأبلجُ الصريح.

الفهرس

الفصل الأول: أول الغيث	7
يعبد	11
البحث عن مدرسة	14
عبق التاريخ	15
كنافة نابلس	17
الصابون	18
أنا حرة	19
طريقي الأخرى	21
المعلم خميس	24
رفيديا	25
جنين	28
إلى حيفا من حطين	31
ماجدولين	34
فاشهدوا	38
الفصل الثاني: مدارات المعرفة والبحث	**41**
ابحث عن السبب	46
مرة أخرى حزيران 67	47
عسكر والبكالوريوس	49
أسوار عكا	54
أكتوبر 1973	66

دروب أولى	69
الفصل الثالث: تغريبتي	**75**
أم الربيع	81
جامع الفنا	85
قصر البديع	87
ذات صيف على الشاطئ	88
زمن الوصل	92
حمص الأندلس	97
لؤلؤة في محارة	102
عود على بدء	109
الفصل الرابع: الجامعة مرة أخرى	**111**
بطيختان بيد واحدة	111
دراستي العليا	116
إلى عُمان	121
عمان مرة أخرى	123
على رأي فريد الأطرش	127
الأدب الفلسطيني	130
11 سبتمبر	133
وفيات الأعيان	136
العُجيلي	145
القدس عاصمة الثقافة	149
مع ابن خلدون	150

الفصل الخامس :عامان في الرياض **154**
من تأليفي 159
أولويات 162
عام الحزن 164
الفصل السادس:تراكمات **165**
ثقافة عمّان 167
مشروع منزلي 167
فقدان 169
صندوق أسود 170
طارئ من الصين 172
البعد عن التعليم 173
منتهى القول 177

للمؤلف

1. الشعر المعاصر في الأردن، ط1، عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، 1975
2. في الأدب والنقد، ط1، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ورابطة الكتاب الأردنيين، 1980
3. من يذكر البحر،(قصص) ط1، عمان: رابطة الكتاب الأردنيين، 1982
4. تداعيات ابن زريق البغدادي الأخيرة، (شعر) ط1، عمان: مطبعة شوقي معبدي، 1984
5. في القصة والرواية الفلسطينية، ط1، عمان: دار ابن رشد للنشر والتوزيع، 1984
6. مقالات ضد البنيوية، ترجمة- ط1، عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1986
7. تجديد الشعر العربي، ط1، عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1987
8. الانتفاضة الفلسطينية في الأدب العربي، ط1، عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1990
9. فصول في الأدب الأردني ونقده، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 1991
10. أوراق في اللغة والنقد الأدبي، ط1، دار الينابيع للنشر، عمان، 1993
11. أحاديث في الشعر الأردني والفلسطيني الحديث، ط1، عمان: دار الينابيع، 1993
12. غبار وأقنعة لمحمود سيف الدين الإيراني(تحقيق) ط1، عمان: دار الكرمل بدعم من مؤسسة عبد الحميد شومان، 1993
13. الرواية في الأردن في ربع قرن 1968- 1993، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 1994
14. القصة القصيرة وبحوث أخرى، ط1،عمان: رابطة الكتاب الأردنيين، ودار الكرمل للنشر والتوزيع، 1994

15. فخري قعوار دراسة في فنه القصصي، ط1، عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1995
16. النص الأدبي تحليله وبناؤه، ط1، عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1995
17. الأسلوبية ونظرية النص، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997
18. أمين شنار الشاعر والأفق، ط1، عمان: صحيفة الدستور والاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، 1997
19. محمد القيسي الشاعر والنص، ط1، بيروت: المؤسة العربية للدراسات والنشر، 1998
20. مهارات الاتصال(مشترك) ط1، عمان: مطبعة الجامعة الأردنية، 1999
21. تحولات النص، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 1999
22. الضفيرة واللهب (دراسات في الشعر العربي القديم والمعاصر) ط1، عمان: الدائرة الثقافية بأمانة عمان، 2000
23. ظلال واصداء أندلسية في الأدب المعاصر، ط1، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2000
24. جبرا إبراهيم جبرا الأديب الناقد، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001
25. أقنعة الراوي، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 2002
26. في النقد والنقد الألسني، ط1، عمان: الدائرة الثقافية في أمانة عمان؛ ودار الكندي، 2002
27. مقدمات لدراسة الحياة الأدبية في الأردن، ط1، عمان: دار الجوهرة للنشر والتوزيع، 2003
28. مدخل إلى دراسة الشعر العربي الحديث، ط1، عمان: دار المسيرة، 2003
29. في اللسانيات ونحو النص، ط1، عمان: دار المسيرة، 2003

30. نقاد الأدب في الأردن وفلسطين، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003
31. فصول في نقد النقد، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 2005
32. تيسير سبول من الشعر إلى الرواية، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005
33. من معالم الشعر الحديث في الأردن وفلسطين، ط1، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2006
34. شعراء تحت المجهر، ط1، عمان: ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2006
35. في دائرة الضوء- تراجم وشخصيات، ط1، عمان، الدائرة الثقافية، 2007
36. فن الكتابة والتعبير(مشترك)، ط1، عمان: دار المسيرة، 2007
37. في الرواية النسوية العربية، ط1، ورد للنشر والتوزيع، عمان، 2007
38. مقاربات في نظرية الأدب ونظرية اللغة، ط1، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2007
39. عروض الشعر العربي، ط1، عمان: دار المسيرة، 2007
40. بنية النص الروائي من المؤلف إلى القارئ، ط1، عمان، عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، 2008
41. من الاحتمال إلى الضرورة، ط1، عمان: مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2008
42. في السرد والسرد النسوي، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 2008
43. من الشعر الحديث والمعاصر(أعلام وشخصيات)، ط1، عمان: دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2009
44. المثاقفة والمنهج في النقد الأدبي، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2010
45. مدخل إلى علم اللغة، ط1، عمان: دار المسيرة، 2010
46. في نظرية الأدب وعلم النص، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم (ناشرون) 2010
47. شعرية القصة القصيرة وحوار الأجناس، ط1، عمان: وزارة الثقافة، 2010

48. من أدب البلدان في القدس وعمان، ط1، عمان: الدائرة الثقافية – الأمانة، 2010
49. تأملات في السرد العربي، ط1، عمان: دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2010
50. محمود درويش قيثارة فلسطين، ط1، عمان: دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2011
51. الصوت المنفرد (من القارئ إلى النص ومن النص إلى القارئ)، ط1، عمان: أمواج للنشر والتوزيع، 2011
52. أوراق لسانية ونقدية معاصرة، ط1، عمان: مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2012
53. الرواية، التاريخ، السيرة، ط1، عمان: دار أمواج للنشر والتوزيع، 2012
54. واقع الدراسات النقدية العربية في مائة عام، ط1، عمان: عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، 2013
55. قضايا لغوية معاصرة بين النظرية والتطبيق، ط1، عمان: مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2013
56. مقدمة في علم أصوات اللغة العربية، ط1، عمان: أمواج للنشر والتوزيع، 2013
57. راهن الدراسات النقدية في الوطن العربي، ط1، الرياض، كرسي عبد العزيز المانع للدراسات اللغوية والأدبية– جامعة الملك سعود، 2013
58. الأسلوبية العربية – مدخل إجرائي، ط1، عمان: دار جهينة للنشر والتوزيع، 2014
59. نحو النص بين النظرية والتطبيق، دار أمواج للنشر والتوزيع، عمان: 2014
60. بحوث وأوراق في أدب الأردن وفلسطين، فضاءات للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2014
61. أساسيات الرواية، ط1، عمان: فضاءات للنشر والتوزيع، 2015
62. بلاغة الرواية ومسارات القراءة، فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2015
63. حاضر الشعر وتحولات القصيدة- نحو قراءة جديدة للشعر العربي الحديث، دار الآن (ناشرون وموزعون) عمان، ط1، 2016

64. مراوغة السرد وتحوُّلات المعنى، فصول في القصة القصيرة، الآن- ناشرون وموزعون، ط1، عمان، 2016
65. جولات حرة في مرويات ليلى الأطرش من 1988- 2014، الآن- ناشرون وموزعون، عمان، ط1، 2017
66. ناصر الدين الأسد وآثاره في اللغة والأدب، أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017
67. جمال أبو حمدان 1970- 2015، ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017
68. محمود الريماوي من القصة إلى الرواية، دار فضاءات للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2018
69. اجتهادات نقدية في الشعر والقصة والرواية، الألفية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2018
70. الناقد وعالمه دراسات مختارة- إحسان عباس، جبرا إبراهيم جبرا، يوسف اليوسف.ط1، أمواج للطباعة والنشر والتوزيع،عمان 2018
71. القابض على الجمر، حميد سعيد - فصول في شعره وفي ما كتب عنه، ط1، هبة للنشر، عمان، 2018
72. محمد القيسي قيثارة المنفى وتباريح الشجن، أمواج للطباعة والنشر، 2018.
73. علي جعفر العلاق، شعرية الحداثة وحداثة الشعر، ط1، عمان، هبة للنشر، 2018
74. محمود السمرة والنقد الأدبي، ط1، هبة للنشر، عمان، 2019
75. الذاكرة والمتخيل في الخطاب السردي، ط1، عمان: دار أمواج للنشر، 2019
76. بين الرواية والسيرة، ط1، عمان: دار أمواج للطباعة والنشر، 2020
77. في البلاغة الجديدة وقضايا أخرى، دار أسامة ودار النبلاء للنشر، عمان، 2021
78. شاعران من فلسطين: البرغوثي وعز الدين، ط1، عمان: دار الخليج 2021

79. السرد ومظاهره في القصة العربية القصيرة، ط1، عمان: دار الخليج 2021
80. ألفاظ الألوان ودلالاتها عند العرب، ط1، عمان: دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، 2021
81. مفاهيم نقدية، ط1، عمان: دار الخليج، 2022
82. مشكلة البنية في الرواية العربية المعاصرة، ط1، عمان: دار الخليج، 2022
83. لغويات، ج1 و ج2 ، ط1، عمان: دار الخليج، 2021 – 2022
84. الرواية الكويتية بين جيلين، ط1، عمان: دار الخليج، 2022
85. صفوة المجتبي من الأدب المغربي، ط1، عمان: دار الخليج، 2022
86. في اللغة والتراث، ط1، عمان، دار الخليج، 2023
87. الإعلام عمَّن عرفتُ من الأعلام، ط1: عمان، دار الخليج 2023
88. مع النقد والنقاد، ط1،عمان: دار الخليج، 2023
89. الغاوون: عن شجون الشعر وسحر الموسيقى، ط1، عمان: دار الخليج 2023
90. بهاء طاهر وآخرون، ط1، عمان: دار الخليج، 2023
91. أوراق من الذاكرة، سيرة، ط1، عمان، دار الخليج،2024
92. قراءات في كتب السيرة، ط1، عمان: دارا لخليج للطباعة والنشر والتوزيع، 2024
93. السياق وأثره في الدرس اللغوي- قراءة في التراث اللساني، ط1، عمان: دار الخليج، 2024
94. لغويات جـ 3، ط1، عمان: دار الخليج، 2024